

ول
وايرل ديورانت
قصة
الحضارة
25
الإصلاح الديني



قصة الحضارة

ول وايريل ديورانت

الإصلاح الديني

ترجمة
الدكتور عبد الحميد يونس

مراجعة
الأستاذ علي أدهم

الجزء الرابع من المجلد السادس


٢٥



تونس



بيروت

دار الجيل : ص.ب: ٨٧٣٧ ـ ت: ٢٦٦١٥٨ ـ ٢٦٠٤٦٥ ـ تلكس: ٢٣٤٣٠
العنوان البرقي: دار جيلاب ـ بيروت ـ لبنان

فهرس الجزء الرابع من المجلد السادس

صفحة

صفحة

صفحة

الفصل الثاني والعشرون

فرانسيس الأول والإصلاح الديني في فرنسا

١٥١٥ – ٥٩

١ – الملك الأنف الكبير

ولد تحت شجرة في كوفياك في اليوم الثاني عشر من سبتمبر عام ١٤٩٤؛ وجده هو شارل أورليان الشاعر، وربما كان الغناء وحب الجمال في دمه؛ وأبوه شارل أمير فالوا وأورليان، كونت أنجوليم، الذي مات بعد أن اقترف الكثير من الآثام، وكان فرانسيس لم يتجاوز بعد العام الثالث من عمره. وأمه لويز أميرة سافوى، وهي امرأة على جمال واقتدار وطموح، تتعشق الثراء والسلطة. وقد ترملت في السابعة عشرة من عمرها، وأبت الزواج من هنرى السابع ملك إنجلترا، ووقفت جهدها – إذا استثنينا بعض العلاقات المحرمة – على إعداد ابنها ليكون ملكاً على فرنسا؛ ولم تشعر بالأسى عندما وضعت آن أميرة بريتانى، زوجة لويس الثاني عشر، ولداً ميتاً، وتركت لفرانسيس ولاية العهد. وعين لويس، وقلبه مفعم بالحزن، فرانسيس دوقا لفالوا، ورتب له المربين لتلقينه فن تدبير الملك. وأسبغت عليه لويز، وكذلك أخته مرجريت، من عاطفة الأمومة ما وصل إلى درجة الوله: وأعداه ليكون ملكاً على قلوب النساء. وكانت لويز تناديه «مليكي» مولاى، قيصرى؛ وغذته بقصص الفروسية وتباهت بمغامراته الغرامية، وكان يغمى عليها عندما ترى الضربات تكال

له فى المبارزات التى شغف بها . وكان شاباً وسيما مرحاً أنيساً شجاعاً ، يواجه الأخطار بصدر رحب وكأنه رولان أو أماديس ، وعندما أفلت خنزير برى من قفصه ، وانطلق يعيث فساداً فى فناء قصر فرانسيس ، واجه الأمير الوحش ، وذبحه فى بطولة رائعة ، فى الوقت الذى فرّ فيه الآخرون لا يلوون على شيء .

وعندما بلغ الثانية عشرة من عمره (١٥٠٦) خطبوا له كلود أميرة فرنسا ، ابنة لويس الثانى عشر ، البالغة من العمر سبع سنوات . وكانت موعودة بأن تكون خطيبة للصبى الذى قدر له أن يصبح الإمبراطور شارل الخامس ، إلا أن الخطبة فسخت لكى تتجنب فرنسا الوقوع فى براثن أسبانيا ، وكان هذا موضوعاً واحداً من مئات موضوعات الاستفزاز التى حفزت إلى الصراع بين بيتى هابسبورج وفالوا من الفتوة إلى الموت . وعندما بلغ فرانسيس الرابعة عشرة من عمره ، أمر بأن يهجر والدته وأن ينضم إلى لويس فى شينون ، وتزوج كلود عندما بلغ العشرين ، وكانت فتاة بدينة بليدة عرجاء ، ولودا صالحة ، وأنجبت منــه أطفالا فى أعوام ١٥١٥ ، ١٥١٦ ، ١٥١٨ و ١٥٢٠ ، ١٥٢٢ ، ١٥٢٣ وماتت عام ١٥٢٤ .

وفى غضون ذلك أصبح ملكاً (أول يناير عام ١٥١٥) ، وغمرت السعادة قلوب الجميع ، وعلى رأسهم أمه التى أنعم عليها بدوقيتى أنجوليم وأنجو . وكونتيتى ماين وبوفور ، وبارونية أمبواز . بيد أنه لم يكن أقل كرماً مع الآخرين ــ النبلاء والفنانين والشعراء والوصفاء العشيقات . وكان صوته المرح ودماثته وهدوء طبعه وحيويته المتدفقة وجاذبيته ، وجمعه بين سمات الفروسية ومزايا عصر النهضة كل ذلك جعله أثيراً لدى أبناء جلدته ، بل وحاشيته . واغتبطت فرنسا وعلقت عليه آمالا عريضة . كما حدث فى إنجلترا إبان تلك السنوات التى حكم فيها هنرى الثامن ، وفى الإمبراطورية إبان عهد شارل الخامس ، وبدا العالم فتياً من جديد منتعشاً

بشباب الملك . وصمم فرانسس ، وكان فى تصميمه أقوى من ليو العاشر ، على أن ينعم بعرشه .

ترى ماذا كان فى الواقع ذلك الرجل الذى يجمع بين صفات آرثر ولانسلوت ؟ إنه كان رائع التكوين من الناحية البدنية ، لو لم يكن أنفه كبيراً على ذلك النحو . وقد أطلق عليه بعض معاصريه الذين يفتقرون إلى الاحترام لقب « الملك الأنف الكبير » . وكان فارع القامة ، طوله ست أقدام ، عريض المنكبين ، خفيف الحركة قوى البنية . وكان فى وسعه أن يجرى ويقفز ، ويصارع ويبارز أمهر الخصوم ، وكان يستطيع أن يستعمل سيفاً بمقبضين أو رمحاً ثقيلا . وكانت لحيته الخفيفة وشاربه الرفيع لا يخفيان شبابه ، فقد كان فى الحادية والعشرين عندما توج ملكاً . وكانت عيناه الضيقتان تنمان على التيقظ وخفة الروح ، وإن كانتا لا تدلان على الدهاء أو العمق . وإذا كان أنفه يدل على الفحولة ، فإنه كان يطابق شهرته . وقد كتب برانتوم ، الذى لا يعد كتابه « نسوة عاشقات » مصنفاً تاريخياً ، فى ذلك الوقت يقول : « لقد عشق الملك فرانسس الكثيرات ، وأحب الكثيرات إلى حد الإفراط ، ولما كان شاباً فتياً حراً فقد كان يحتضن الواحدة حيناً ، والأخرى أحياناً بلا اكتراث . . . ومن أجل ذلك أصيب بمرض الجدرى الذى عجل بنهايته »[1] . ويروى أن أم الملك قالت إنه لقى جزاءه حيث اقترف خطيئته[*] . وربما بالغ التاريخ فى تنوع غرامياته . ومهما كان عددها ، فإنه ظل وفياً مخلصاً فى الظاهر أولا لفرانسواز دى فوا ، كونتيسة دى شاتوبريان ، ثم لآن دى بسليو التى أنعم عليها بلقب دوقة ديتامت ، وذلك من عام ١٥٢٦ إلى أن قضى نحبه ونشرت عنه

(*) ومما هو أقرب إلى الأسطورة ، قصة المحامى الذى وقع الاختيار على زوجته لابل فرونيير (بياعة الأدوات الحديدية الجميلة) للمخدع الملكى ، فما كان منه إلا أن أصاب نفسه بعدوى المرض فنقل إليها مرض الزهرى حتى تصيب به الملك .

الشائعات الباطلة مئات من الحكايات التى تدور حول مغامراته الغرامية — وأنه حاصر ميلان لا حباً فى ميلان ، ولكن من أجل سواد عينى فتاة لا تنسى ، رآها هناك[٣] ، أو لأن امرأة لعوبا فى بافيا أغرته وقادته إلى محور مأساته[٤] . ولا يسعنا على أية حال إلا أن يخالجنا شيء من العطف على ملك مرهف الحس إلى هذا الحد . لقد كان قادراً على الحنان والوله إلى درجة الخبال : وعندما رأى أن يطلق ابنه من كاترين دي مديتشى بعد ان ثبت أنها عاقر أثنته دموعها عن عزمه[٥] . وفى هذا قال أرازموس « لا يمكن أن يتخيل امرؤ وجود شخص أرق عاطفة من فرانسيس[٦] . » وإذا كان قد قال ذلك بسبب العطف لبعد المسافة ، فإن بودس عالم الإنسانيات المتخصص فى شئون فرانسيس وصفه بأنه « مهذب رقيق من السهل الحصول على رضاه[٧] » .

وكان معجباً بنفسه للدرجة لا تنتظر من رجل . وكان ينافس هنرى الثامن فى فخامة ثيابه الملكية وفى إهمال فراء قلنسوته . واتخذ السمندل رمزاً له ، مما يدل على الإصرار على البعث من كل احتراق ، بيد أن الحياة لسعته مع ذلك بشواظها . وكان يحب أن يقابل بمظاهر التبجيل والامتياز والتملق ، ويضيق ذرعاً بالنقد . وأمر بجلد ممثل لأنه هجا الحاشية ، وقد واجه لويس الثانى عشر لذعات نفس الملاحظات الساخرة فاكتفى بالابتسام[٨] . وكان جاحداً للجميل ، كما حدث مع آن دى مونمورنسى ، وظالما كما كان مع شارل البوربونى ، وقاسيا كما كان مع سمبلانساى ، ولكنه كان على الجملة معروفا بالصفح والكرم . وكان الإيطاليون يتعجبون من سخائه[٩] . ولم يظهر فى التاريخ حاكم يفوقه فى الرفق بالفنانين ، وكان يعشق الجمال عشقا يتسم بالقوة والفطنة ، وكان على استعداد لأن ينفق على الفن كما ينفق على الحرب ، وقدم نصف ما أنفق من مال فى عصر النهضة الفرنسية .

ولم تكن قدرته الذهنية تضارع جاذبية شخصيته ، وكان يعرف القليل من

اللاتينية ، ولا يعرف شيئا من اليونانية ، بيد أنه أدهش الكثيرين بتنوع معارفه ودقتها عن الزراعة والصيد والجغرافية والعلوم الحربية والأدب والفن ، وكانت الفلسفة تلذ له عندما لا تتعارض مع الحب أو الحرب ؟ وكان شديد التهور والاندفاع إلى درجة لا يصلح معها قائداً عظيما ، خفيف الروح يعشق المتعة إلى حد لا يصلح معه لأن يكون سياسياً كبيراً ، وكانت تسحره المظاهر فلا ينفذ إلى جوهر الأمور . ويتأثر فى لطف بالخلان والحظايا فلا يستطيع أن يختار أصلح من لديه من القادة والوزراء ، وكان شديد الصراحة لا يخفى أمراً إلى حد لا يصلح معه لأن يكون دبلوماسياً قديراً . وحزنت أخته مرجريت بسبب عجزه عن الحكم ، وتنبأت بأن الإمبراطور الداهية العنيد سوف يزيحه عن فرسه فى مقارعتهما التى دامت مدى الحياة . أما لويس الثانى عشر الذى كان يعجب به « بوصفه شاباً شهماً رقيقاً » . فقد رأى فى توجس إفراط خلفه فى الملذات . وقال : « لا فائدة من كل ما نعمل ، إن هذا الولد العظيم سوف يفسد كل شىء »(١٠) .

٢ ـ فرنسا فى عام ١٥١٥

كانت فرنسا وقتئذاك تنعم برخاء تجود به تربة سخية ، ويتحقق على يد شعب ماهر يحسن التدبير وحكم خير . وكان عدد السكان زهاء ١٦٫٠٠٠٫٠٠٠ نسمة فى مقابل ٣٫٠٠٠٫٠٠٠ نسمة فى إنجلترا و ٧٫٠٠٠٫٠٠٠ نسمة فى أسبانيا . وكانت باريس بسكانها البالغ عددهم ٣٠٠٫٠٠٠ نسمة تعد أكبر مدينة فى أوروبا بعد القسطنطينية . وكان البناء الاجتماعى نصف إقطاعى : فكل الفلاحين تقريباً كانوا يملكون الأرض التى يفلحونها ، ولكنهم كانوا يحتفظون بها عادة فى إقطاع من الأرض ـ وكانوا يدفعون مكوسا أو يؤدون خدمات ـ لسادة وفرسان مهمتهم تنظيم الزراعة وتقديم الحماية العسكرية لإقليمهم وللأمة . وأدى التضخم الناتج من تكرار خفض العملات والتعدين

أو استيراد المعادن الثمينة إلى تيسير دفع المكوس المالية التقليدية ، وأتاحت للفلاحين إمكان شراء الأرض رخيصة من الملاك الأثرياء والنبلاء الفقراء ، ومن ثم انتشر فى الريف رخاء أشاع المرح فى نفس الفلاح الفرنسى وجعله يتشبث بعقيدته الكاثوليكية ، بينما كان الفلاح الألمانى يقوم بثورة اقتصادية ودينية . وحفزت الملكية الطاقة الفرنسية فجنت من الأرض أفضل أنواع القمح والكروم فى أوروبا ، وسمنت الماشية وتضاعف عددها ، وكان اللبن والزبد والجبن يقدم على كل مائدة ، والدجاج وغيره من الدواجن تربى فى كل فناء تقريباً ، وتقبل الفلاح الرائحة المنبعثة من حظيرة خنازيره كما لو كانت شذى مباركاً من أعراف الحياة .

أما العامل فى المدينة — وهو فى الغالب صانع ماهر يعمل فى حانوته — فلم يكن له نسبياً نصيب من هذا الرخاء . لقد أدى التضخم إلى سرعة ارتفاع الأسعار بصورة تفوق زيادة الأجور ، وساعدت التعريفات الجمركية التى فرضت لحماية السلع المحلية والاحتكارات الملكية ، مثل استخراج الملح ، على ارتفاع نفقات المعيشة . وأضرب العمال المتذمرون ، ولكنهم جميعاً ، على وجه التقريب ، لم يظفروا إلا بالفشل والخيبة . وحرم القانون على العمال الاتحاد لأغراض اقتصادية . وكانت القوافل التجارية تنتقل متراخية على طول الأنهار الفياضة وتسير بصعوبة على طول الطرق السيئة ، وتدفع لكل سيد ضريبة للمرور فى أملاكه . وكانت ليون التى تلتقى فيها تجارة البحر الأبيض المتوسط القادمة صعوداً من الرون بسيل البضائع القادمة من سويسرة وألمانيا ، تعد ثانى مدينة بعد باريس فى الصناعة الفرنسية . والثالثة بعد انتورب باعتبارها سوقاً للأوراق المالية أو مركزاً للاستثمار والتمويل . وكانت التجارة تنطلق من مارسيليا ، وتجوب البحر الأبيض المتوسط ، وتجنى الربح بفضل العلاقات الودية التى جرؤ فرانسيس على الاحتفاظ بها مع سليمان والأتراك .

وغنم فرانسيس من هذا الاقتصاد ، على غرار ما كانت تفعله الحكومات ، دخولا وصلت إلى الحد الذى يدفعه إلى التسامح . وكانت ضريبة الملك أو السيد ، التى تفرض على الرءوس والأموال ، تثقل كاهل الجميع ، ما عدا النبلاء ورجال الدين ، وكان الأخيرون يدفعون للملك ضرائب عشور ومنحا كنسية ، أما النبلاء فكانوا يقدمون الفرسان ويجهزونهم ، وكان هؤلاء الفرسان لا يزالون عماد الجيوش الفرنسية وقوتها الضاربة . وتلقى فرانسيس درساً من البابوات فباع — وأنشأ للبيع — ألقاباً للنبلاء ومناصب سياسية . وبهذا كون الأغنياء الجدد على الأيام طبقة أرستقراطية جديدة (كما حدث فى إنجلترا) ، وأسس المحامون بشرائهم للمناصب ، بيروقراطية قوية كانت تدير حكومة فرنسا — وأحياناً بغير علم الملك .

ولم يجد الملك بسبب انهماكه فى الملذات وقتاً كافياً يدير فيه شئون الحكم ، فأناب عنه فى تولى مهامه ، حتى فى رسم سياساتها ، رجالا مثل أمير البحر بونيفيه وآن دى مونمورنسى والكردينالين دوبرا ودى تورنون والفيكونت دى لوتريك . وكانت هناك ثلاثة مجالس تعاون هؤلاء الرجال والملك وتشير عليهم بالرأى ، وهى : مجلس خاص من النبلاء ، ومجلس أخص للشئون ، ومجلس موسع ينظر فى طلبات الاسترحام المقدمة إلى الملك . وفيما عدا هذا كان المجلس النيابى فى باريس ، ويتألف من ٢٠٠ عضو من العلمانيين ورجال الدين ، يعينهم الملك مدى الحياة ، بمثابة محكمة عليا . وكان له الحق فى الاعتراض عليه عندما يرى أن مراسيمه تتعارض مع قوانين فرنسا الأساسية ، وكانت مراسيمه تظل تفتقر إلى قوة القانون إلى أن تقوم هذه الهيئة القديمة بـ « تسجيلها » — بل بالتصديق عليها فى واقع الأمر .

ولما كان المحامون والشيوخ يغلبون على المجلس النيابى فى باريس ، فقد أصبح الجهاز القومى السياسى للطبقات الوسطى وأضحى — بعد السوربون —

أكبر هيئة محافظة فى فرنسا . وكانت المجالس النيابية المحلية والمحافظون الذين يعينهم الملك ، يديرون شئون الحكم فى المقاطعات ، وتجاهل الجميع حينا مجلس الطبقات ، وحلت جباية الضرائب محل المنح التى تقدم على سبيل المساعدة ، وتضاءل دور طبقة النبلاء فى الحكومة .

وكان النبلاء يقومون بوظيفة مزدوجة : تنظيم الجيش وخدمة الملك فى البلاط . وكانت الحاشية التى تتألف من الرؤساء الإداريين ورؤوس النبلاء وزوجاتهم وأبناء الأسرة وأصفياء الملك ، قد أصبحت وقتذاك على رأس فرنسا وفى الصدر منها ، ومرآة تعكس البدع والمهرجان الملكى الدائم المتحرك ، وعلى قمة هذه الدورة كان مدير قصر الملك الذى كان ينظم كل شيء ويرعى البروتوكول ، ثم الحاجب المكلف بغرفة نوم الملك ، ثم أربعة من السادة الموكلين بمخدع الملك ، أو كبار الوصفاء الذين كانوا دائماً رهن إشارة الملك لتلبية رغباته ، وكان هؤلاء الرجال يستبدل بهم آخرون كل ثلاثة أشهر ، وذلك لمنح غيرهم من النبلاء فرصة يحل فيها الدور عليهم للقرب البهيجة من الذات الملكية . ولكيلا يتعرّض أحد للإغفال كان هناك عدد من السادة يتراوح بين عشرين وأربعة وخمسين لمخدع الملك يخدمون الأربعة الكبار ، يضاف إلى هؤلاء اثنا عشر وصيفاً للمخدع ، وأربعة حجاب للمخدع ، وكانت أجنحة نوم الملك تلقى العناية المناسبة ، وكان هناك عشرون سيداً يعملون مشرفين على مطبخ الملك ، وينظمون أعمال جماعة تتألف من خمسة وأربعين رجلا وخمسة وعشرين من سقاة الخمر . وكان هناك نحو ثلاثين غلاماً من وصفاء الشرف — أولاد لهم نسب جليل — يعملون وصفاء للملك ، ويتألقون فى زى مفضض خاص ، وجمع من أمناء السر يضاعفون من طاقة الملك على التدوين والتذكر . وكان القس الأكبر للكنيسة الملكية كردينالا ، ويشرف أسقف على المحراب أو المصلى ، وسمح لخمسين من الأساقفة الأبروشيين بإسباغ البركة على البلاط ، وبذلك

يزدادون شهرة . وأنشئت مناصب شرف مثل : « خدم الغرفة الخاصة بمرتب قدره ٢٤٠ جنيهاً ، وقد منحت للقيام بمهام مختلفة ، كالتي أنعم بها على علماء مثل بوديه وشعراء مثل مارو . ولا يفوتنا أن نذكر سبعة أطباء وسبعة جراحين وأربعة حلاقين وسبعة مرتلين وثمانية صناع ماهرين وثمانية كتبة للطبخ وثمانية حجاب بقاعة الاجتماعات . وكان لكل ولد من أبناء الملك خدمه الخاصون به » . . مشرفون وكتاب سر ومربون ووصفاء وخدم ؛ وكان لكل واحدة من الملكتين فى البلاط — كلود ومرجريت — بطانة خاصة تتألف من خمس عشرة سيدة أو عشر سيدات يعملن وصيفات وست عشرة أو ثمان من وصيفات الشرف — آنسات . ومن أعظم ما اشتهر به فرانسيس أنه جعل للنساء مكانة عليا فى بلاطه ، وأنه كان يغمز بعين الخبير إلى علاقاتهن غير الشرعية ، ويشجع ويستمتع باستعراض حليهن ومفاتنهن الرقيقة . وقال : « أى بلاط يخلو من السيدات حديقة مجردة من الأزهار[١١] » ؛ ولعل النساء — اللاتى وهبن جمال الفن ، الذى لا تلحقه الشيخوخة — هن اللاتى أضفين على بلاط فرانسيس الأول رونقاً جميلا وحافزاً على البهجة لا نظير لهما حتى فى القصور الإمبراطورية بروما ؛ وكان كل الحكام فى أوروبا يفرضون المكوس على شعوبهم ليهيئوا لأنفسهم صورة مصغرة لهذا الحلم الباريسى .

وتحت هذا السطح المصقول كانت هناك قاعدة عريضة من الخدم : أربعة من الطهاة ، وستة من مساعدى الطهاة ، وطهاة متخصصون فى أطباق الحساء أو المرق المتبل أو الشواء ، وعدد لا يحصى من الأشخاص ، لتقديم الطعام إلى الملك وخدمته على المائدة ، وفى المطبخ المشترك للحاشية ، وتلبية احتياجات السيدات والسادة والسهر على راحتهم ، وكان هناك موسيقيو البلاط يقودهم أشهر المغنين والملحنين والعازفين على الآلات فى أوروبا خارج روما ؛ ويشرف على الحظائر الملكية مدرب للخيل ، وخمسة وعشرون من

من رؤساء الركائب النبلاء ، وحشد من الخوذية والسواس ، وهناك رؤساء يشرفون على الصيد ،ومائة كلب و ٣٠٠ صقر يدربها ويعنى بها مائة مدرب للصقور تحت إشراف كبير مدربى الصقور . وتألف حرس الملك من أربعمائة من الرماة ، يضيئون البلاط بأزيائهم الملونة .

ولم يكن هناك مبنى فى باريس يكفى لمآدب البلاط وحفلاته الراقصة وحفلات الاستقبال الدبلوماسية . وكان قصر اللوفر وقتذاك حصناً كئيباً ، فانصرف عنه فرانسس إلى القصور المنسقة المعروفة باسم ليه تورنل (الأبراج الصغيرة) قرب الباستيل ، أو إلى القصر الفسيح الذى اعتاد المجلس النيابى أن ينعقد فيه ، ومع أنه كان لا يزال يعشق الصيد فقد انتقل إلى فونتنبلو أو إلى قصوره الممتدة على نهر اللوار فى بلوا أو شامبور أو امبواز أو تور — ساحباً معه نصف الحاشـــية وثروة فرنسا . وقد وصف شلينى بمبالغته المعهودة ولى نعمته الملك بأنه كان يسافر ومعه بطانة مكونة من ١٨٫٠٠٠ شخص و ١٢٫٠٠٠ جواداً[١٢] . واحتج السفراء الأجانب على ما يتكبدونه من نفقات ومشقة ، فى سبيل لقاء الملك أو مسايرته ، وإذا وجدوه فإنه يكون على الأرجح ، نائماً فى فراشه حتى الظهر ، يفيق من المتع التى نعم بها فى الليلة الماضية ، أو منصرفاً إلى ما يلزم لرحلة صيد أو مباراة للفروسية . وكانت نفقات هذا المجد الطواف باهظة ، وكانت الخزانة دائماً على شفا الإفلاس ، والضرائب ترتفع على الدوام ، والمصرفيون فى ليون يُكرهون على تقديم قروض للملك ، يتعرضون فيها للمخاطر . وعندما أدرك الملك عام ١٥٢٣ أن نفقاته تتجاوز موارده ، وعد بوضع حد لإشباع رغباته الشخصية « وهى لا تشمل على أية حال المطلب العادى لاحتياجاتنا ومتعنا القليلة[١٣] » . وكان يلتمس لنفسه عذراً فى تبذيره بحاجته إلى التأثير فى المبعوثين والتغلب على النبلاء الطموحين ، وإدخال البهجة على قلوب العامة ، ورأى أن الباريسيين يتعطشون للعروض ، وأن إعجابهم بأبهة ملكهم يفوق استياءهم منه .

وأصبحت حكومة فرنسا آنذاك مزدوجة الجنس . فكان فرانسس يحكم فى الظاهر حكماً مطلقاً ، بيد أنه كان يعشق النساء إلى درجة جعلته يخضع لأمه وشقيقته بل وزوجته . ولا بد أنه كان يحب كلود إلى حد ما لأنها ظلت على الدوام حاملا منه . وقد تزوجها لأسباب تتعلق بمصلحة الدولة ، وشعر بأن من حقه أن يقدر نساء أخريات خلقن فى صورة فنية أجمل منها . وحذت الحاشية حذو الملك فى ممارسة فن فحش ظريف . ووطن رجال الدين أنفسهم على قبول هذا الوضع بعد إبداء الاعتراض المناسب ، أما الشعب فلم يبد أى اعتراض ، ولكنه قلد شاكراً سنة الحاشية الدمثة — ما عدا فتاة واحـــدة ، قيل لنا إنها شوهت جمالها عمداً لتنجو من الفسق الملكى (١٥٢٤)[١٤] .

وكانت أقوى النساء نفوذاً فى البلاط والدة الملك ، وقالت لويز أميرة سافوى إلى قاصد رسولى : « وجه خطابك لى ، وسوف نسير فى طريقنا ، وإذا شكا الملك فإننا سنتركه يتكلم كما يشاء[١٥] » ، وكثيراً ما كانت على صواب فى نصيحتها . وعندما تولت الحكم كنائبة للملك ،أصبحت البلاد خيراً مما كانت عليه بين يديه المتراخيتين . ولكن أطماعها دفعت دوق بوربون إلى خيانة الوطن ، وأدت إلى هلاك جيش فرنسى جوعاً فى إيطاليا . وغفر لها ابنها كل شىء ، وشعر بالشكر لأنها جعلت منه إلها .

٣ — مرجريت أميرة ناڤار

ولعله كان يحب شقيقته حباً لا يفوقه إلا حبه لأمه ، وإن كان يزيد على حبه لعشيقاته — وقد منحته مؤازرتها شيئاً أقل خلوداً وعمقاً من تمجيدها المجرد من الأنانية . وكانت لا تعيش إلا للحب — حب أمها وشقيقها وزوجها ، وهو حب أفلاطونى وحب دينى صوفى . وثمة حكاية لطيفة تقول : « لقـــد ولدت وهى تبتسم ، وتمد يدها الصغيرة لكل

قادم[١٦] » ، وقد أطلقت على أمها وشقيقها ونفسها اسم « ثالوثنا » ، وقنعت بأن تكون « الزاوية الصغرى » فى ذلك « المثلث المتساوى الأضلاع[١٧] » .
وكانت بحكم مولدها مرجريت أميرة أنجوليم وأورليان وڤالوا . وتكبر فرانسس بعامين ، فأسهمت فى تنشئته وشاركته ألعاب الطفولة ،وكانت بمثابة « أمه وعشيقته وزوجته الصغيرة[١٨] » . وسهرت عليه فى كلف شديد كما لو كان إلهاً مخلصاً قد تحول إلى إنسان ، وعندما وجدت أنه كان مسرفاً فى شهواته الجنسية مثل « الساطير » تقبلت ذلك التصرف منه باعتباره حقا لإله من آلهة الإغريق ، على الرغم من أنها بالذات لم تلحقها أى لوثة من بيئتها . وقد فاقت فرانسيس فى الدراسات ، ولكنها لم تضارعه قط فى تقدير للفن بعين خبيرة . وتعلمت الإسبانية والإيطالية واللاتينية واليونانية وبعض العبرية ، وأحاطت نفسها وقد تملكتها رغبة جامحة ، بالأدباء والشعراء وعلماء اللاهوت والفلاسفة ، ومع ذلك فإنها كانت تتحول يوما بعد يوم إلى امرأة جذابة ، ولم تكن جميلة الجسد إذ كان لها ذلك الأنف الطويل الذى اشتهر به آل ڤالوا ، ولكنها كانت ذات سحر أخاذ بفضل مفاتن شخصيتها وذكائها .
وكانت عطوفا ، لطيفة كريمة حنونا ، وكثيراً ما كانت تندفع فى مجون مرح . وكانت تعد من أبرع الشواعر فى هذا العصر ، وكان بلاطها فى نراك أوبو من أعظم المراكز الأدبية تألقا فى أوروبا ، وكان كل إنسان يحبها ويود أن يكون بقربها . وأطلق عليها أهل ذلك العصر الرومانسى الساحر لقب لؤلؤة آل ڤالوا — لأن مرجريتا Margarita باللاتينية معناه لؤلؤة ، وانتشرت أسطورة جميلة تقول إن لويز أميرة سافوى حملت بها بعد أن ابتلعت لؤلؤة .

وتعد رسائلها لأخيها من أجمل وأرق ما كتب فى الأدب . ولا بد أنه كان يطوى جوانحه على الكثير من الخير ، ليفتزع منها مثل هذا الإخلاص . وكانت غرامياتها الأخرى تتفاوت مداً وجزراً وتتأجج أو تفتر ، أما هذه

العاطفة الطاهرة فقد استمرت خمسين عاماً وكانت قوية على الدوام : وإن نسمات ذلك الحب كادت تطهر هواء ذلك العصر المعطر .

وقد أثار جاستون دى فوا ، ابن أخى لويس الثانى عشر ، أول مشاعر غرامها ، ثم انطلق إلى إيطاليا ليغزو ويقضى نحبه فى رافنا (١٥١٢) ، وسقط جيوم دى بونيفيه صريع هواها ، ولكنه وجد أن قلبها لا يزال مشغولا بجاستون ، فتزوج إحدى وصيفاتها ، ليكون بالقرب منها ، وزفت فى السابعة عشرة من عمرها (١٥٠٩) إلى شارل ، دوق أنسون ، وكان بدوره سليلا لأسرة ملكية . وقد دعا فرانسيس إلى هذا الزواج توثيقا لأواصر المصاهرة بين أسر متنافسة إلى درجة مزعجة ، بيد أن مرجريت وجدت أن من العسير عليها أن تحب هذا الشاب ، وعرض عليها بونيفيه أن تلتمس السلوى عن ذلك بالحنا ، فشوهت وجهها بحجر حاد لتخمد سحر فتنتها له ، وذهب كل من لنسون وبونيفيه إلى إيطاليا للقتال من أجل فرانسيس ، ومات بونيفيه ميتة الأبطال فى بافيا ، أما لنسون فيقال إنه فر وقت تأزم المعركة ، وعاد إلى ليون ، ليجد نفسه موضع الاحتقار من الجميع ، وانتهرته لويز أميرة سافوى ، ووصفته بأنه جبان ، فسقط مريضا بداء ذات الجنب ، وصفحت عنه مرجريت ، وسهرت على تمريضه فى حنان ولكنه مات (١٥٢٥) .

وبعد عامين من ترمل مرجريت ، تزوجت ، وكانت وقتذاك فى الخامسة والثلاثين ، من هنرى دلبريه ، الملقب بملك نافار ، وهو شاب فى الرابعة والعشرين من عمره ، ولما كان هنرى مبعداً عن إمارته بسبب مطالبة فرديناند الثانى وشارل الخامس بنافار ، فإن فرانسيس نصب هنرى حاكما على غينا ، وأنشأ بلاطاً مصغراً فى نيراك وأحياناً فى بو فى جنوب غربى فرنسا ، وعامل مرجريت معاملة الأم بل الحماة تقريباً ، ولم يجد حلموها فى إخلاصها لعهود الزواج ، واضطرت إلى أن تلتمس لنفسها السلوى بالقيام

بدور المضيفة والحامية لكتّاب وفلاسفة ولاجئين من البروتستانت . وأنجبت عام ١٥٢٨ ابنة لهنرى هى جان دلبريه ، التى قدر لها أن تحظى بالشهرة باعتبارها أم هنرى الرابع ، وبعد عامين أنجبت ابنا مات فى مرحلة الطفولة ، ومنذ ذاك لم تلبس إلا ثياب الحداد . وكتب لها فرانسيس رسالة تفيض ورعا وحنانا كأى رسالة يمكن أن نتوقعها من يراعها . ومهما يكن من شىء فإنه سرعان ما أمرها هى وهنرى بتسليم جان له ، لتنشأ بالقرب من البلاط الملكى . فقد خشى أن يخطبها هنرى لفيليب الثانى ملك أسبانيا ، أو أن تشب بروتستانتية . وكان هذا الفراق أشد النوائب الكثيرة التى أصابت مرجريت قبل وفاة الملك ولكنه لم يصدها عن الإخلاص له . وإنه لأمر يدعو إلى الأسى ، وإن كان هذا ضروريا أن نروى ما حدث عندما أمر فرانسيس جين بالزواج من الدوق دى كليف ، ورفضت جين ، فأيدت مرجريت الملك إلى حد أنها أصدرت تعلياتها لمربية جين بجلدها إلى أن تذعن . وضربت جين مراراً عديدة ، ولكن جين الشجاعة — وكانت فتاة فى الثانية عشرة من عمرها — أصدرت وثيقة موقعة منها نصت على أنها إذا أكرهت على الزواج فإنها سوف تعتبره لاغيا » ومع ذلك فقد أعدت الترتيبات للزفاف على أساس نظرية تقول إن حاجات الدولة هى القانون الأعلى ، وقاومت جين حتى آخر لحظة ، وكان لا بد من حملها إلى الكنيسة حملا . وما أن انتهت مراسيم الحفل حتى فرت ، وذهبت لتعيش مع أبويها فى بو حيث كاد تبذيرها فى الإنفاق على الثياب والبطانة وإسرافها فى التبرعات يؤدى بها إلى الخراب »

وكانت مرجريت نفسها المثال المجسم للإحسان . وكانت تسير دون أن يرافقها حارس فى شوارع بو « مثل أى فتاة بسيطة » ، وتسمح لكل من يريد بمقابلتها ، وتستمع مباشرة إلى أشجان شعبها وقالت : « ينبغى ألا ينصرف أحد حزينا أو مغموما من حضرة أمير ، لأن الملوك هم رعاة الفقراء . . . والفقراء عيال الله »(١٩) . وأطلقت على نفسها لقب « رئيس

وزراء الفقراء » وكانت تزورهم فى دورهم وتبعث إليهم بالأطباء من حاشيتها ، وشارك هنرى تماما فى هذا لأنه كان حاكما ممتازاً ، بقدر ما كان زوجا مقصراً ، وكانت الأشغال العامة التى أدارها تصلح أنموذجا لفرنسا ، فقد مول هو ومرجريت تعليم عدد كبير من الطلبة الفقراء من بينهم أميو الذى ترجم فيما بعد كتاب بلوتارخ ، وقدمت مرجريت المأوى والأمان لمارو ورابليه وديبرييه وليفيفر ديتابل وكالفن ولكثيرين غيرهم ، إلى حد أن أحد من أسبغت عليهم حمايتها قارنها بـ « دجاجة تتعهد أفراخها بعناية وترفرف عليهم بجناحيها[٣٠] » .

وإلى جانب ما كانت تقوم به من أعمال البر كانت تهتم بثلاثة أمور غلبت على حياتها فى نيراك وبو وهى : الأدب والحب الأفلاطونى واللاهوت الصوفى الذى وجد متسعا للكاثوليكية والبروتستانتية على السواء ، وتسامح حتى مع الفكر الحر . وكان من عادتها أن تدعو الشعراء ليقرأوا عليها أشعارهم وهى تتلهى بالتطريز ، وكانت تنظم أشعاراً تستحق بعض التقدير ، يمتزج فيها الحب البشرى بالحب الإلهى فى وجد واحد مبهم . ونشرت إبان حياتها عدة مجلدات فى الشعر والدراما ، ليست فى جودة رسائلها التى لم تطبع إلا عام ١٨٤١ . ويعرف العالم بأسره كتابها الأيام السبعة ، بسبب ما اشتهر به من حكايات بذيئة . ولكن أنصار الأدب المكشوف سوف يخيب ظنهم فيها . فهذه الحكايات رويت بأسلوب العصر ، الذى وجد أعظم فكاهة فى الخدع والأعمال ، التى تتسم بالشذوذ وتقلبات الحب ، وانحرافات الرهبان عن عهودهم ، والحكايات نفسها تروى بتحفظ . وهذه الحكايات هى التى رواها الرجال والنساء من حاشية مرجريت ، أو من حاشية فرانسيس ، وقد دونتها بنفسها أو دونت لها (١٥٤٤ — ٤٨) ، ولكنها لم تنشرها قط . وظهرت مطبوعة بعد وفاتها بعشر سنوات . وكانت تعتزم أن تؤلف بها مجموعة قصص أخرى على غرار « الأيام العشرة » ، ولكن لما كان الكتاب قد توقف

فى اليوم السابع من رواية الحكايات ، فإن الناشر أطلق عليه اسم الأيام السبعة ، ويبدو أن كثيراً من القصص الواردة فيه واقعية ، أخفيت شخصياتها بتغيير أسمائهم : ويقول لنا برانتوم إن أمه ، وكانت إحدى رواة القصص ، تعرف حقيقة الأشخاص الذين تخفوا بأسماء مستعارة فى الحكايات ، ويؤكد لنا مثلا أن الحكاية الرابعة من اليوم الخامس هى قصة محاولات بونيفيه مع مرجريت نفسها[٢١] »

ويجب التسليم بأن ذوق عصرنا ، المعترف به ، سوف يكره على الإحساس بالخجل أمام قصص الإغراء التى رواها السادة والسيدات من الفرنسيين ، الذين كانوا يتلهون ويقضون أيامهم فى التلهى انتظاراً لفيضان يهبط عليهم ويسمح لهم بالعودة من حمامات كوتيريه ، وتثير بعض الملاحظات العارضة الذعر : « أتريد إذن أن تقول إن كل شىء مباح لمن يعشقون بشرط ألا يعرف أحد ؟

أجل ، فى الحقيقة ، إن الأغبياء فقط هم الذين يكتشف أمرهم[٢٢] » . وإن الفلسفة العامة للكتاب لتجد ما يعبر عنها فى جملة لها مغزاها ، وردت فى الحكاية الخامسة : « ما أتعس السيدة التى لا تحرص على الحفاظ على كنزها ، الذى يمنحها الحفاظ التام عليه الكثير من الشرف ، والذى يجللها بالكثير من العار إن ظلت حريصة عليه[٢٣] » .

ويتخلل الحكايات كثير من العبارات الساخرة المرحة تشيع فيها البهجة ، من ذلك أننا نسمع عن صيدلى ورع من بو « لم يكن له شأن مع زوجته إلا فى أسبوع الآلام على سبيل التفكير »[٢٤] وكما هو الحال فى كتاب بوكاشيو فإن نصف ما فى كتابها من فكاهة يعتمد على لهو الرهبان . وتقول شخصية فى الحكاية الخامسة : « إن هؤلاء الآباء الصالحين يعظوننا بالتزام العفة وهم يريدون أن يدنسوا شرف زوجاتنا » . ويوافق على هذا زوج

انتهك شرفه ويقول : « إنهم لا يتجاسرون على لمس المال ولكنهم على استعداد لأن يمسكوا بأفخاذ النساء وهى أخطر بكثير » . ولا بد أن يضاف إلى هذا كله أن رواة الحكايات المرحة يستمعون إلى القداس كل صباح ويطهرون كل صفحة يقلبونها بعد ذلك بأناشيد التقوى .

والقول بأن مرجريت قد استمتعت بهذه الحكايات أو جمعتها يشير إلى مزاج العصر ، ويدفعنا إلى الحذر من تصويرها قديسة ، وأنها ظلت كذلك حتى سنوات ذبولها . ومع ما يبدو من أنها هى بالذات كانت مثابرة على أن تحتفظ بطهارتها ، إلا أنها كانت تبيح لغيرها الانحلال ، ولم تكن تبدى اعتراضات مدونة على توزيع الملك لسلطاته واستمرت بينها وبين عشيقاته للواحدة إثر الأخرى ، علاقة صداقة حميمة . والظاهر أن الرجال ومعظم النساء كانوا يفكرون فى تبادل الحب بين الجنسين بألفاظ جنسية لا تعرف الاحتشام . وشاعت بين الفرنسيات عادة جذابة إبان ذلك العهد الطروب ، هى تقديم هدايا من أربطة سيقانهن لرجال لا وجود لهم إلا فى الخيال(٢٥) . وكانت مرجريت ترى أن الرغبة الجسدية من الأمور التى يمكن أن يترخص فيها ، إلا أنها هى نفسها أفسحت فى قلبها مجالا للحب الأفلاطونى والدينى . وقد انتقلت عبادة الحب الأفلاطونى بين « نوادى الحب » فى القرون الوسطى ، وتدعمت بأناشيد إيطالية مثل أنشودة بمبو فى نهاية قصة « رجل البلاط » . وشعرت مرجريت بأن من الخير أن تقبل النساء ، بالإضافة إلى العاطفة الجنسية المعتادة ، ولاء رجال لا ينالون من الجزاء إلا صداقة دقيقة وبعض صلات الود التى لا ضرر منها ، وأن هذا الارتباط قمين بترويض الحساسية الجمالية فى الذكر وتهذيب سلوكه ، وتعليمه الالتزام بقواعد الأخلاق ، ومن ثم فإن المرأة تقوم بتهذيب الرجل . ولكن كان فى فلسفة مرجريت حب أرفع من الحب الجلسى أو الأفلاطونى هو حب الخير أو الجمال أو أى كمال ، ومن ثم كان فوقها جميعاً حب الله . ولكن لكى يحب المرء الله لا بد

له اولا من أن يحب مخلوقاً بشرياً حباً تاماً[٢٦] » ، وكانت عقيدتها الدينية معقدة ومبلبلة مثل مفهومها عن الحب . وكما أن ألانية أخيها لم تكدر ولاءها له فإن ما تعرضت له حياتها من مآس وأحداث قاسية تركت عقيدتها الدينية خالصة متحمسة وغير محافظة على أية حال ، وكانت تمر بها لحظات يراودها فيها الشك ، فقد اعترفت فى كتاب : « مرآة الروح الخاطئة » بأنها قد شكت فى بعض الأوقات فى الكتاب المقدس وفى الرب على السواء ، واتهمت الرب بالقسوة ، وتساءلت هل هو حقاً الذى أنزل الكتاب المقدس ؟[٢٧] . وفى عام ١٥٣٣ استدعتها السوربون لتجيب على اتهام بالهرطقة ، فتجاهلت الاستدعاء ، وقال راهب لجمهور أبريشيته إنها تستحق أن توضع فى جوال ويخاط عليها وتلقى فى نهر السين[٢٨] ، ولكن الملك أبلغ السوربون والرهبان بأن يتركوا شقيقته وشأنها ، ولم يصدق ما وجه إليها من اتهام وقال : « إنها تحبنى كثيراً إلى حد أنها لا تؤمن إلا بما أومن به[٢٩] » . وكانت سعادته بالغة وثقته بنفسه لا حد لها إلى درجة جعلته يحلم بأنه من الهوجنوت . ولكن مرجريت استطاعت أن تفعل ذلك ، وكان لديها إحساس بالإثم ، وصنعت من هفواتها قنن جبال . وكانت تحتقر الهيئات الدينية وترى أنها تافهة لا جدوى منها . ولا هم لها إلا الإسراف فى ارتكاب الخطايا ، وشعرت بأن الإصلاح قد فات أوانه من عهد طويل ، وقرأت طرفاً من الأدب اللوثرى واستحسنت هجماته على فجور رجال الدين وجشعهم ، ودهش فرانسيس عندما وجدها تصلى يوماً مع فرويل[٣٠] — وهو يوحنا المعمدان — عند كالفن . وبينما كانت لا تنقطع عن الصلاة للعذراء فى نيراك وبو فى ورع الواثق بنفسه ، فإنها أسبغت حمايتها على اللاجئين من البروتستانت ومنهم كالفن نفسه . ومهما يكن من شىء فإن كالفن ساءه كثيراً أن يجد فى بلاطها مفكرين أحراراً مثل إتيين دوليه ، بونافنتير ديبرييه وعنفها على تساهلها ولكنها استمرت فيه . ولكم كان يسرها لو أنها صاغت مرسوم

نانت لحفيدها ؛ ولقد اجتمعت فى مرجريت فى لحظة من اللحظات خصائص عصر النهضة وعهد الإصلاح الدينى(٣١) .

وانتشر تأثيرها فى فرنسا وكانت كل نفس حرة تتطلع إليها باعتبارها حامية لها ومثالا للحرية . وقد أهدى إليها رابليه كتابه Gargantua . وكان رونسار ويواقيم دى بلاى يحذوان حذوها بين آن وآخر فى صوفيتها الأفلاطونية والأفلوطينية . وإن ترجمات مارو للمزامير لتفوح منها أنفاس روحها نصف الهيجونوتية . وترنم بايل فى القرن الثامن عشر بنشيد لها فى معجمه ؛ وفى القرن التاسع عشر قدم لها ميشليه البروتستانتى فى المحفوظة الشعرية المطولة الرائعة التى لا يمل الناس سماعها والمسماة « تاريخ فرنسا » ما يعبر عن شكره بقوله : « فلنتذكر دائماً مليكة نافار الرقيقة ، هذه الملكة التى وجد قومنا الهاربون من السجن أو المحرقة فى أحضانها الأمان والاحترام والصداقة . إننا نعبر عن شكرنا لك أيتها الأم الحبيبة لنهضتنا . لقد كان بيتك دار قديسينا وكان قلبك عشاً لحريتنا(٣٢) » .

٤ — الفرنسيون البروتستانت

لم يحاول أحد البحث فى أن الحاجة ماسة لإصلاح دينى ، وظهر هنا رجل الدين الصالح والشرير كما ظهر فى أى مكان آخر : قساوسة مخلصون ورهبان متبتلون وراهبات قديسات . وظهر هنا وهناك أسقف نذر نفسه للدين أكثر مما نذرها للسياسة ، وقساوسة جهلة أو خائرو العزيمة . ورهبان كسالى وفاسقون ورهبان ينبشون عن المال ويتظاهرون بالفقر . وأخوات ضعيفات فى الأديان وأساقفة يؤثرون عرض الدنيا ويعرضون عن ثواب الآخرة . وبينما ارتفع شأن التعلم هوى الإيمان ، وبينما كان لرجال الدين النصيب الأكبر فى التعليم فإنهم أظهروا بسلوكهم أنهم لم يعودوا يتأثرون بفلسفة الحشر والنشر المروعة ، التى أملتها عليهم يوما عقيدتهم الرسمية . وخص بعض

الأساقفة أنفسهم بعدد وافر من المناصب والكرامى الأسقفية ، وعلى هذا احتفظ جين دى لورين وتمتع بإيرادات من أسقفيات متز ونول وفردان وأبرشيات ريمس وليون وناربون وألبى وماكون وآجن ونانت وأديار جورز وفيكامب وكلونى ومارموتيين وسالنا — أورين وسان ده لاون وسان جرميه وسان مدار ده سواسون وسان — مانس دى تول(٣٣) . ولم تكف هذه لتلبية احتياجاته وشكا من الفقر(٣٤) . وندد الرهبان بتكالب الأساقفة على عرض الدنيا ، وندد القساوسة بالرهبان ، ويستشهد برانتوم بعبارة شاعت فى فرنسا وقتذاك وهى : « إنه شحيح أو فاسق كأنه قسيس وراهب(٣٥) » . وأول جملة فى الأيام السبعة تصف أسقف سيس بأنه يتلهف على إغراء امرأة متزوجة . وهناك اثنتا عشرة قصة فى الكتاب تروى بالتفصيل الأعمال المماثلة لرهبان مختلفين ، وتقول إحدى الشخصيات : « عندما تقع عيناى على راهب يتملكنى رعب شديد ، إلى حد أنى لا أستطيع حتى أن اعترف لهم ، لأنى أعتقد أنهم أسوأ من كل الرجال الآخرين(٣٦) » . وتسلم وازيل — وهو الاسم الذى أطلقته مرجريت على أمها فى الأيام السبعة — بأن بينهم رجالا صالحين ولكن هذه السيدة نفسها لويز أميرة سافوى كتبت فى يومياتها تقول : « فى عام ١٥٢٢ . . . بدأنا أنا وابنى ، بنعمة الروح القدس نعرف المنافقين ، الأبيض والأسود والأشهب والقاتم . ومن كل الألوان أولئك الذين يحفظنا الرب برحمته الواسعة منهم ويدفع عنا أذاهم ، لأنه إذا لم يكن المسيح كاذبا فليس بين كل أبناء البشرية جيل أخطر منهم(٣٧) » .

ومع ذلك فإن جشع لويز وتعدد نساء ابنها وأخلاق حاشيتها النزاعة إلى الفوضوية لم تكن نموذجاً يحتذيه رجال الدين الذين كانوا خاضعين للملك إلى حد كبير . وفى عام ١٥١٦ حصل فرانسيس من ليو العاشر على اتفاقية بابوية تخوله الحق فى تعيين أساقفة فرنسا ورهبانها ، ولكنه لما أسرف

فى هذا التعيين الذى لجأ إليه لمكافأة من أدوا له خدمات سياسية ، تأكدت الصفة الدنيوية للأسقفية . ونصت الاتفاقية البابوية السارية المفعول على أن تكون الكنيسة الجاليقية مستقلة عن البابوية وتابعة للدولة . وبهذه الوسيلة حقق فرانسيس قبل أن ينشر لوثر رسائله بعام ، فى الواقع ، وإن لم يبد ذلك لحسن الحظ فى الشكل ، ما كان قميناً بأن يكسبه الأمراء الألمان وهنرى الثامن بالحرب أو الثورة ألا وهو تأميم المسيحية . وماذا كان فى وسع الفرنسيين البروتستانت أن يقدموه لملك فرنسا أكثر من هذا ؟

لقد سبق أولهم لوثر . ففى عام ١٥١٢ قام جاك ليفيفر ، المولود فى أتابل فى بيكاردى والذى قام بالتدريس فى جامعة باريس بعد ذلك ، بنشر ترجمة لاتينية لرسائل بولس مع شرح يفسر ، بين هرطقات أخرى ، اثنتين منها ، كانتا حريتين بأن تكونا بعد عشر سنوات متفقتين فى الأساس مع لوثر وهما : « إن الناس يمكنهم أن يظفروا بالخلاص لا بالأعمال الصالحات ، ولكن بالإيمان برحمة الله التى ينالونها بتضحية المسيح للتكفير عن خطايا البشر ، وإن المسيح موجود فى القربان المقدس بفعله وإرادته الطيبة ، لا بأى تجسيد كهنوتى للخبز والنبيذ . وطالب ليفيفر مثل لوثر بالعودة إلى الإنجيل ، وسعى مثل أرازموس إلى استعادة النص الصحيح للعهد الجديد ، وتوضيحه كوسيلة لتطهير المسيحية من أساطير القرون الوسطى والزيادات الكهنوتية . وأصدر عام ١٥٢٣ ترجمة فرنسية للتوراة وللمزامير بعد ذلك بعام . وقال فى إحدى تعليقاته : « ما أشد خزينا عندما نرى أسقفاً يطلب من الناس فى إلحاح أن يشربوا معه ، لا هم له إلا المقامرة . . . والصيد باستمرار . . . والتردد على البيوت سيئة السمعة[٣٨] » وأدانته السربون وقضت بأنه هرطيق ففر إلى شتراسبورج (١٥٢٥) ، وتشفعت له مرجريت فاستدعاه فرانسيس وعينه أميناً للمكتبة الملكية فى بلوا ومربياً لأطفاله . وفى عام ١٥٣١ عندما أغضبت أعمال البروتستانت التى تجاوزوا

فيها الحد الملك ، لجأ ليفيفر إلى مرجريت فى جنوبى فرنسا وعاش هناك حتى وفاته بالغاً من العمر سبعة وثمانين عاماً (١٥٣٧) .

وشرع تلميذه جيوم بريسونيه الذى عين أسقفا لمو (١٥١٦) فى إصلاح الأسقفية بروح أستاذه ، وبعد اربع سنوات من العمل الحماسى شعر بأنه من القوة بحيث يستطيع أن يقدم على ابتداع تغييرات لاهوتية . فعين للإشراف على الصدقات مصلحين معروفين من أمثال ليفيفر وفاريل ولوى ده بركان وجيرار روسل وفرانسوا فاتابل وشجعهم على أن ينادوا فى عظاتهم بـ « العودة إلى الإنجيل » . وأثنت عليه مرجريت وعينته موجهاً روحياً لها . ولكن عندما أعلنت السوربون مدرسة اللاهوت التى تسيطر الآن على جامعة باريس — أدانتها للوثر (١٥٢١) أمر بريسوفيه زملاءه بمسالمة الكنيسة فقد كانت وحدة الكنيسة فى نظره ، مثله فى هذا مثل أرازموس ومرجريت ، أهم من الإصلاح .

ولم تستطع السوربون أن توقف تدفق الأفكار اللوثرية عبر نهر الراين ، فقد كان الطلبة والتجار يجلبون مؤلفات لوثر من ألمانيا باعتبار أنها تمثل أعظم الأخبار إثارة وقتذاك ، وأرسل فروبن نسخاً من بازيل لتباع فى فرنسا . وتلقف العمال الساخطون العهد الجديد واعتبروه وثيقة ثورية واستمعوا بابتهاج إلى مبشرين استخلصوا من الإنجيل مدينة فاضلة تتحقق فيها المساواة الاجتماعية .

وعندما نشر الأسقف بريسونيه عام ١٥٢٣ على أبواب كاتدرائيته كتاباً للبابا عن صكوك الغفران مزقه جان لكلير ، وكان يعمل فى تمشيط الصوف فى مو ووضع مكانها إعلاناً ملصوقاً يصف البابا بأنه مناهض للمسيحية ، فقبض عليه ، ووسم بالنار على جبهته (١٥٢٥) بناء على أمر المجلس النيابى لباريس . فانتقل إلى ميتز وهناك حطم التماثيل الدينية ، التى كان من المقرر

أن يمر أمامها موكب لتقديم البخور . وقطعت يده اليمنى واجتث أنفه ، وانتزعت حلمتا ثدييه بملقط ، وربط رأسه بشريط من الحديد المحمى إلى درجة الأحمرار . وأحرق حياً (١٥٢٦)(٣٩) . وأرسل عدد كبير من المتطرفين الآخرين إلى المحرقة فى باريس بتهمة « التجديف » أو لإنكارهم ما للعذراء والقديسين من تفويض فى الشفاعة (١٥٢٦ — ٢٧) .

وكان شعب فرنسا يؤيد بوجه عام عمليات الإعدام هذه(٤٠) وكان يحب عقيدته الدينية ويرى أنها وحى من لدن الله ومن قوله ، ويمقت الهراطقة لأنهم يسلبون من الفقراء أعظم عزاء عندهم ولم يظهر فى فرنسا رجل مثل لوثر . يثير الطبقة الوسطى ضد طغيان البابا ، فقد كانت الاتفاقية البابوية تمنع استغاثة مثل هذه ولم يكن كالفن قد وصل بعد إلى الشهرة الحنيفية التى تتيح له أن يبعث بدعوته الصارمة للإصلاح . ووجد الثائرون بعض التأييد بين طبقة الأرستقراطية بيد أن السادة والسيدات كانوا قليلى الاهتمام إلى درجة أنهم لم يتشبثوا بالأفكار الجديدة إلى الحد الذى يخل بعقيدة الشعب أو يقض مضاجع الحاشية ، وقد تسامح فرانسس نفسه مع الدعاية اللوثرية ما دامت غير منطوية على أى تهديد بقيام فتنة اجتماعية أو سياسية ، وكانت له بدوره شكوكه الخاصة — فى سلطات البابا وبيع صكوك الغفران ووجود المطهر(٤١) ، ولعله رأى أن يستخدم تسامحه مع البروتستانتية سلاحاً يشهره ضد بابا يميل كثيراً إلى الانحياز لشارل الخامس . وكان يعجب بارازموس وسعى إليه لتعيينه فى الكلية الملكية الجديدة ، وكان يؤمن معه بتشجيع التعليم والإصلاح الكهنوتى — ولكن بخطوات لا تقسم الشعب إلى نصفين متحاربين أو تضعف تأثير الخدمات التى تقدمها الكنيسة لتهذيب أخلاق الأفراد والنظام الاجتماعى(٤٢) . وكتبت مرجريت إلى بريسونيه عام ١٥٢١ تقول : « إن الملك والسيدة (لويز أميرة سافوى) على أهبة الآن أكثر من أى وقت مضى لإصلاح الكنيسة(٤٣) » ، وعندما قبضت

السوربون على لوى ده بركان لقيامه بترجمة بعض مصنفات لوثر (١٥٢٣) أطلق سراحه بفضل تشفع مرجويت له عند الملك . ولكن فرانسيس أفزعته ثورة الفلاحين فى ألمانيا التى يبدو أنها نشبت نتيجة الدعاية البرتستانتية ، وقبل أن يرحل ليلاقى الهزيمة فى بافيا أمر الأساقفة بسحق الحركة اللوثرية فى فرنسا .

وبينما كان الملك أسيراً فى مدريد ، سجن بركان مرة أخرى ولكن مرجريت حصلت ثانية على أمر بإطلاق سراحه . وعندما فك إسار فرانسيس نفسه انهمك فى يوبيل للتحرر ، ولعله فعل هذا إقراراً بفضل شقيقته التى سعت كثيراً ، لتحريره ، فاستدعى ليفيفر وروسل من المنفى وشعرت مرجريت بأن الحركة من أجل الإصلاح الدينى قد ظفرت بيومها الموعود .

ووقع حادثان دفعا الملك إلى العودة لعقيدة المحافظين . فقد كان فى حاجة للمال لافتداء ولديه اللذين كان قد سلمهما لشارل مقابل حصوله على حريته. ووافق رجال الدين على منحه ١٫٣٠٠٫٠٠٠ جنيه ولكنهم أرفقوا بالمنحة التماساً بوقفة أكثر حزماً مع الهرطقة ، فوافق (١٦ ديسمبر سنة ١٥٢٧) ، وفى يوم ٣١ مايو سنة ١٥٢٨ هاله أن يعلم بتحطيم رأس العذراء والابن فى تمثال لهما خارج كنيسة فى أبرشية سان جرمان أثناء الليل . وصاح الناس يطالبون بالانتقام ، وعرض فرانسيس ألف كراون مكافأة لمن يعثر على المخربين وقاد موكباً حزيناً من الأساقفة وموظفى الدولة والنبلاء وعامة الناس لترميم التمثال المحطم برأسين من الفضة . وانتهزت السوربون فرصة رد الفعل لسجن بركان مرة أخرى وبينما كان فرانسيس غائباً فى بلوا ودفع باللوثرى الذى رفض التوبة إلى المحرقة (١٧ إبريل عام ١٥٢٩) وسط فرحة الحاضرين من الجمهور(٤٤) .

وكان مزاج الملك يتغير تبعاً لتغيرات دبلوماسيته ، ففى عام ١٥٣٢ ، وقد أغضبه تعاون كليمنت السابع مع شارل الخامس قدم عروضا للأمراء

اللوثريين الألمان وأذن لمرجريت بتنصيب روسل مبشراً لجماهير كبيرة فى اللوفر ، وعندما احتجت السوربون نفى زعماءها من باريس .

وفى أكتوبر سنة ١٥٣٣ كان على وفاق مع كليمنت ، فوعد باتخاذ إجراءات فعالة ضد الفرنسيين البروتستانت . وفى أول نوفمبر ألقى نيكولاس كوب خطابه فى الجامعة ، فاستشاطت السوربون غضباً وأمر فرانسيس باضطهاد جديد . ولكن اشتدت وقتذاك حدة نزاعه مع الإمبراطور فأرسل جيوم دى بلاى المناصر للإصـــلاح إلى فيتنبرج ليطلب من ملانكتون أن يتوصل لصيغة توفيق بين العقيدة القديمة والأفكار الجديدة (١٥٣٤) وبهذا يجعل فى الإمكان عقد تحالف بين ألمانيا البروتستانتية وفرنسا الكاثوليكية . فأذعن ملانكتون وأخذت الأمور تتحرك بسرعة عندما قامت جماعة متطرفة من المصلحين الفرنسيين بلصق إعلانات فى شوارع باريس وأورليان وغيرهما من المدن ، بل وحتى على أبواب مخدع الملك فى أمبواز تندد بالقداس وتصفه بأنه من قبيل عبادة الأوثان وبالبابا ورجال الدين الكاثوليك ، وتصفهم بأنهم « ذرية دودة . . . مارقون ، ذئاب ، . كذابون ، كافرون ومزهقون للأرواح » (١٨ أكتوبر سنة ١٥٣٤)(٤٥) . فاستشاط فرانسيس غضباً وأمر بسجن جميع المشـــتبه فيهم بدون تمييز وامتلأت السجون . وقبض على عدد كبير من الطابعين ، وظلت الطباعة قاطبة محظورة لفترة ما . وانضمت مرجريت ومارو وكثير من البروتستانت المعتدلين إلى من استنكروا الإعلانات الملصقة . وسار الملك وأولاده والسفراء والنبلاء ورجال الدين فى صمت مهيب ، يحملون شموعاً موقدة ليستمعوا إلى قداس أقيم للتكفير فى كاتدرائية نوتردام (٢١ يناير سنة ١٥٢٥) . وأعلن فرانسيس أنه سيقطع رأس أولاده إذا اكتشف أنهم يطوون جوانحهم على مثل هذه الهرطقات الخارجة على الدين . وفى عشية تلك الليلة أحرق ستة من البروتستانت حتى الموت فى باريس بطريقة رئى

أنها تصلح لتهدئة المعبود . فقد علقوا فوق نار وكانوا يدلون إليها ويرفعون منها مراراً وتكراراً وذلك لإطالة أمد عذابهم[٤٦] . وأحرق في باريس أربعة وعشرون من البروتستانت وهم أحياء من العاشر من نوفمبر عام ١٥٣٤ والخامس من مايو عام ١٥٣٥ . وزجر البابا بول الثالث الملك لهذه القسوة التي لا داعي لها وأمره بوقف الاضطهاد[٤٧] .

وقبل أن ينصرم العام كان فرانسيس يخطب ود البروتستانت الألمان من جديد . وكتب بنفسه إلى ملانكتون (٢٣ يوليو سنة ١٥٣٥) يدعوه إلى الحضور « والتباحث مع بعض المبرزين من الدكاترة عندنا عن الوسيلة لإعادة توطيد دعائم ذلك التناسق السامي في الكنيسة ، الذي أرى أنه أعز أمنية لدى على الإطلاق[٤٨] » . ولم يحضر ملانكتون ولعله ارتاب في أن فرانسيس يستخدمه شوكة في جنب الإمبراطور ، وربما أثناه عن عزمه لوثر أو أمير ساكسونيا المختار الذي قال : « إن الفرنسيين ليسوا من الإنجيليين بل هم إرازميون[٤٩] » . وكان هذا صحيحاً بالنسبة لمرجريت وبريسونيه ليفيفر وروسل ، ولم يكن صحيحاً بالنسبة لأنصار لصق الإعلانات والهوجينوت الكالفينيين الذين بدأوا يتكاثرون في جنوب فرنسا . وتخلى فرانسيس عن كل جهوده لاسترضاء البروتستانت بعد مسالمة شارل (١٥٣٨) .

ولم يكن أعظم خزى لحق بعهده إلا نتيجة خطئه إلى حد ما فقد سمح للفوديين أو الولدانيين ، الذين كانوا لا يزالون يحبون الآراء شبه البروتستانتية لبيتر والد ومؤسس طائفتهم في القرن الثاني عشر ، بالاحتفاظ بوجودهم الذي يشبه نظام طائفة الكويكر ، في ظل الحماية الملكية ، في نحو ثلاثين قرية على امتداد نهر دورانس في بروفانس : وفي عام ١٥٣٠ شرعوا في مكاتبة المصلحين في ألمانيا وسويسرة ، وبعد عامين استخلصوا اعترافاً بعقيدة تقوم على آراء بوسر وأويكولامبادريوس ، وعقد قاصد رسولي

بينهم محكمة للتفتيش فاستغاثوا بفرانسيس ، فأمر بوقف الاضطهاد (١٥٣٣) : ولكن الكردينال ده تورنون ادعى أن الولدانين كانوا يدبرون مؤامرة تنطوى على خيانة للحكومة ، وأقنع الملك العليل المتذبذب بتوقيع مرسوم (أول يناير سنة ١٥٤٥) ينص على أن كل الولدانيين الذين يكتشف أنهم مذنبون وتثبت عليهم تهمة الهرطقة يجب أن يعدموا . وفسر موظفو المجلس النيابى فى إكس — ان — بروفانس — الأمر بأنه يعنى الإبادة الجماعية . وأبى الجنود فى مبدأ الأمر إطاعة الأمر وعلى أية حال فإنهم حملوا على قتل فئة قليلة ثم ألهبتهم حرارة القتل فحولوه إلى مذبحة . وفى خلال أسبوع واحد (١٢ — ١٨ أبريل) أحرقت بضع قرى حتى سويت بالأرض ، وفى إحداها ذبح ٨٠٠ رجل وامرأة وطفل ، وفى مدى شهرين أزهقت أرواح ٣٠٠٠ نفس ، وهدمت اثنتان وعشرون قرية ، وأكره ٧٠٠ رجل على العمل فى السفن . ولقيت خمس وعشرون امرأة مذعورة لجأن إلى كهف حتفهن خنقاً بنار أشعلت عند مدخله . ورفعت سويسرة وألمانيا البروتستانتيتان احتجاجات مروعة وبعثت أسبانيا بالتهانى إلى فرانسيس(٥٠) وبعد عام اكتشفت جماعة لوثرية صغيرة مجتمعة فى سو برئاسة بيير لكلير شقيق جين الذى وسم بالنار وعذب أربعة عشر من الجماعة وأحرقوا كما أحرق ثمانية منهم بعد أن انتزعت ألسنتهم (٧ أكتوبر سنة ١٥٤٦) .

وكانت هذه الاضطهادات أعظم فشل منى به عهد فرانسيس . وأضفت شجاعة الشهداء جلالا وروعة على قضيتهم ، ولا بد أن ألوفا من المشاهدين قد تأثروا وانزعجوا ، ولولا عمليات الإعدام المشهودة هذه لما كلفوا أنفسهم قط عناء تغيير عقيدتهم الموروثة ، وعلى الرغم من الإرهاب المتكرر فإن « حشودا » سريعة من البروتستانت وجدت عام ١٥٣٠ فى ليون وبوردو وأورليان وريمس وأميان وبواتييه وبورج ونيم ، ولا روشيل وشالون وديجون وتولوز . وكأن الأرض قد انشقت عن فرق من الهوجينوت .

ولا بد أن فرانسيس قد عرف وهو على فراش الموت أنه قد ترك ابنه تحدق به العداوة من إنجلترا وألمانيا وسويسرة ولم يكن يواجه هذا فحسب بل يواجه أيضاً إرثا من الكراهية فى فرنسا نفسها .

٥ — هابسبورج وفالوا ١٥١٥ — ٢٦

لم يكن من المتوقع أن يرضى ملك متقلب مثل هذا بالتخلى عن كل الآمال التى كانت قد أثارت أسلافه إلى ضم ميلان ، ونابلى إذا أمكن ، ليكونا دوتين فى التاج الفرنسى . وقد قبل لويس الثانى عشر الحدود الطبيعية لفرنسا — أى أنه اعترف للألب بالسيادة . وسحب فرانسيس الاعتراف وتحدى حق الدوق مكسمليان سفورزا فى ميلان . وفى غضون المفاوضات التى دارت بينهما بضعة شهور حشد قوة هائلة وجهزها ، وفى أغسطس عام ١٥١٥ سار على رأسها وسلك طريقاً جديداً محفوفا بالمخاطر — واقتحم طريقه عبر جبال صخرية — فوق الألب وانحدر منها إلى إيطاليا — والتقى الفرسان والمشاة الفرنسيون فى مارينيانو على مسيرة تسعة أميال من ميلان ، بجنود سفورزا من السويسريين المرتزقة ، واستمر بينهما القتال يومين (١٣ — ١٤ سبتمبر سنة ١٥١٥) حدثت فيهما مقتلة كبيرة لم تعرفها إيطاليا منذ الغزوات البربرية ، وتركت جثث ١٠٫٠٠٠ رجل مطروحة على الأرض . وخيل فى فترة ما أن الفرنسيين قد هزموا وعندئذ اندفع الملك إلى الأمام وهاجم ونظم صفوف جنده وجعل من نفسه مثالا للجرأة . وجرى العرف أن يكافئ الحاكم المنتصر من يظهرون شجاعة خاصة بتنصيب طبقة جديدة من الفرسان فى الميدان ، ولكن فرانسيس قبل أن يفعل هذا أقدم على حركة لها مغزاها لم يسبقه إليها أحد . فقد ركع أمام بيير ، سنيور دى بايار ، وطلب تنصيبه فارسا على يد الفارس المشهور ، الذى لم يتطرق إليه الخوف ، ولم يوجه إليه اللوم ، فاحتج بايار بأن الملك ، بحكم

وظيفته ، فارس الفرسان ، ولا حاجة به إلى تشريف إلا أن الملك الشاب ، كان لا يزال فى الحادية والعشرين من عمره ، أصر على ذلك ومضى بايار يقوم بالمراسيم التقليدية بجلال ، ثم طرح سيفه وهو يهتف « لا شك يا سيفى العزيز أنك سوف تحفظ كأى أثر ، وتنال من التشريف فوق ما تناله السيوف الأخرى جميعاً ، لأنك فى هذا اليوم أضفيت على ملك وسيم قوى صفة الفروسية ، وإنى لن أحملك قط بعد ذلك إلا لمحاربة الأتراك والمغاربة والعرب(٥١) » . ودخل فرانسيس ميلان بصفته صاحبها وبعث بدوقها المعزول إلى فرنسا ، وخصص له مرتباً مجزياً ، واستولى أيضاً على بارما وبياتشنزا ووقع مع ليو العاشر ، فى احتفالات رائعة فى بولونيا ، معاهدة واتفاقية يخولان البابا والملك على السواء أن يدعيا الحصول على نصر دبلوماسى .

وعاد فرانسيس إلى فرنسا معبوداً لمواطنيه بل ولأوروبا تقريباً ، فقد سحر جنوده بمشاطرته إياهم ما لاقوه من مشاق وتفوقه عليهم فى الشجاعة ، وعلى الرغم من أنه فى غمرات انتصاره قد انغمس فى التيه بنفسه ، فإنه خفف من غلوائه ، بالثقة بآخرين وتلطيف حدة كل أنانية بكلمات الثناء والتمجيد . وارتكب وهو ثمل بالشهرة أكبر خطأ فى حياته . ذلك أنه رشح نفسه للتاج الإمبراطورى . وانزعج ، وهو على حق ، باحتمال أن يصبح شارل الأول ، ملك أسبانيا ونابلى وكونت الفلاندرز وهولنده على رأس الإمبراطورية الرومانية المقدسة — بكل تلك المطالب فى لومباردى ومن ثم ميلان ، التى غزا مكسمليان من أجلها إيطاليا مراراً ، وسوف تكون فرنسا ، فى نطاق إمبراطورية جديدة مثل هذه ، محاطة بأعداء لا يقهرون فى الظاهر .

وقدم فرانسيس الرشا ، وخسر أمام شارل الذى قدم من الرشا أكثر منه وفاز (١٥١٩) ، وبدأت المنافسة المريرة التى جعلت غربى أوروبا يعج بالاضطرابات إلى ما قبيل وفاة الملك بثلاث سنوات .

ولم يعدم شارل وفرانسس من الأسباب ما يدعو إلى تبادل العداء ، فقد زعم شارل ، حتى قبل أن يصبح إمبراطوراً أن له الحق فى أن يطالب ببورغنديا لأنه حفيد مارى ابنة شارل الجسور ، وأبى أن يعترف باتحاد بورغنديا مع التاج الفرنسى . وكانت ميلان من الوجهة الرسمية إقطاعية فى الإمبراطورية ، واستمر شارل فى فرض الاحتلال الإسبانى لنافار ، وأصر فرانسيس على أن تعود إلى هنرى دلبريه . وطرحت بواعث الحرب هذا السؤال العويص : من هو سيد أوروبا : شارل أم فرانسيس ؟ وأجاب الأتراك بل سليمان .

ووجه فرانسيس الضربة الأولى ، فعندما لاحظ أن شارل مشغول بثورة سياسية فى أسبانيا وثورة دينية فى ألمانيا أرسل جيشاً عبر جبال البرانس للاستيلاء على نافار من جديد ، فهزم فى حملة أهم حادث فيها هو إصابة أجناسيوس لويولا بجرح (١٥٢١) . وانطلق جيش آخر جنوبا للدفاع عن ميلان ، وتمرد الجند بسبب عدم دفع المرتبات ، وهزمتهم الجنود الإمبراطورية المرتزقة هزيمة منكرة فى لابيكوكا ، وسارعت ميلان ترتمى فى أحضان شارل الخامس (١٥٢٢) وانطلق قائد الجيوش الفرنسية لمقابلة الإمبراطور لكى يتغلب على هذه الحوادث .

وكان شارل ، دوق أف بوربون رأس أسرة قوية قدر لها أن تحكم فرنسا من عام ١٥٨٩ إلى عام ١٧٩٢ . وكان أغنى رجل فى البلاد بعد الملك ، وبين تابعيه ٥٠٠ نبيل ، وكان آخر البارونات العظام الذين يستطيعون أن يتحدوا ملك الدولة المتمركزة وقتذاك . وقدم لفرانسيس خدمة جليلة فى الحرب ، وقاتل بشجاعة فى مارينيانو ، أما فى الحكم فلم يخدمه بهذا القدر إذ دفع أهالى ميلان إلى النفور منه بسبب حكمه الجائر ، ولما وجد أن الملك لم يزوده بالأموال الكافية قدم ١٠٠,٠٠٠ جنيه من ماله الخاص ، وهو يتوقع أن تسدد له ، ولكنه لم يتسلم شيئاً . وكان فرانسيس ينظر بعين الارتياب والحسد إلى هذا القيل الذى يوشك أن يكون ملكاً ، فاستدعاه

من ميلان ، ووجه إليه إهانات حمقاء أو مقصودة تسببت فى أن يكون بوربون خصمه اللدود ، وكان الدوق قد تزوج سوزان أميرة بوربون التى أوصت أمها بأن تعود ضياعها الشاسعة إلى التاج إذا ماتت سوزان دون أن تعقب ذرية . وماتت سوزان (عام ١٥٢١) ولكن بعد أن حررت وصية تركت فيها كل أملاكها لزوجها . وطالب فرانسيس وأمه بالأملاك باعتبارهما أقرب سليلين لدوق بوربون السابق . وعارض شارل هذا الادعاء وأصدر المجلس النيابى بباريس قراراً ضده . واقترح فرانسيس عقد صلح بمقتضاه يكون للدوق الحق فى ربع الأملاك حتى وفاته ؛ بيد أنه رفض الاقتراح . وعرضت لويز ، وكانت وقتذاك فى الحادية والخمسين على الدوق البالغ من العمر واحداً وثلاثين عاما أن يتزوجها مع صك ملكية صريح بالأملاك كبائنة لها ، فرفض . وقـدم له شارل الخامس عرضا يبز العرض السابق : هو أن يزوج شقيقته اليونورا وأن يؤيد مطالبه تأييداً كاملا بجنود الإمبراطورية ، وقبل الدوق وفر ليلا عبر الحدود ، وعين قائداً برتبة لفتنانت جنرال للجيش الإمبراطورى فى إيطاليا (١٥٢٣) .

وأنفذ فرانسيس ضده لونيفيه . وأثبت عشيق مرجرت أنه غير كفء وسحق الدوق جيشه فى رومانيانو ، وفى أثناء تقهقر الجيش أصيب الشفاليه دى بايار ، قائد حرس المؤخرة الخطيرة بجرح قاتل بطلقة من سلاح نارى (٣٠ أبريل سنة ١٥٢٤) ووجده بوربون الظافر يحتضر تحت شجرة ، فقدم له بعض عبارات الثناء على سبيل المواساة فرد عليه بايار « مولاى إنى أستحق الرثاء ، أنا أموت بعد أن أديت واجبى ، ولكنى أرثى لك إذ أراك تعمل ضد مليكك وبلدك وتحنث بقسمك[٥٢] » . وتأثر الدوق ولكنه كان قد أحرق خلفه كل الجسور وعقد اتفاقا مع شارل الخامس وهنرى الثامن ينص على أن يقوم الثلاثة بغزو فرنسا فى آن واحد ، وأن يتغلبوا على كل القوات الفرنسية ، ويقسموا البلاد بينهم . وكان نصيب الدوق من الصفقة أن يدخل

بروفالس ، ويأخذ إكس ويضرب حصاراً على مرسيليا ، ولكن حملته كانت تفتقر إلى المؤن وقوبلت بمقاومة عنيفة غير متوقعة وانهارت فتراجع إلى إيطاليا (سبتمبر سنة ١٥٢٤) .

ورأى فرانسيس أن من الحكمة أن يطارده ، ويستولى من جديد على ميلان وأشار عليه بونيفيه ، وهو أحمق حتى النهاية ، بأن يستولى أولا على بافيا ثم ينقض على ميلان من الجنوب ، فوافق الملك وضرب عليها الحصار (٢٦ أغسطس سنة ١٥٢٤) ، ولكن الدفاع هناك أيضاً كان أقوى من الهجوم ، وظل الجيش الفرنسي محجوزاً عند الخليج أربعة أشهر ، وفى غضونها جمع بوربون وشارل أمير لانوى (نائب الملك فى نابلى) والمركيز دى بسكارا (زوج فتوريا كولونا) جيشاً جديداً قوامه ٢٧٫٠٠٠ رجل . وفجأة ظهرت هذه القوة خلف الفرنسيين . وفى اليوم نفسه (٢٤ فبراير سنة ١٥٢٥) وجد فرانسيس قواته يهاجمها هذا الحشد غير المتوقع من جانب ، وقوات المحاصرين فى بافيا من جانب آخر . وحارب كالعادة فى طليعة المشتبكين ، وقتل بسيفه الكثيرين من الأعداء ، حتى ظن أن النصر قد تحقق ، ولكنه ضحى بقيادته العسكرية فى سبيل إظهار شجاعته ، وكانت قواته موزعة توزيعاً سيئاً ، ومشاته يسيرون بين مدفعيته والعدو ، وبهذا جعلوا المدفعية الفرنسية المتفوقة عديمة الجدوى ، وتفشى الاضطراب فى صفوف الفرنسيين ، وفر دوق النسون ، وسحب معه حرس المؤخرة ، وصاح فرانسيس فى جيشه الذى دبت فيه الفوضى أن يسير وراءه إلى ساحة القتال ، ولكن لم يرافقه إلا أعظم نبلائه شهامة ، وأعقب هذا مذبحة فى الفرسان الفرنسيين ، وأصيب فرانسيس بجروح فى وجهه وذراعيه وساقيه ، ولكنه ظل يضرب بلا كلل ، وتهاوى فرسه تحته ومع ذلك ظل يقاتل . وسقط فرسانه المخلصون واحداً أثر الآخر إلى أن ترك وحيداً ، وأحدق به جنود الأعداء ، وكان على وشك أن يلقى مصرعه ، عندما تعرف عليه

ضابط فأنقذه واقتاده إلى لانوى ، الذى تقبل سيفه ، وهو يقوم بانحناءات خفيفة للدلالة على الاحترام .

واعتقل الملك فى قلعة بيزيجيتون بالقرب من كريمونا ، حيث سمح له بأن يرسل إلى أمه التى كانت تحكم فرنسا أثناء غيابه رسالته التى كثيراً ما نقلت كما هى ، وكثيراً ما نقلت محرفة :

« إلى نائبة الملك فى فرنسا : سيدتى ، بودى أن تعرفى مدى معاندة البقية الباقية من سوء حظى : لم يبق لى فى العالم سوى الشرف وحياتى التى أنقذت . ولكى تحمل إليك هذه الأنباء ، وأنت بؤسك ، القليل من العزاء ، توسلت إليهم أن يسمحوا لى بكتابة هذه الرسالة إليك . . . وأنا أتوسل إليك ألا تقدمى على أى عمل طائش ، وأنت تباشرين ما عرفت به من فطنة معتادة ، لأنى أرجو ، بعد كل شىء ألا يتخلى عنى الله(٥٣) » .

وبعث برسالة مماثلة إلى مرجريت التى ردت على الخطابين :

« مولاى : إن الفرحة التى ما زلنا نشعر بها عندما تلقينا خطابيك الكريمين ، اللذين أسعدك أن تكتبهما لى ولأمك ، تجعلنا نحس بالسعادة لاطمئناننا على صحتك التى تتوقف عليها حياتنا ، ويخيل إلى أننا ينبغى ألا نفكر فى شىء سوى أن نحمد الله وأن نتوق إلى أن تصلنا باستمرار أنباؤك الطيبة ، وهى خير زاد نستطيع أن نعيش عليه . وبما أن الخالق قد من علينا بأن يبقى ثالوثنا متحداً أبدا فإن الاثنين الآخرين يتوسلان إليك أن تتقبل هذا الخطاب ، عند ما يقدم إليك ، وأنت الثالث ، بنفس المودة القلبية التى تقدمها إليك خادمتاك المتواضعتان المطيعتان والدتك وشقيقتك » .

لويز ، مرجريت(٥٤)

وكتب فرانسيس إلى الإمبراطور فى مدريد رسالة جد متواضعة يقول له فيها « إذا كان يسرك أن ينطوى قلبك على قدر قليل من العطف ، فتأخذ على عاتقك مهمة إنقاذ حياة ملك فرنسا الأسير إنقاذا يستحقه عن

جدارة . «« فني وسعك أن تكون على ثقة من الحصول على كسب بدلا من أسير لا نفع منه ، وبهذا تجعل ملك فرنسا عبدك إلى الأبد »» ولم يكن فرانسيس قد تدرب على احتمال المأساة(٥٥) .

وتلقى شارل أنباء انتصاره بهدوء ورفض أن يحتفل به ، كما اقترح كثيرون فى مهرجان رائع . وانسحب إلى مخدعه (كما يقال لنا) وركع يصلى . وأرسل إلى فرانسيس ولويز ما خيل له أنها شروط معتدلة لتحقيق السلام وتحرير الملك :

(١) على فرانسيس أن يتخلى عن بورغنديا وأن يتنازل عن كل مطالبه فى الفلاندرز وأرتوا وإيطاليا .

(٢) يجب تسليم الدوق بوربون كل الأراضى والمناصب التى يطالب بها .

(٣) يجب منح الاستقلال لكل من بروفانس ودوفينى .

(٤) يجب أن تعيد فرنسا إلى إنجلترا كل الأراضى الفرنسية التى كانت تابعة فيما سبق لبريطانيا — أى نورماندى وانجو وغسقونيا وجين .

(٥) على فرانسيس أن يوقع حلفا مع الإمبراطور وينضم إليه فى حملة توجه ضد الأتراك .

فأجابت لويز بأن فرنسا لن تتنازل عن قيراط واحد من الأراضى ، وأنها مستعدة للدفاع عن نفسها حتى آخر رجل » وتصرفت نائبة الملك وقتذاك بقوة وعزم وذكاء مما حمل شعب فرنسا على أن يصفح عن أخطائها التى ركبت فيها رأسها . وعملت فى الحال على تنظيم وإعداد جيوش جديدة وأقامتها لحراسة كل المراكز المحتمل أن تتعرض للغزو . ولكى تصرف ذهن الإمبراطور عن فرنسا حثت سليمان عاهل تركيا على إرجاء هجومه

على بلاد الفرس وأن يقوم بدلا من ذلك بحملة تتجه غربا ، ولا نعرف الدور الذى لعبه توسلها فى القرار الذى اتخذه السلطان ، ولكنه زحف عام ١٥٢٦ إلى هنغاريا وألحق هزيمة منكرة بجيش المسيحيين فى موهاكس ، بلغت من الشدة حدا جعل قيام شارل بأى غزو لفرنسا بمثابة خيانة للعالم المسيحى . وفى الوقت نفسه أوضحت لويز لهنرى الثامن وكليمنت السابع أن إنجلترا والبابوية على السواء سوف تنحدران إلى مرتبة العبودية إذا سمح للإمبراطور بالحصول على كل الأراضى التى طلبها . وتردد هنرى فألحت لويز وعرضت عليه تعويضا قدره ٢٫٠٠٠٫٠٠٠ كروان فوقع حلفا دفاعيا هجوميا مع فرنسا (٣٠ أغسطس سنة ١٥٢٥) وفتحت هذه الدبلوماسية الأنثوية عيون الرجال وحطمت ثقة شارل بنفسه .

ونقل الملك الأسير إلى أسبانيا بمقتضى اتفاقيـــة بين لويز ولانوى والإمبراطور ، وعند ما وصل فرانسيس إلى بلنسية (٢ يوليو سنة ١٥٢٥) بعث إليه شارل برسالة رقيقة ، ولكن معاملته لأسيره لم ترتفع إلى مقام الفروسية . وخصصت لفرانسيس غرفة ضيقة فى قلعة قديمة فى مدريد ووضعت عليه حراسة مشددة ، وكانت الحرية الوحيدة التى منحت له هى أن يمتطى ظهر بغل بالقرب من القلعة تحت رقابة حراس مسلحين راكبين . وطلب مقابلة شارل ولكن شارل أجل هذه المقابلة وسمح بسجن فرانسيس أسبوعين سجنا أثار قلقه وغيظه ، حتى يخضع فرانسيس لدفع ثمن باهظ مقابل الحصول على حريته . وعرضت لويز أن تقابل الإمبراطور وتتفاوض معه ولكنه رأى من الأفضل أن يلعب على سجينه بدلا من أن يتعرض الفتنة امرأة تجعله يجنح إلى التساهل . فأبلغته بأن ابنتها مرجريت ، وهى أرملة وقتذاك سوف يسعدها أن تجدها جلالته الإمبراطورية ، مناسبة له ، ولكنه آثر عليها إيزابلا أميرة البرتغال ، بصداقها البالغ قدره ٩٠٠٫٠٠٠ كراون . فهى تستطيع

أن تزوده فى الحال بالمخدع والمأوى ، وبعد أن أمضى فرانسيس شهرين فى سجن يتلهف فيه على حريته سقط صريع مرض خطير . وانطلق الأسبان إلى كنائسهم يصلون من أجل الملك الفرنسى آسفين لقسوة الإمبراطور . وصلى شارل أيضاً ، لأن الملك إذا مات فلن يكون له أهمية كرهينة سياسية ، وزار فرانسيس زيارة قصيرة ووعده بقرب إطلاق سراحه وبعث لمرجريت يأذن لها بالحضور ومواساة أخيها .

وسافرت مرجريت بحرا من ايجمورت (٢٧ أغسطس سنة ١٥٢٥) إلى برشلونه وهناك حملت فى هودج بطىء ملتو اخترق بها نصف طول أسبانيا إلى مدريد ، ووجدت السلوى فى قرض الشعر وبعث رسائل حارة متميزة إلى الملك ، وقالت « مهما يطلب منى ، حتى ولو كان أن أنثر رماد عظامى فى مهب الرياح لأؤدى لك خدمة ، فليس فيه أمر غريب أو صعب أو شاق بالنسبة لى ، وحسبى أن أجد فيه السلوى والراحة والطمأنينة والشرف[٥٦] » وعندما وصلت بعد لأى إلى مخدع أخيها وجدته يتعافى بشكل ملموس ، بيد أنه أصيب بنكسة يوم ٢٥ سبتمبر ودخل فى غيبوبة ، وخيل لمن حوله أنه يحتضر . وركعت مرجريت هى والأسرة يصلون ، وناوله أحد القساوسة القربان المقدس . وتلت هذا فترة نقاهة مضنية . ولبثت مرجريت شهرا مع فرانسيس ثم انطلقت إلى طليطلة لتطلب من الإمبراطور الرحمة ، فتلقى توسلاتها بفتور ، وكان قد علم بحلف هنرى مع فرنسا وتلهف على معاقبة حليفه الأخير على ريائه ولويز على جرأتها .

ولم تبق فى يد فرانسيس إلا ورقة واحدة يلعب بها ، ولو أن من المحقق أو يكاد أنها قد تعنى سجنه مدى الحياة ، وبعد أن أنذر شقيقته بمغادرة أسبانيا بأسرع ما يمكن وقع (نوفمبر سنة ١٥٢٥) خطابا رسميا أعلن فيه تنازله عن العرش لابنه الأكبر ، ولما كان فرانسيس الثانى هذا صبيا لا يتجاوز

عمره ثمانى سنوات ، فقد عين لويز — وتحل محلها فى حالة وفاتها — مرجريت وصية على عرش فرنسا ، وأدرك شارك فى الحال أن ملكا بلا مملكة ، لا يملك شيئاً يتنازل عنه ، لا فائده ترجى منه : بيد أن جلد فرانسيس من الناحية البدنية كان أقوى من شجاعته المعنوية ، ففى يوم ١٤ يناير سنة ١٥٢٦ وقع مع شارل معاهدة مدريد وكانت شروطها فى جوهرها هى بعينها التى عرضها الإمبراطور على لويز ، بل كانت أقسى منها ، لأنها اقتضت أن يسلم أكبر ابنين للملك إلى شارل رهينتين لضمان تنفيذ الاتفاقية بإخلاص ؛ وفضلا عن هذا فإن فرانسيس وافق على أن يتزوج إليو نوراشقيقة الإمبراطور ملكة البرتغال الأرملة ، وأقسم على أنه سيرجع إلى أسبانيا ليعود إلى السجن إذا لم ينفذ بنود المعاهدة(٥٧) . ومهما يكن من شىء فإنه أودع فى يوم ٢٢ أغسطس سنة ١٥٢٥ مع مساعديه وثيقة رسمية تلغى مقدما جميع العهود والاتفاقات والتنازلات والمخالصات وكل إلغاء وانتقاص وقسم يمكن أن يتعارض مع شرفه وصالح تاجه » ، وفى عشية توقيع المعاهدة ردد هذه العبارة للمفاوضين معه من الفرنسيين وأعلن أنه وقع بطريق الإكراه ، والقسر والاعتقال وطول السجن ، وأن كل ما تضمنته الوثيقة كان ، ويجب أن يظل باطلا ولا أثر له(٥٨) » .

وفى يوم ١٧ مارس ١٥٢٦ سلم نائب الملك لانوى وفرانسيس إلى المارشال لوتريك على ظهر نقالة مليئة فى نهر بيداسوا ، الذى يفصل إرون الإسبانية عن هنداى الفرنسية ، وتسلم لانوى بدلا منه الأميرين فرانسيس وهنرى . ومنحهما أبوهما بركة ودمعة ، وهرع إلى الأرض الفرنسية . وهناك قفز على ظهر جواد وصاح فى ابتهاج « ها أنذا ملك من جديد ! » وركب إلى بايون حيث كانت لويز ومرجريت فى انتظاره ، وأمضى فى بوردو وكونياك ثلاثة شهور قضاها فى اللهو والرياضة ليسترد صحته وشغل نفسه بحب صغير . ولم لا ؟ ألم يعش عاماً عيشة الرهبان ؟ وكانت لويز التى

اشتجر النزاع بينها وبين الكونتيسة دى شاتوبريان قد أحضرت معها وصيفة شرف جميلة شقراء الشعر ، تبلغ من العمر ثمانية عشر عاماً ، هى آن دى هيلى دى بيسليو التى أصابت بسهامها ، كما كان مقدراً ، عينى الملك الجائعتين ، فتودد إليها فى اندفاع ، وسرعان ما ظفر بها حظية له . وشاركت الحظية الجديدة منذ تلك اللحظة إلى أن فرقهما الممات لويز ومرجريت فى قلب الملك . وتحملت فى صبر زواجه باليونورا وعلاقاته غير الشرعية العارضة . ومنحها لإنقاذ المظاهر زوجاً هو جين دى بروس ، وأنعم عليه بلقب دوق كما أنعم عليها بلقب دوقة ديتامب ، واتسم فى إعزاز عندما انسحب جين إلى ضيعة نائية فى بريتانى .

٦ – الحرب والسلام : ١٥٢٦ – ٤٧

عندما عرفت شروط معاهدة مدريد بصفة عامة أثارت تقريباً عداء عالمياً لشارل ؛ فقد ارتجف البروتستانت الألمان عندما توقعوا مواجهة عدو عزز قواه إلى هذا الحد ، واستاءت إيطاليا من ادعائه الحق فى السيادة على لومباردى ، وأحل كليمنت السابع فرانسيس من قسمه الذى كان قد ارتبط به فرانسيس فى مدريد ، وانضم إلى فرنسا وميلان وجنوا وفلورنسا والبندقية فى تكوين حلف كونياك للدفاع المشترك (٢٢ مايو سنة ١٥٢٦) ، ووصف شارل ، فرانسيس بأنه « ليس بالسيد المهذب » ، وأمره أن يعود إلى سجنه الإسبانى ، وأصدر أوامره بتشديد اعتقال ابنى الملك ، وأطلق العنان لقواده لتأديب البابا ،

وتدفق جيش إمبراطورى ، احتشد فى ألمانيا وأسبانيا ، إلى إيطاليا وتسلق بالسلالم أسوار روما (مات الدوق بوربون فى العملية) ، ونهب المدينة نهباً كاملا أكثر مما فعل بها القوط أو الوندال من قبل ، وقتل ٤٠٠٠ رومانى وسجن كليمنت فى سان إنجلو . وأكد الإمبراطور ، الذى كان قد بقى فى

أسبانيا لأوروبا المذعورة أن جيشه الجائع قد تجاوز تعليماته ، ومع ذلك فإن ممثليه فى روما احتفظوا بالبابا سجيناً فى سان انجلو من ٦ مايو إلى ٧ ديسمبر سنة ١٥٢٧ ، وأكرهوا بابا يكاد يكون مفلسا على دفع تعويض قدره ٣٦٨٫٠٠٠ كراون .

واستغاث كليمنت بفرانسيس وهنرى وطلب منهما العون ، فبعث فرانسيس إلى إيطاليا لوتريك على رأس جيش نهب بافيا منتقما منها فى تهور لمقاومتها له عامين قبل ذلك ، وتساءل الإيطاليون هل الأصدقاء الفرنسيون أفضل من الأعداء الألمان » ومر لوتريك على روما مرور الكرام وحاصر نابولى وبدأت المدينة تعانى من المجاعة . وفى غضون ذلك كان فرانسيس قد أغضب أندريا دوريا قائد بحرية جنوا ، فاستدعى دوريا أسطوله من حصار نابلى وانضم إلى جانب الإمبراطور ومون المحاصرين . وهلك جيش لوتريك جوعا بدوره ، ومات لوتريك نفسه وذاب جيشه (١٥٢٨) .

ولا تكاد ملهاة الحكام تفرج كرب الشعب . وعندما ظهر مبعوثو فرانسيس وهنرى فى بورجوس لإعلان الحرب بصفة رسمية ، رد شارل على المبعوث الفرنسى رداً فاجعا بقوله « إن ملك فرنسا ليس فى موقف يسمح له بتوجيه مثل هذا الإعلان إلى ، إنه أسيرى . إن مولاكم قد تصرف مثل أى جبان أفاق بعدم محافظته على وعده الذى ارتبط به فى معاهدة مدريد ، وإذا راقه أن يقول ما يخالف هذا فإنى سوف أحافظ على وعدى له بحياتى مقابل حياته(٥٩) » .

وقبل فرانسيس توا هذا التحدى إلى البراز وبعث إليه رسولا يقول له : « لقد قلت إفكا وبهتاناً مبيناً » . واستجاب شارل بعظمة ، وعين مكان للنزال وطلب من فرانسيس أن يحدد موعد اللقاء ، بيد أن النبلاء الفرنسيين اعترضوا طريق الرسول وأدت إجراءات التأخير المستأنية إلى تأجيل المباراة

إلى ما لا نهاية . فقد بلغت الأمم درجة من النمو لا يمكن عندها تسوية خلافاتها الاقتصادية أو مصالحها السياسية بنزال فردى أو بجيوش صغيرة من المرتزقة التى كانت تقوم بلعبة الحرب فى إيطاليا إبان عصر النهضة ، ولا شك أن الطريقة الحديثة لحسم الأمور بالتنافس فى التدمير قد اتخذت شكلها فى هذا النزاع بين آل هامسبورج وفالوا(*) .

واقتضى الأمر أن تتصدى امرأتان لتلقين الحاكمين فن السلام وحكمته ، فقد اتصلت لويز أميرة سافوى بمرجريت النمسوية نائبة الملك فى الأراضى المنخفضة ، واقترحت عليها أن يتخلى فرانسيس ، المتلهف على عودة ابنيه ، عن كل مطالبه فى الفلاندرز وارتوا وإيطاليا وأن يدفع فدية قدرها ٢٫٠٠٠٫٠٠٠ كراون ذهبى ، لإطلاق سراح ولديه ، على ألا يتنازل أبداً عن بورغنديا ، وأقنعت مرجريت ابن أخيها بإرجاء مطالبته ببورغنديا وأن ينسى مطالب الدوق بوربون ، الذى مات وقتذاك فى الوقت المناسب .

وفى ٣ أغسطس عام ١٥٢٩ وقعت المرأتان ومعاونوهما الدبلوماسيون معاهدة صلح السيدات فى كامبراى . وحصلت الفدية من التجارة والصناعة ودم فرنسا ، ونعم بالحرية من جديد أميرا البيت المالك بعد أربع سنوات من الأسر ، وعادا بقصص تروى عن المعاملة القاسية التى أثارت فرانسيس وفرنسا . وبينما وجـــدت المرأتان القديرتان سلاماً دائماً — مرجريت

(*) كانت المبارزة فى العصور الوسطى بمثابة إجراء مشروع تجيزه الملكية أو القضاء ويشرفان عليه يحتكم به الخصمان إلى الله . وأصبحت فى القرن السادس عشر بمثابة دفاع فردى وخاص عن الشرف المهيض . وتطورت قوانينها الصارمة الخاصة بها خارج قوانين الدولة ، وأسهمت إلى حد ما فى تطوير قواعد السلوك المهذب والضبط الحصيف للنفس . وكانت المبارزة مصرحاً بها قانونا فى فرنسا بعد عام ١٥٤٧ ، وظل الرأى العام يجيزها . أما فى إنجلترا فلم تكن تمارس فى عهد اليزابث ، وعلى أى حال فإن الاحتكام إلى المبارزة ظل مشروعاً هناك حتى عام ١٨١٧ .

عام ١٥٣٠ ولويز عام ١٥٣١ — أخذ الملكان يعدان العدة لاستئناف الحرب بينهما .

وتلفت فرانسيس حوله فى كل مكان يطلب العون ، فأرسل إلى هنرى الثامن مبلغاً من المال للتهدئة لأنه تجاهله تقريباً فى تسوية كامبراى ، وتعهد هنرى ، وقد أغضبه شارل لمعارضته فى « طلاقه » ، بتأييد فرنسا . وفى عام أو نحوه تفاوض فرانسيس للدخول فى أحلاف مع الأمراء البروتستانت الألمان ومع الأتراك ومع البابا . ومهما يكن من أمر فإن الحبر الأعظم المتذبذب سرعان ما عقد صلحاً مع شارل وتوّجه إمبراطوراً (١٥٣٠) — هو آخر تتويج لإمبراطور فى الإمبراطورية الرومانية المقدسة قام به بابا . ثم ارتاع كليمنت من ملك كان فى الواقع قد حول إيطاليا إلى مقاطعة فى ملكه ، فسعى إلى عقد رابطة جديدة مع فرنسا بعرضه تزويج ابنة أخيه كاترين دى مديتشى من ابن فرانسيس ، هنرى دوق أورليان ، والتقى الملك والبابا فى مارسيليا (٢٨ أكتوبر سنة ١٥٣٣) ، وقام البابا بنفسه بمراسيم الزواج ذى المغزى التاريخى . ومات كليمنت بعد عام ، ولم يكن قد استقر رأيه بعد على أى شىء .

وكان الإمبراطور ، الذى شاخ وهو فى الخامسة والثلاثين ، يحمل أعباءه الملقاة على عاتقه فى عزم واهن . وذعر عندما علم — من كلمة وزير السلطان إلى فرديناند ملك النمسا — أن حصار الأتراك لفينا عام ١٥٢٩ ، إنما تم استجابة لاستغاثة فرانسيس ولويز وكليمنت السابع لمساعدتهم ضد الإمبراطورية التى كانت تطوقهم(٦٠) . وفضلا عن هذا فإن فرانسيس تحالف مع الزعيم التونسى خير الدين بارباروسا الذى كان يكدر صفو التجار المسيحيين فى غربى البحر الأبيض المتوسط ، ويغير على المدن الساحلية ويسوق الأسرى من المسيحيين إلى أسواق النخاسة . وحشد شارل جيشاً آخر وأسطولا ثانياً وعبر البحر إلى تونس (١٥٣٥) ، واستولى عليها ،

وحرر ١٠٫٠٠٠ عبد مسيحى وكافأ جنوده الذين لم تدفع رواتبهم بإطلاق العنان لهم لنهب المدينة وذبح السكان المسلمين :

وعاد شارل إلى روما (٥ أبريل سنة ١٥٣٦) بعد أن ترك حاميات فى بونا ولاجوليتا عودة المدافع المظفر للعالم المسيحى ضد العالم الإسلامى وملك فرنسا . وفى غضون ذلك كان فرانسيس قد جدد مطالبته بميلان ، وفى مارس عام ١٥٣٦ غزا دوقية سافوى لإزالة العقبة التى تعترض طريقه إلى إيطاليا . واستشاط شارل غضباً ، وفى خطاب حار ألقاه أمام بول الثالث البابا الجديد ومجمع الكرادلة بأسره أخذ يعدد مرة أخرى جهوده من أجل الســلام . وانتهاك الملك الفرنسى لمعاهدتى مدريد وكامبواى و « الأحلاف التى عقدها جلالته نصير المسيحية العظيم » (كما كان يسمى فرانسيس) مع أعداء الكنيسة فى ألمانيا وأعداء المسيحية فى تركيا وإفريقية ، وأنهى خطابه بتحدى فرانسيس مرة أخرى إلى البراز قائلا : « دعونا لا نستمر فى المجازفة بسفك دماء رعايانا الأبرياء ، دعونا نحسم النزاع بالنزال رجلا أمام رجل بأى أسلحة يروقه أن يختارها . . . وبعد ذلك دعوا القوات المتحدة لألمانيا وأسبانيا وفرنسا تستخدم لكسر شوكة الأتراك واستئصال الهرطقة من العالم المسيحى » .

كان خطاباً بارعاً لأنه أجبر البابا على أن ينحاز إلى صف الإمبراطور ، ولكن أحداً لم يأخذ عرضه الخاص بالمبارزة محمل الجد ، فقد كان القتال بالتفويض أسلم ، وغزا شارل بروفانس (٢٥ يوليو سنة ١٥٣٦) بجيش قوامه ٥٠٫٠٠٠ رجل وكان يأمل أن يهاجم جناح الفرنسيين أو يشغلهم فى سافوى بالزحف أعلى الرون . ولكن القائد آن دى مونمورانس أمر القوات الفرنســية الضعيفة بأن تحرق أثناء انسحابها كل شىء يمكن أن يتزود به جنود الإمبراطور ، وسرعان ما تخلى شارل عن الحملة وكان دائماً يعوزه

المال ولا يستطيع أن يقدم الطعام لرجاله ، وكان بولس الثالث يتلهف على إطلاق يد شارل للقيام بهجوم على الأتراك أو اللوثريين فأقنع العملاق المشلول بالالتقاء معه — فى حجرات منفصلة تثير الحماسة — بمدينة نيس وتوقيع هدنة لمدة عشر سنوات (١٧ يونية ١٥٣٨) . وبعد شهر قامت اليونورا ، وهى زوجة أحدهما ، وشقيقة الآخر ، بتدبير لقـــاء شخصى بين الملك والإمبراطور فى إيجسمورت . وهناك نسيا أنهما ملكان وأصبحا إنسانين ، وركع شارل يحتضن أصغر أولاد الملك ، وأعطاه فرانسيس ماسة ثمينة مركبة على خاتم نقشت عليه عبارة : « شاهد ورمز للحب » ، وخلع شارل من جيده طوق الجزة الذهبية ، وانطلقا معاً لسماع القداس ، وابتهج أهل المدينة لشيوع السلام وهتفوا : « الإمبراطور ! الملك » ، وعندما ثارت غنت ضد شارل (١٥٣٩) وانضمت إلى بروجس وايبرس فى عرض نفسها على فرانسيس ، قاوم الملك الإغراء ، وعندما وجد شارل ، فى اسبانيا أن سفن المتمردين أو خشية الإبحار « تسد الطرق البحرية ، أجاب فرانسيس طلبه المرور فى فرنسا . وأشار على الملك مشيروه بأن يُكره الإمبراطور وهو فى الطريق ، على توقيع تنازل عن ميلان للدوق أورليان ، ولكن فرانسيس رفض وقال : « عندما تقوم بشىء كريم يجب أن تفعله كاملا وبجرأة » . ووجد مهرج البلاط يكتب فى « يوميات مهرج » اسم شارل الخامس . لأنه كما قال تريبوليه أنه يكون أشد بلاهة منى لو أتى يمر من خلال فرنسا » فسأله الملك : « وماذا تقول إذا تركته يمر ؟ » فقال : « سوف أمحو اسمه وأدون اسمك مكانه »[٦١] . وترك فرانسيس ، شارل يمر دون أن يعوقه أحد وأمر كل مدينة فى الطريق أن تستقبل الإمبراطور بما يستحق من تكريم ملكى واحتفالات .

وانتهت الصداقة المقلقلة عندما أسر الجنود الإسبان بالقرب من بافيا المبعوثين الفرنسيين وهم يحملون عروضاً جديدة من فرانسيس إلى سليمان

للتحالف معه (يوليو سنة ١٥٤١) . وفى هذه الفترة كان باربارُوسا يغير مرة أخرى على المدن الساحلية فى إيطاليا ، وسافر شارل بحراً من مالوركا مع أرمادا(*) أخرى للقضاء عليه ، ولكن الأسطول واجه عواصف شديدة أجبرته على العودة خاوى الوفاض إلى أسبانيا . وكان حظ الإمبراطور فى هبوط ، فقد ماتت زوجته الشابة (١٦٣٩) التى كان قد تعلم أن يحبها وكانت صحته تتدهور ، وأعلن فرانسيس الحرب عليه عام ١٥٤٢ بسبب ميلان ، وكان حلفاء الملك وقتذاك السويد والدانمارك وجلدرلاند وكليف وسكوتلنده والأتراك والبابا ، ولم يؤيد شارل إلا هنرى الثامن فى مقابل ثمن ما ، ورفض المجلس التشريعى الإسبانى الموافقة على إعانات مالية إضافية من أجل الحرب ، وانضم الأسطول التركى إلى الأسطول الفرنسى فى ضرب الحصار على نيس ، وكانت وقتذاك أرضاً تابعة للإمبراطور (١٥٤٣) ، وفشل الحصار ، إلا أن باربارُوسا وجنوده المسلمين سمح لهم بقضاء الشتاء فى طولون حيث باعوا علناً عبيداً من المسيحيين(٦٢) . واسترد الإمبراطور فى صبر زمام الموقف فوجد وسيلة لإصلاح ذات البين مع البابا ، وكسب إلى صفه فيليب الهسى بالتغاضى عن زواجه من اثنتين ، وهاجم دوق كليف وتغلب عليه ، ووثق صلته بحلفائه الإنجليز وواجه فرنسا بقوة عظيمة جداً حملت فرانسيس على الانسحاب والتسليم له بأمجاد الحملة (أكتوبر سنة ١٥٤٣) .

ورحب شارل مرة أخرى ، بعد أن وجد أنه فقير جداً إلى حد لا يستطيع معه أن يزود جيشه بالميرة ، بعرض للسلام ووقع مع فرانسيس معاهدة كريبى (١٨ سبتمبر سنة ١٥٤٤) . وتخلى الملك عن مطالبه فى الفلاندرز وأرتوا ونابلى ولم يعد شارل يطالب ببورغندى ، وسوف تتزوج أميرة ، من آل هابسبورج ، من أمير فرنسى ، وتقدم إليه ميلان صداقاً لها . (كان يمكن تدبير معظم ذلك سلمياً عام ١٥٢٥) .

(*) أسطول حربى كبير شبيه بالإرمادا المشهورة .

وكان شارل وقتذاك مطلق اليد فى التغلب على البروتستانت فى ملبرج وقد صوره نيســيان هناك ، وهو لا يشكو من داء النقرس ، فخوراً منتصراً ، منهوكاً متعباً بعد ألف من التقلبات ومائة من انقلابات عجلة الحظ الساخرة .

أما فرانسيس فقد انتهى أمره وانتهت معه كذلك فرنسا أو كادت ، وهو إلى حد ما لم يفقد شيئاً سوى الشرف ، وقد حافظ على بلاده بتعجل ترك المثل العليا للفروسية ، ومع ذلك فقد كان يمكن قدوم الأتراك دون أن يوجه الدعوة إليهم ، وقد أعان مجيئهم فرانسيس على كبح جماح الإمبراطور الذى لو لم يجد مقاومة ، لنشر محكمة التفتيش الإسبانية فى الفلاندرز وهولندة وسويسرا وألمانيا وإيطاليا ، وقد وجد فرانسيس فرنسا تنعم بالسلام والرخاء ، وتركها مفلسة على حافة حرب أخرى . وقبل وفاته بشهر ، وبينما كان يقسم مؤكداً صداقته لشارل ، أرسل ٢٠٠ر٠٠٠ كراون إلى البروتستانت فى ألمانيا لتأييدهم ضد الإمبراطور(٦٣) ، وهو — وأقل درجة من ذلك شارل — يتفق فى الرأى مع مكيافيلى بأن رجال السياسة الذين من واجبهم الحفاظ على بلادهم ، يمكنهم مخالفة القانون الأخلاقى الذى يطالبون به مواطنيهم الذين لا هم لهم إلا الحفاظ على أرواحهم . وقد يغتفر له الشعب الفرنسى حروبه ولكنه لم يستسغ حلاوة أبهة مناهجه وبلاطه عندما أدرك فداحة الثمن . وكان قد فقد شعبيته فعلا عام ١٥٣٥ .

وواسى نفسه بالاستمتاع بالجمال حياً وميتاً . وقد اتخذ فى أواخر سنى حياته من فونتنبلو مقراً أثيراً له وأعاد بناءه وابتهج بالفن الأنثوى الرشيق الذى كان الإيطاليون يزينونه به . وأحاط نفسه بفرقة صغيرة من النسوة الصغيرات اللاتى كن يمتعنه بطلعاتهن البهية ومرحهن . وأصيب عام ١٥٣٨ فى عاصمته بمرض وبدأ منذ ذاك يتلعثم تلعثماً مخجلا . وحاول أن يعالج ما كان على الأرجح مرض الزهرى بأقراص الزئبق ، التى وصفها له

باربارو سا ، ولكنها لم تنجح معه(٦٤) : وحطم روحه دمل عنيد كريه الرائحة وأضفى على عينيه ، اللتين كانتا حادتين يوماً ، نظرة شوهاء باكية ، ودفعته إلى الاعتصام بورع لا يناسبه . وكان عليه أن يراقب طعامه لأن الشك خامره فى أن بعض رجال الحاشية الذين يتوقعون رفعة شأنهم فى عهد خلفه ، يسعون إلى تسميمه . ولاحظ فى حزن أن الحاشية تدور وقتذاك حول ابنه الذى كان بالفعل يوزع المناصب وينتظر فى صبر حلول دوره فى التحكم فى موارد فرنسا . واستدعى وريثه الوحيد وهو على فراش الموت فى رامبوييه وحذره من أن تسيطر عليه امرأة — لأن هنرى كان مخلصاً بالفعل لديان دى بواتييه — واعترف الملك بخطاياه فى تلخيص متعجل ، ورحب بالموت وهو يلتقط أنفاسه بصعوبة وهمس فرانسيس ، دوق دى جيز ، وكان واقفاً عند الباب ، إلى الذين كانوا فى الحجرة المجاورة ، أن العاشق العجوز يحتضر(٦٥) ، ومات وهو يردد اسم يسوع . وكان فى الثالثة والخمسين من عمره ولقد حكم اثنتين وثلاثين عاماً . وشعرت فرنسا بأن حكمه دام طويلا ، ولكن عندما استردت حريتها منه ، غفرت له كل شىء ، لأنه كان لبقاً حتى فى ارتكاب آثامه ، ولأنه عشق الجمال وكان فرنسا مجسدة .

ومات هنرى الثامن فى ذلك العام نفسه ، ولحقت به مرجريت بعد عامين ، وقد كانت بعيدة جداً عن فرانسيس ، بل كانت أبعد من أن تدرك أن الموت يترقبه . وعندما وصلتها كلمة ، وهى فى دير بأنجوليم ، تنبئها بأنه مصاب بمرض خطير كادت تفقد رشدها . وقالت : « إن من يأتى إلى عتبة بابى ، كائناً من يكون ، ويعلن لى أن شقيقى الملك قد أبل من مرضه ، ولا بد أن مثل هذا الرسول سيكون متعباً منهوك القوى ، تغطيه الأوحال والأوشاب ، ومع ذلك فسوف أذهب إليه وأقبله وأحتضنه كما لو كان أعظم الأمراء والسادة أناقة فى فرنسا ، وإذا كان فى حاجة إلى

فراش ، فسوف أمنحه فراشى ، وأرقد على الأرض مبتهجة لما حمله إلى من أنباء طيبة[٦٦] » ، وبعثت بالرسل إلى باريس فعادوا وكذبوا عليها ، وأكدوا لها أن الملك سليم معافى ، إلا أن الدموع المختلسة التى انثالت من عينى راهبة كشفت عن الحقيقة ، ولبثت مرجريت أربعين يوماً فى الدير وهى تعمل رئيسة له ، تردد الأناشيد المقدسة القديمة مع الراهبات .

وعندما عادت إلى بو أونيراك أسلمت نفسها للتقشف الشديد ، وخيانات زوجها ، وأهواء ابنتها المتقلبة ، ووجدت السلوى ، بعد السنوات التى أمضتها فى شجاعة نصف بروتستانتية ، فى الشعيرة الكاثوليكية بألوانها وبخورها وموسيقاها الجذابة ، وأسقمتها الكالفينية التى كانت تأسر جنوبى فرنسا ، وأفزعتها ، فعادت إلى تقواها التى عرفت بها فى الطفولة .

وفى ديسمبر عام ١٥٤٩ ، وبينما كانت ترقب مذنباً فى السموات ، أصيبت بحمى أثبتت أنها كانت عنيفة ، إلى حد أنها حطمت هيكلا وروحاً أو هنتهما قساوات الحياة . وكانت قبل ذلك بسنوات قد كتبت سطوراً وكأنها نصف عاشقة لخدر الموت :

رباه متى يأتى اليوم
الذى طالما اشتقت إليه
والذى أجد نفسى بقوة الحب
منجذبة إليك ؟
ألا فلتجفف دموع عينى الحزينتين
وسط تنهدات الفراق
وامنن على بخير أنعمك على الإطلاق
وهى نعمة النوم اللذيذ .

٧ – ديان دى پواتييه

كان « العاشق العجوز » قد أنجب سبعة أطفال ، كلهم من كلود . وكان الابن الأكبر فرانسيس مثل أبيه ، وسيما ، جذاباً مرحاً . أما هنرى المولود عام ١٥١٩ فكان هادئاً خجولا ، وأهمل قليلا ، ولم ينافس أخاه إلا فى البأساء . فقد أمضيا أربع سنوات من الشدة والإذلال فى أسبانيا تركت عليهما بصمات لا تمحى . ومات فرانسيس بعد إطلاق سراحه بست سنوات ، أما هنرى فقد غدا نزاعاً للصمت أكثر من ذى قبل ، وانطوى على نفسه ، وأعرض عن المجون الذى انغمست فيه الحاشية ، وكان له رفقاء ، ولكنهم قلما رأوه مبتسما ، وقال الناس إنه قد غـــدا اسبانيا فى إسبانيا .

ولم يترك له الخيار عندما تزوج من كاترين دى مديتشى ، وهذا هو شأنها عندما تزوجت به . فقد مرت هى أيضاً بمحن ، إذ مات والداها كلاهما متأثرين بمرض الزهرى فى خلال اثنين وعشرين يوماً من مولدها (١٥١٩) ، وأخذت منذ ذلك الوقت حتى زواجها تنتقل من مكان إلى مكان ، لا حول لها ولا قوة ، ولا يرغب فيها أحد . وعندما أقصت فلورنسا حكامها من آل مديتشى (١٥٢٧) احتفظت بكاترينا رهينة لضمان حسن سلوكهم ، وعندما عاد هؤلاء المنفيون لحصار المدينة هددت بالإعدام إذا لم تصرفهم عنها . واستخدمها كليمنت السابع رهينة ، ليكسب تأييد فرنسا لسياسته البابوية ، وانطلقت طائعة إلى مرسيليا وهى فتاة فى الرابعة عشرة من عمرها ، وتزوجت من غلام فى الرابعة عشرة من عمره أيضاً ، لم يكد يتحدث معها إبان الاحتفال بأكمله . وعندما وصلا إلى باريس قوبلت باستقبال فاتر لأنها جلبت معها عدداً كبيراً من الإيطاليين ، وأصبحت فى نظر الباريسيين « الفلورنسية » ، وعلى الرغم من أنها حاولت جهدها أن تسحرهم ، فإنهم

لم يكنوا لها وداً قط ، لا هم ولا زوجها . وظلت عشر سنوات عاقراً ، على الرغم من الجهود العديدة ، وارتاب الأطباء فى أنها أصيبت بعدوى مرض وبيل ، ورثته من أبويها . وعندما تبدد أمل كاترين دى مديتشى كما كانت تسمى فى فرنسا ، فى الحصول على ذرية ذهبت تبكى إلى فرانسيس وعرضت عليه أن تقدم طلباً بالطلاق وتنزوى فى دير ، ورفض الملك فى كرم منه هذه التضحية . وتفتحت أخيراً أبواب الأمومة ، وجاء الأولاد واحداً إثر الآخر كل عام تقريبا . وبلغ عددهم على الإجمال عشرة ، وهم بخاصة فرانسيس الثانى الذى قدر له أن يتزوج مارى ستيوارت والبزابث التى قدر لها أن تتزوج فيليب الثانى وشارل التاسع الذى شاءت الأقدار أن يصدر الأمر بمذبحة سان بارثولوميو وإدوارد الذى أصبح هنرى الثالث بطل المأساة المعروفة ومرجريت دى فالوا التى قدر لها أن تتزوج هنرى ملك نافار وتضطهده وطوال كل تلك السنوات العقيمة أو الخصيبة باستثناء السنوات الأربع الأولى كان زوجها يمنح حبه لديان دى بواتييه فى الوقت الذى كان ينجب فيه منها أولاداً .

وكانت ديان فريدة بين عشيقات الملوك اللاتى كان لهن دور رئيسى فى التاريخ الفرنسى . ولم تكن جميلة . وعندما أحبها هنرى ، وهو فى السابعة عشرة من عمره (١٥٣٦) كانت فى السابعة والثلاثين من عمرها ، وبدأ الشيب يغزو شعرها ، والتجاعيد تسجل سنوات عمرها على جبينها ، وكانت مفاتنها الجسدية لا تعدو الطلاوة ، والبشرة الناضرة بفضل غسلها بالماء البارد فى جميع الفصول ، ولم تكن عاهرة . وكانت فيما يبدو مخلصة لزوجها لويس دى بريزيه حتى وفاته ، وعلى الرغم من أنها انغمست مثل هنرى ، فى علاقتين جانبيتين أو ثلاث ، إبان علاقتها غير الشرعية بالملك ، فإنها كانت مجرد حوادث تغتفر وألحان لطيفة فى أغنية حبها . ولم تكن ممن يجنحون إلى الخيال ، بل كانت عملية جداً ، تصنع كل شىء فى أوانه . ولم تستنكر

فرنسا أخلاقها بل أنكرت عليها بذخها ولم تكن مثل عشيقات فرانسيس — رعوسا جميلة ولكنها جوفاء ، يقفزن على أقدام مرحة إلى أن تفاجئهن الأمومة ، فقد تلقت ديان تعليما لا بأس به ، وكانت تتمتع بإدراك سليم ، وسلوك حسن ، وبديهة حاضرة . وها نحن أولاء أمام عشـيقة تسحر الألباب بذهنها .

وكانت تنحدر من أسرة كريمة ونشأت فى بلاط آل بوربون فى مولان الذى اشتهر بفن الحب . وشارك أبوها جان دى بواتييه ، كونت دى سان فالييه ، الدوق دى بوربون فى خيانة الوطن بعد أن حاول الوقوف فى سبيلها ، فقبض عليه وحكم عليه بالإعدام (١٥٢٣) ، وحصل زوج ديان ، وكان ذا حظوة لدى فرانسيس ، على العفو لأبيها(*) . وكان لويس دى بريزيه حفيد شارل السابع من أنييس سوريل ، وكان ذا مقدرة أو نفوذ لأنه أصبح قيم القصر الأكبر ومحافظ نورماندى . وكان فى السادسة والخمسين من عمره عندما أصبحت ديان البالغة من العمر ستة عشر عاما زوجة له (١٥١٥) . وعندما مات شيدت تخليدا لذكراه فى روين قبرا ضخماً عليه كتابة قطعت على نفسها فيها عهداً بالوفاء الدائم له ولم تتزوج قط مرة ثانية ، ولم ترتد بعد ذلك إلا الثياب السوداء والبيضاء . والتقت بهنرى عندما سلم فى بايون ، وهو بعد صبى فى السابعة من عمره ، كرهينة بدلا من والده . وبكى الصبى المرتبك فحنت عليه ديان ، وكانت وقتذاك فى السابعة والعشرين ، حنان الأم الرؤوم وواسته ، إذ كانت أمه كلود قد ماتت منذ عامين ، ولعل ذكرى تلك الأحضان الحنونة قد بعثت فى ذاكرته من جديد ، عندما التقى بها بعد أحد عشر عاماً . وعلى الرغم من أنه كان قد مضى على زواجه وقتذاك أربعة أعوام فإنه كان لا يزال بعيداً عن النضج العقلى ،

(*) لا صحة للقصة التى أوردها هيجو فى « الملك يلهو » من أن ديان اشترت العفو عنها باستسلامها للملك (٦٧)

كما كان سوداوى المزاج شديد الحياء بصورة غير مألوفة . كان يريد أما أكثر مما يريد زوجة ، وهنا ظهرت ديان من جديد ، هادئة ، رقيقة مواسية . وأقبل عليها أولا إقبال الابن ، وظلت العلاقات بينهما ، فيما يبدو ، تهيمن عليها العفة حيناً . واكسبته محبتها ونصحها الثقة بنفسه ، فكف ، وهو تحت وصايتها ، عن معاداة الناس وأعد نفسه ليكون ملكاً . ونسب إليهما الرأى العام أنهما رزقا بطفلة واحدة ، هى ديان دى فرانسيس ، التى أنشأتها مع ابنتيها من بريزيه ؛ وتبنت أيضاً ابنة هنرى التى أنجبها فى سنة ١٥٣٨ من وصيفة بيدمونتية دفعت ثمن لحظة لقائها بالملك بأن أصبحت راهبة مدى الحياة . وهناك طفل آخر غير شرعى كان ثمرة قصة هنرى الأخيرة مع مارى فليمنج ، مربية مارى ستيوارت . وعلى الرغم من هذه التجارب فإن إخلاصه كان يزيد يوماً بعد يوم لديان بواتييه . ونظم لها قصائد ممتازة حقاً وأمطرها بالجوهرات والضياع . ولم يهمل "كاترين تماماً ، وكان يتناول معها عادة طعام العشاء ويقضى معها الأمسيات ؛ وقبلت ، شكراً منها لما نالته من شذرات حبه ، فى حزن صامت ، أن ترى امرأة أخرى ولية عهد فرنسا الحقيقية ؛ ولا بد أنها أحست بأنها أصيبت بجرح آخر عندما رأت أن ديان كانت تستحث هنرى من حين لآخر على أن ينام مع زوجته(٦٨) .

ولم يؤد ارتقاؤه العرش إلى خفض مكانة ديان . وكتب لهـا أذل الرسائل ، يتوسل إليها أن تسمح له بأن يكون خادمها مدى الحياة . وقد جعلها وله بها غنية كالملكة تقريباً ، وضمن لديان نسبة مئوية من كل المبالغ التى يتسلمها من بيع الوظائف ، وكانت كل التعيينات فيها تقريباً فى نطاق سلطانها . ومنحها جواهر التاج الذى كانت قد وضعته الدوقة ديتامب على رأسها ، وعندما احتجت الدوقة هددتها ديان باتهامها بالبروتستانتية ، ولم ترض عنها إلا بعد أن قدمت لها هدية من العقار . وأذن لها هنرى أن تحتفظ لنفسها بمبلغ ٤٠٠,٠٠٠ تالر ، كان فرانسيس قد أوصى به لتأييد الأمراء

البروتستانت فى ألمانيا سراً[٦٩] . وبفضل هذه المنح أعادت ديان بناء قصر بريزيه الريفى القديم فى آنيه ، طبقاً لتصميم وضعه فيلبر ديلورم ، وشيدت قصرا رحباً لم يصبح الدار الثانية للملك فحسب بل أصبح أيضاً متحفاً للفن ومنتدى جميلا يلتقى فيه الشعراء والفنانون والدبلوماسيون والدوقات والقادة والكرادلة والمعشوقات والفلاسفة . وهنا كان المجلس الخاص للدولة يعقد فى الواقع ، وكانت ديان بمثابة رئيسة للوزراء ، ذكية رصينة . وفى كل مكان — فى آنيه وشينونسو وأمبواز واللوفر — كانت الأطباق والدروع المرسومة عليها الشعارات وأشغال الفن ومقاعد جوقة للترنيم تحمل الرمز الجرىء لقصة الحب الملكية ، فهناك حرفا د D موضوعان ظهر الظهر ، بينهما شرطة تكون حرف H . وثمة أمر مثير للعاطفة وجميل فى هذه الصداقة الفريدة ، التى بنيت على الحب والمال ، وإن دامت حتى الموت .

وفى أثناء كفاح الكنيسة ضد الهرطقة وضعت ديان كل ما تملك من نفوذ ، لتأييد عقيدة المحافظين وسياسة القمع . وكانت لديها أسباب كثيرة تدعوها للتقوى : فقد كانت ابنتها متزوجة من ابن لفرانسيس هو الدوق دى جيز ، وكان فرانسيس هو وشقيقه شارل ، كاردينال اللورين ، — وكلاهما من ذوى المكانة فى آنيه — زعيمى الحزب الكاثوليكى فى فرنسا . أما هنرى فإن تقواه فى الطفولة ازدادت شدة بالسنوات التى أمضاها فى أسبانيا ، وكانت خطاباته الغرامية تخلط بين الله وديان كمنافسين على قلبه ، وأعانته الكنيسة ، وأعطته ٣٫٠٠٠٫٠٠٠ كراون ذهبى لإلغاء مرسوم والده الذى قيد فيه من سلطة المحاكم الكنسية[٧٠] .

ومع ذلك فإن البروتستانتية كانت تشتد فى فرنسا ، وكان كالفن وآخرون غيره يرسلون مبعوثين أحرزوا نجاحاً رائعاً . وما أن حل عام ١٥٥٩ حتى كانت عدة مدن ، كاين وبواتييه ولا روشيل ومدن كبيرة فى بروفانس — يغلب عليها الهوجينوت ، وقدر قس أن البروتستانت

الفرنسيين كانوا ربع عدد السكان(٧١) تقريباً فى ذلك العام . ويقول مؤرخ كاثوليكى : إن أصل المروق فى روما — فساد رجال الكنيسة — لم يستأصل ، بل إنه قوى بفضل الاتفاقية البابوية بين ليو العاشر وفرانسيس الأول(٧٢) . وكانت البروتستانتية فى الطبقتين الوسطى والدنيا إلى حد ما ، احتجاجاً ضد حكومة كاثوليكية كبحت جماح الاستقلال الذاتى للبلدية ، وفرضت ضرائب لا تحتمل ، وبددت الدخول ، وأزهقت الأرواح فى الحرب . وكان النبلاء الذين جردهم الملوك من سلطانهم السابق ينظرون بعين الحسد إلى الأمراء اللوثريين الذين انتصروا على شارل الخامس ، وربما أمكن استعادة إقطاع مماثل فى فرنسا بإعلان استياء العامة من الناس على نطاق واسع من مظالم الكنيسة والحكومة . والحق أن نبلاء بارزين مثل جاسبار دى كولينى وشقيقه الأصغر فرانسوا دنديلو والأمير لويس دى كونديه وشقيقه انطوان دى بوربون قد شاركوا بجهد فعال فى تنظيم ثورة البروتستانت .

وتبنت البروتستانتية الغالية فى لاهوتها آراء كالفن فى كتابه « النظم » ، فقد كان مؤلفه فرنسياً ولغته فرنسية واستهوى منطقه العقلية الفرنسية ؛ وكاد لوثر أن ينسى فى فرنسا بعد عام ١٥٥٠ ، والحق أن اسم هوجنوت بالذات ورد من زيورخ عن طريق جنيف إلى بروفانس ، وفى مايو عام ١٥٥٩ شعر البروتستانت بأنهم أصبحوا من القوة إلى حد يمكنهم من إرسال مندوبين إلى أول مجمع مقدس عام لهم عقد سرا فى باريس . وما أن حل عام ١٥٦١ حتى كان هناك ٢٫٠٠٠ كنيسة أخذت بأسباب الإصلاح الدينى أو كالفينية فى فرنسا(٧٣) .

وشرع هنرى الثانى فى سحق الهرطقة . ونظم المجلس النيابى لباريس ، بناء على تعليماته ، لجنة خاصة (١٥٤٩) لقمع الخروج على الرأى ، وأرسل من أدينوا إلى المحرقة ، وأطلق على المحكمة الجديدة اسم « الغرفة المتأججة » ، وقضى

مرسوم شاتوبريان (١٥٥١) بأن طبع أو بيع أو حيازة كتب الهرطقة يعد جريمة عظمى ، وأن الإصرار على الآراء البروتستانتية يعاقب عليه بالإعدام ، ونص على أن يتسلم المبلغون ثلث أموال المحكوم عليهم . وكان عليهم أن يبلغوا المجلس النيابي عن أي قاض يعامل الهراطقة باللين ، ولم يكن في وسع أي رجل أن يعين قاضياً إلا إذا كانت عقيدته المحافظة لا يرقى إليها شك . وفي خلال ثلاث سنوات أرسلت « الغرفة المتأججة » ستين بروتستانتيا إلى الموت حرقاً . وعرض هنري على البابا بولس الرابع إقامة محكمة للتفتيش في فرنسا طبقاً للنموذج الروماني الجديد ، ولكن المجلس النيابي اعترض على السماح لسلطة أخرى بأن تحل محل سلطته ؛ واقترح أحد أعضائه ، آن دي بورج في جرأة أن تتوقف كل مطاردة للهرطقة حتى يستكمل مجلس ترنت تعريفاته للعقيدة المحافظة . فأمر هنري بالقبض عليه وأقسم أن يراه وهو يحرق ، إلا أن القدر اختلس من الملك هذا المشهد .

وفي غضون ذلك كان قد أغرى بتجديد الحرب ضد الإمبراطور فإنه ، لم يستطع قط أن يصفح عن سجن أبيه وشقيقه وسجنه هو نفسه أمداً طويلا . وكان يكره شارل بقدر حبه لديان . وعندما أعلن الأمراء اللوثريون مقاومتهم الحاسمة للإمبراطور من أجل المسيح والإقطاع سعوا إلى التحالف مع هنري ودعوه للاستيلاء على اللورين ، فوافق على هذا في معاهدة شامبور (١٥٥٢) . وقام بحملة سريعة أدارها بكفاءة واستولى بعد عناء قليل على تول ونانسي ومتز وفردون . وكان شارل أكثر استعدادا للتسليم بالنصر للبروتستانتية في ألمانيا منه للتسليم به لآل فالوا في فرنسا ، فوقع معاهدة صلح ذليلة مع الأمراء في باسوا ، وهرع لضرب الحصار على الفرنسيين في متز . وأقام فرانسيس ، دوق دي جيز شهرته هناك على ما أبداه من مهارة وعناد في الدفاع . واستمر الحصار من ١٩ أكتوبر إلى ٢٦ ديسمبر سنة ١٥٥٢ ، ثم سحب شارل جنوده الذين خارت قواهم وهو شاحب الوجه ، زائغ البصر

أبيض اللحية كسيحاً وقال : « إنى لأرى جيدا أن الحظ يشبه امرأة ، تؤثر ملكاً فتياً على إمبراطور عجوز(٧٤) ، وأردف قائلا : « وقبل أن تمضى ثلاث سنوات سأتحول إلى رجل يربط حول وسطه شريطاً من حرير أى إلى راهب فرنسسكانى(٧٥) » .

وفى عام ١٥٥٥ — ٥٦ تنازل لابنه عن سلطته فى الأراضى المنخفضة وإسبانيا ، ووقع مع فرنسا هدنة فوسيل ، وغادر إسبانيا (١٧ سبتمبر سنة ١٥٥٦) ، وظن أنه أورث فيليب مملكة تنعم بالسلام ، ولكن هنرى أحس أن الموقف يدعو إلى هجوم آخر على إيطاليا . ولم يكن لفيليب أى شهرة كقائد ، وكان متورطاً على غير ما توقع فى حرب البابا بولس الرابع ، وخيل لهنرى أن أمامه فرصة ذهبية . فأرسل جيز ليستولى على ميلان ونابلى ، وتأهب لملاقاة فيليب فى ساحات القتال القديمة فى شمال شرقى فرنسا . وأظهر فيليب أنه أهل لمقابلة الموقف واقترض مليون دوكات من أنطون فوجر وأغرى مارى ملكة إنجلترا بالدخول الحرب . وفى سان كينتان (١٠ أغسطس سنة ١٥٥٧) قاد الدوق أمانويل فليبرت أمير سافوى جيوش فيليب الموحدة إلى نصر كاسح وأخذ كولينى ، ومونمورنسى أسيرين وتأهب للزحف على باريس . وكانت المدينة فى ذعر ، وبدا الدفاع عنها مستحيلا ، واستدعى هنرى جيز وجنده من إيطاليا ، فعبر الدوق فرنسا وفاجأ كاليه بحركة سريعة عجيبة واستولى عليها (١٥٥٨) ، وكانت إنجلترا تحتفظ بها منذ عام ١٣٤٨ ، وكان فيليب يكره الحرب ويتوق إلى العودة لأسبانيا ، فاقتنع توا بتوقيع معاهدة كاتو — كامبريزى — (٢ أبريل سنة ١٥٥٩) وبمقتضاها وافق هنرى على أن يبقى شمال الألب ، ووافق فيليب على أن يدعه يحتفظ باللورين وبكاليه — على الرغم من دموع مارى . وفجأة أصبح الملكان صديقين ، وقدم هنرى ابنته اليزابث لتكون زوجة لفيليب ، وتعهد بزواج شقيقته مرجريت اف برى من أمانويل فيلبرت الذى استعاد

وقتذاك سافوى ، ونظم مهرجان ضخم حفـــل بالمبارزات والمآدب ولیالی الزفاف .

وهكذا بينما ظل فيليب الحذر فى الفلاندرز تجمع الأعيان من الفرنسيين والفلمنكيين والأسبان حول القصر الملكى ليتورنل فى باريس ، وعلقت قوائم فى شارع سان أنطوان الذى يضم مظلات وشرفات مزينة بزخارف بهية ، وانطلق الجميع يمرحون كما لو كانوا يسمعون ناقوس زفاف . وفى ٢٢ يونية استقبل الدوق ألفا ، باعتباره وكيلا لفيليب اليزابث باعتبارها ملكة لأسبانيا ، وأصر هنرى ، وهو وقتذاك فى الأربعين من عمره على دخول المباراة . وفى مثل هذه المبارزات كان النصر يقضى به لراكب الفرس الذى يحطم ثلاث حراب على درع خصمه ، دون أن يرمى عن الفرس . وقام هنرى بهذا العمل أمام الدوق دى جيز والدوق دى سافوى اللذين عرفا كيف يقومان بدورهما الصحيح فى المسرحية ، بيد أن خصماً ثالثاً هو مونتجومرى سمح فى حمق للبقية الباقية الحادة من السلاح بالمرور تحت القناع الحديدى للملك بعد أن حطم حربة على درع الملك ، فاخترقت عين الملك ووصلت إلى المخ . وظل يرقد تسعة أيام فاقد الوعى ، وفى اليوم التاسع من يوليو احتفل بزواج فيليبرت ومرجريت ، وفى اليوم العاشر من يوليو مات الملك وانسحبت ديان إلى آنيه ، وعاشت بعد ذلك سبع سنوات ، وارتدت كاترين دى مديتشى التى كانت ظمأى لحبه ، ثياب الحداد بقية حياتها .

الفصل الثالث والعشرون

هنرى الثامن والكاردينال ولزى

١٥٠٩ – ٢٩

---

١ – ملك واحد: ١٥٠٩ – ١١

لم يكن أحد ممن رأوا الفتى الذى ارتقى عرش إنجلترا عام ١٥٠٩ يتنبأ بأنه هو البطل والوغد معاً فى أكبر حكم درامى فى التاريخ الإنجليزى. وعندما كان غلاماً فى الثامنة عشرة من عمره كانت بشرته الرقيقة وتقاطيعه المنتظمة تجعله جذاباً كالفتاة أو يكاد ، بيد أن ما يتمتع به من قوام رياضى وجرأة سرعان ما قضى على أى مظهر للأنوثة فيــه . وتبارى السفراء الأجانب مع المادحين الوطنيين فى الثناء على شعره الأصهب ، ولحيته الذهبية و « وربلة ساقه الفائقة الجمال » وفى تقرير كتبه جيوستنيانى إلى مجلس شيوخ البندقية قال : « إنه مغرم بالتنس، وإن أجمل شىء فى الوجود أن تراه وهو يلعب ، وبشرته الجميلة تتألق من خلال قميص نسيجه جد رقيق[1] » ، وكان فى الرمى بالسهام والمصارعة يضارع أحسن الأبطال فى مملكته ولم يكن يبدو عليه فى الصيد قط أى تعب ، وكان يخصص يومين كل أسبوع المبارزات ، ولم يكن فى وسع أحد أن ينافسه . إلا الدوق سفولك . وكان موسيقياً مثقفاً أيضاً ، و « غنى وعزف على كل ضروب الآلات وأظهر موهبة نادرة » ، (كما كتب القاصد الرسولى للبابا) ولحن قداسين لا يزالان باقيين ، وكان يعشق الرقص وحفلات المساخر ومظاهر الأبهة

والثياب الجميلة . ويروقه أن يكسو نفسه ثياباً من فرو الفاقوم أو أردية أرجوانية ، وكان القانون ينص على أن له وحده الحق فى ارتداء الديباج الأرجوانى أو الذهبى ، وكان يأكل بتلذذ ، ويصل أحياناً مآدب الغذاء الرسمية إلى سبع ساعات ، ولكنه فى السنوات العشرين الأولى من حكمه كبح جماح شهيته . وكان كل الناس يحبونه ويعجبون بسماحة أخلاقه اللطيفة وسهولة الوصول إلى قلبه ومرحه وتسامحه وحلمه . ورحب الناس بارتقائه العرش وكأنه إيذان بفجر عصر ذهبى .

واغتبطت الطبقات المتعلمة أيضاً لأن هنرى فى أيام السكون تلك كان يطمح أن يكون عالماً بطلا رياضياً على السواء وموسيقياً وملكاً ، ولما كان قد أعد فى الأصل ليكون من رجال الدين فقد أصبح على دراية بعض الشىء باللاهوت ، وكان فى وسعه أن يستشهد بآيات من الكتاب المقدس لأى غرض وكان له ذوق جميل فى الفن ، واقتنى مجموعة تدل على درايته ، وكان حكيماً فى اختياره هولبين لتخليد كرشه . وقام بدور فعال فى أعمال الهندسة وبناء السفن والتحصينات والمدفعية . وقال عنه سير توماس مور : إنه أعلم من أى ملك إنجليزى قبله[٢] » — وليس هذا بالثناء العظيم . وتابع مور كلامه قائلا : « ما الذى لا نتوقعه من ملك غذى بلبان الفلسفة وربات الفنون التسع[٣] ؟ » وكتب مونتجومرى مبهوتاً إلى إرازموس ، وكان حينذاك فى روما ، يقول : « ما الذى لا تعالل به نفسك من أمير تعلم جيداً ما فطر عليه من موهبة خارقة وخاق يكاد يكون إلهيا ؟ ولكن عندما تعرف أى بطل يقيم الآن الدليل عليه ، وكيف يتصرف بحكمة ، وأى محب للعدالة والخير ، وأى مودة يحملها للمتعلمين ، فإنى أتجاسر وأقسم لك بأنك لن تكون فى حاجة إلى جناحين تطير بهما لتشهد هذا النجم الجديد السعيد .

أواه يا إرازموس العزيز . لو أنك استطعت أن ترى كيف أن العالم بأسره هنا مبتهج لأن عنده أميراً عظيماً كهذا ، وكيف أن حياته هى كل ما يبتغون فلن تتمالك نفسك من أن تذرف دموع الفرح . إن السموات لتضحك والأرض لتبتهج(٤) » .

وجاء إرازموس وشارك فى هذا الهذيان لحظة . وكتب يقول : « فيما مضى كان قلب المعرفة بين من يزعمون أنهم من رجال الدين والآن بينما ينصرف هؤلاء فى الأغلب الأعم إلى شهوات البطون والترف والمال(*) فإن حب العلم ذهب منهم إلى الأمراء العلمانيين والحاشية والنبلاء وإن الملك لا يقبل فى بلاطه رجالا مثل مور فحسب ، بل إنه يدعوهم ويجبرهم — على أن يرقبوا كل ما يفعل وأن يشاطروه تبعاته وملذاته . وهو يفضل صحبة رجال مثل مور على صحبة الأغبياء من الفتيان أو الفتيات أو الأغنياء(٥) » . وكان مور أحد أعضاء مجلس الملك وليناكر طبيب الملك وكوليه واعظ الملك فى كنيسة القديس بولس .

وفى السنة التى ارتقى فيها هنرى العرش ، أنفق كوليه الجانب من الثروة التى ورثها عن أبيه لتأسيس مدرسة القديس بولس . واختير نحو ١٥٠ صبياً لكى يدرسوا هناك الأدب الكلاسى واللاهوت المسيحى وعلم الأخلاق ، وخالف كوليه التقاليد بتعيين مدرسين علمانيين فى المدرسة ، وكانت أول مدرسة غير إكليروسية فى أوروبا . وعارض « الطرواديون » الذين كانوا ينددون فى اكسفورد بتدريس الكلاسيات ، برنامج كوليه بحجة أنه يؤدى إلى الشك الدينى ، بيد أن الملك حكم ضدهم ومنح كوليه تشجيعه الكامل . وعلى الرغم من أن كوليه نفسه كان محافظاً فى عقيدته ومثالا للتقوى ،

(*) بيد أن أصدقاء إرازموس من رجال الدين ، دين كوليه وفيشر أسقف روشستر وكبير الأساقفة وارهام كنتربرى كانوا أصدقاء مخلصين من ذوى المروءة والعلم .

فإن أعداءه اتهموه بالهرطقة ، فأخرسهم وارهام كبير الأساقفة وأذعن هنرى . وعندما رأى كوليه أن هنرى يميل إلى الحرب مع فرنسا ندد علناً بسياسته وأعلن ، كما فعل إرازموس ، أن سلاماً ظالماً خير من أعدل الحروب . وندد كوليه بالحرب ، حتى وهو مجتمع بالملك فى الصلاة ، باعتبارها صفعة فى وجه تعاليم المسيح ، ورجاه هنرى على انفراد ألا يضعف معنويات الجيش . ولكن عندما حرض الملك على أن يخلع كوليه أجاب قائلا : « ليكن لكل إنسان قسيسه الخاص . . . إن هـذا الرجل هو قسيسى[٦] » . واستمر كوليه يفسر تعاليم المسيحية تفسيراً جاداً . وكتب إلى إرازموس (١٥١٧) يقول بروح توما أكمبى : آه يا أرازموس ، لا حد هناك لكتب المعرفة ، وليس هناك أفضل من أن نعيش حياة طاهرة مقدسة فى هذا الأجل القصير الذى كتب علينا وأن نبذل جهدنا فى حياتنا اليومية ، وأن نتطهر ونتثقف . . . بالحب المتأجج والاقتداء بيسوع . ولذا فإن أعظم رغباتى إلحاحاً هى أن نسير قدماً ، معرضين عن كل السبل غير المباشرة مؤثرين بطريقة قصيرة توصل إلى الحقيقة . وداعاً[٧] .

وفى عام ١٥١٨ أعد قبره البسيط ولم ينقش عليه إلا اسم جوهانس كوليتس ودفن فيه ، بعد عام ، وأحس كثيرون أن قديساً قد مات .

٢ – ولزى

كان هنرى ، الذى قدر له أن يصبح تجسيداً لأمير مكيافيلى ، لا يزال بعد حدثاً بريئاً فى السياسة الدولية . وعرف حاجته إلى الإرشاد وجعل من الرجال حوله نماذج . وكان مور ذكياً بيد أنه لم يتعد الحادية والثلاثين ، وكان يميل إلى الطهارة والتقوى . وكان توماس ولزى يكبره بثلاثة أعوام فحسب ، وكان قساً إلا أن اتجاهه بأكمله للسياسة ، والدين عنده جزء من

السياسة . وقد ولد توماس فى إبسوتش من « أصل وضيع ودم خسيس » (هكذا « صفه جويكيا رديني المعتز بنفسه)[٨] . وقد استوعب مقرر شهادة البكالوريا فى أكسفورد وهو فى الخامسة عشرة من عمره ، وعندما بلغ الثالثة والعشرين عمل صرافاً فى كلية مجدالين ، وأظهر كفاءته باستخدام مبالغ مناسبة ، تتجاوز السلطة المخولة له ، لإتمام البرج الرائع لتلك القاعة وعرف كيف ينجح . وأظهر فطنة فى الإدارة والمفاوضة فقام بالوعظ فى سلسلة من الكنائس ليخدم هنرى السابع بتلك المقدرة والدبلوماسية .

وعندما ارتقى هنرى الثامن العرش عينه موزعاً للصدقات — مديراً للبر والإحسان . وسرعان ما أصبح القس عضواً فى المجلس الخاص . وأفزع واهرام كبير الأساقفة بدفاعه عن عقد حلف عسكرى مع اسبانيا ضد فرنسا ، وكان لويس الثانى عشر يغزو إيطاليا ، ومن المحتمل أن يجعل البابوية تابعة لفرنسا من جديد . وعلى أية حال فإن فرنسا لا بد أن تصبح قوية جداً . وخضع هنرى فى هذا الأمر لولزى وحميه فرديناند ملك أسبانيا ، وكان هو نفسه يجنح فى هذا الوقت للسلم ، وقال لجيوستنيانى « إنى راض بما أملك ، ولا أود أن أحكم إلا رعاياى ، ولكنى من جهة أخرى لا أقبل أن يبلغ أحد من القوة ما يجعله يتحكم فى »[٩] ، ويكاد هذا يلخص حياة هنرى السياسية ؛ فقد ورث ادعاء الملوك الإنجليز أن لهم الحق فى تاج فرنسا ، ولكنه عرف أنه ادعاء أجوف . ووهنت الحرب سريعاً فى موقعة المهاميز (١٥١٣) . ودبر ولزى للســلام وأغرى لويس الثانى عشر بالزواج من مارى شقيقة هنرى ، وسر ليو العاشر لنجاته فعين ولزى رئيساً لأساقفة يورك (١٥١٤) . وكردينالا (١٥١٥) ، وعينه هنرى ، المنتصر ، حاجباً (١٥١٥) . وفاخر الملك لأنه حمى البابوية ، وعندما رفض أحد البابوات أن يتولى فيما بعد تيسير زواجه عد هذا جحوداً .

وكانت السنوات الخمس الأولى التى قضاها ولزى فى منصب الحاجب من أعظم السنوات توفيقاً فى سجل الدبلوماسية الإنجليزية . وكان يهدف إلى تنظيم السلام فى أوروبا باستخدام إنجلترا وسيلة لحفظ التوازن فى القوى بين الإمبراطورية الرومانية المقدسة وفرنسا ، وكان المفروض أن مما يدخل أيضاً فى دائرة سلطانه أن يصبح حكماً لأوروبا وأن يكون السلام فى القارة فى مصلحة تجارة إنجلترا الحيوية مع الأراضى المنخفضة . وتفاوض كخطوة أولى ، لعقد حلف بين فرنسا وإنجلترا (١٥١٨) ، وخطب مارى ابنة هنرى البالغة من العمر عامين (أصبحت ملكة فيما بعد) إلى ابن فرانسيس الأول البالغ من العمر سبعة شهور . ولا شك أن ميله للضيافة الكريمة قد كشف عنه ما حدث عند ما حضر المبعوثون الفرنسيون إلى لندن لتوقيع الاتفاقيات ، فقد أقام لهم وليمة فى قصر وستمنستر ، قدم لهم فيها عشاء ، قال عنه جيوستنيانى : « أن مثيله لم يقدم قط ، على مائدة كليوباترة وكاليجولا ، وأن قاعة المأدبة بأسرها زينت بزهريات ضخمة من الذهب والفضة[١٠] » . غير أن الكاردينال المحب للدنيا يلتمس له العذر ، فقد كان يقامر ليكسب رهاناً عظيماً ، فكسب . وأصر على أن يكون الحلف مفتوحا لينضم إليه الإمبراطور مكسمليان الأول وشارل الأول ملك أسبانيا والبابا ليو العاشر ، ودعوا للانضمام إليه فقبلوا ، وابتهج أرازموس ومور وكوليه ، إذ داعبهم الأمل فى أن يكون فجر عهد السلام قد أشرق على العالم المسيحى بأسره . وتلقى ولزى التهانى حتى من أعدائه . وانتهز الفرصة لرشوة المندوبين الإنجليز[١١] فى روما لكى يضمن تعيينه قاصداً رسوليا للبابا فى صف بريطانيا والعبارة تعنى : « فى صف » وموضع ثقة ، وكان أرفع تعيين لمبعوث بابوى . وكان ولزى وقتذاك الرئيس الأعلى للكنيسة الإنجليزية وحاكم إنجلترا — مع ولاء استراتيجى لهنرى .

وعكر صفو السلام بعد عام تنافس فرانسيس الأول وشارل الأول على العرش الإمبراطورى : بل إن هنرى رأى أن يقذف بقلنسوته فى الحلبة غير أنه لم يجد رجلا مثل فوجر. وزار الفائز ، وهو وقتذاك شارل الخامس، انجلترا زيارة قصيرة (مايو سنة ١٥٢٠) وقدم احتراماته لعمته كاترين الأراجونية ، الملكة زوجة هنرى ، وعرض أن يتزوج الأميرة مارى (التى كانت مخطوبة بالفعل لولى عهد فرنسا) ، إذا وعدت انجلترا أن تؤيد شارل فى أى نزاع بينه وبين فرنسا ، وهكذا السلام ، أمر غير طبيعى ، فرفض ولزى ولكنه قبل من الإمبراطور مرتباً قدره ٧,٠٠٠ دوكات ، وانتزع منه تعهداً بأن يساعده على أن يصبح بابا :

وحقق الكاردينال الذكى أعظم انتصار باهر له بتدبير لقاء بين العاهلين الفرنسى والإنجليزى فى ميدان كلوث أف جولد (يونيو ١٥٢٠) . وهناك فى أرض فضاء مكشوفة بين جين وآردر قرب كاليه برز فن العصر الوسيط والفروسية فى روعة الغروب . وانطلق أربعة آلاف نبيل انجليزى ، اختارهم الكاردينال وعينهم ، وكانوا يرتدون الملابس الحريرية والمزركشة والمخرمات من أزياء القرون الوسطى المتأخرة ، فى صحبة هنرى بينما امتطى الملك الشاب ذو اللحية الحمراء صهوة فرس صغيرة لملاقاة فرانسيس الأول : وأخيراً وليس آخراً ، أقبل ولزى نفسه مرتدياً ثياباً قرمزية من الأطلس ينافس بها أبهة الملوك . وقد شيد على عجل قصر لاستقبال صاحبى الجلالة ومرافقيهما من السيدات والموظفين ، وأقيمت سقيفة يكسوها قماش تتخلله خيوط ذهبية ، وتتدلى منه طنافس ثمينة ليظلل المؤتمر والمآدب ، وكانت هناك نافورة يسيل منها النبيذ ، وأخليت مساحة لألعاب الفروسية الملكية ، وتدعم الحلف السياسى والعسكري بين الأمتين ، وتبارى العاهلان السعيدان فى المبارزة بل وتصارعا ، وخاطر فرانسيس بسلام أوربا بطرحه الملك الإنجليزى ، وأصلح خطواته الخاطئة بكياسة فرنسية لا نظير لها بالذهاب ، مبكراً ذات

صباح وهو مجرد من السلاح مع بعض الأتباع غير المسلحين ، لزيارة هنرى فى المعسكر الإنجليزى — وكانت لفتة تدل على الثقة الودية فهمها هنرى . وتبادل الملكان الهدايا الثمينة والأيمان المغلظة .

والحق أن أحداً منهما لم يستطع أن يثق بالآخر ، لأن التاريخ علمهما درساً مفاده أن الرجال يكذبون كثيراً عندما يحكمون دولا . وبعد سبعة عشر يوماً أمضاها هنرى ينعم بالولائم مع فرانسيس ، انطلق ليمضى ثلاثة أيام فى مؤتمر مع شارل فى كاليه (يوليه سنة ١٥٢٠) . وهناك أقسم الملك والإمبراطور ، فى حضور ولزى ، على الصداقة الأبدية واتفقا على ألا يقدما على خطوات أخرى لتنفيذ خطتيهما للزواج من الأسرة المالكة فى فرنسا . وكانت هذه الأحلاف المنفصلة أساساً أشد قلقلة للسلام الأوروبى من الاتفاق الودى متعدد الجوانب الذى كان ولزى قد دبر له قبل وفاة مكسمليان ، وإن كان قد ترك انجلترا فى وضع الوسيط ، والحكم فى الواقع — وهو وضع أسمى بكثير من أى وضع يمكن أن يعتمد على ثروة الإنجليز أو سلطانهم . وكان هنرى راضياً . وأمر رهبان سانت البانز باختيار ولزى رئيساً لديرهم ومنحه صافى دخلهم ، وذلك مكافأة لحاجبه ، لأن « سيدى الكاردينال قد تحمل الكثير من التكاليف فى هذه الرحلة » . وأذعن الرهبان ووصل دخل ولزى إلى ما يقرب من احتياجاته .

وكان ، على نطاق أوسع بكثير من معظمنا ، مزيجا من الفضائل والنقائض المركبة ، وكتب جيوستنيانى يقول : « إنه وسيم جداً ، فصيح للغاية ، واسع المقدرة ، لا يكل ولا يمل(١٢) » . وكانت أخلاقه لا تخلو من الشوائب ، فقد انزلق مرتين إلى الأبوة غير الشرعية ، وكانت تعد من الهفوات التى تغتفر فى ذلك العصر الطروب .

ولكن إذا صدقنا ما قاله أسقف ، فإن الكاردينال كان يعانى من

« الزهرى(١٣) » وقبل ما يمكن ، أو ما لا يمكن أن يسمى بالرشا — هدايا عظيمة من المال تلقاها من فرانسيس وشارل على السواء ، وحرص على أن يجعلهما يتنافسان على أن يأمرا له بمرتبات وهبات سخية قدماها ، وكانت هذه من آداب مجاملة العصر ، وأحس الكاردينال المبذر ، الذى شعر بأن سياسته تخدم أوروبا بأسرها ، بأن أوروبا كلها يجب أن تخدمه . وليس من شك فى أنه كان يحب المال والترف والأبهة والسلطان : وكان جانب كبير من دخله يصرف فى الحفاظ على مؤسسة قد يكون تبذيرها السطحى أداة من أدوات الدبلوماسية ، صممت لكى تعطى السفراء الأجانب فكرة مبالغاً فيها عن الموارد الانجليزية . ولم يدفع هنرى أى مرتب لولزى ، ولهذا كان على الحاجب أن يعيش ويولم لضيوفه على حساب موارده الكنسية ومرتباته التى يتقاضاها من الخارج . وحتى لو كان الأمر على هذا النحو فإننا قد نعجب لأنه احتاج لكل الدخل الذى كان يحصل عليه باعتباره صاحب الحق فى دخل أبرشيتين ، وست رواتب للقسس ، ومرتب رئيس جامعة ، ومرتب باعتباره رئيسا لدير سانت البانز وأسقفا لباث وولز ، ورئيساً لأساقفة يورك ومديراً لأبرشية ونشستر وشريكاً لأسقفى ورسستر وسالزبورى الإيطاليين الغائبين(١٤) .

وكان له تقريباً الحق فى الرئاسة الدينية والسياسية بأسرها فى المملكة والمفروض أنه كان ينال مكافأة عن كل تعيين يتم . وقدر مؤرخ كاثوليكى أن ولزى كان يتلقى فى أوج مجده ثلث دخول الكنيسة فى إنجلترا (١٥) ، كان أغنى وأقوى الرعايا فى الأمة : ومن رأى جيوستنيانى أنه كان « أقوى من البابا — بسبعة أضعاف (١٦) » ويقول إرازموس : « إنه الملك الثانى » ولم يبق أمامه إلا خطوة واحدة — يقوم بها — البابوية . وحاول ولزى الحصول عليها مرتين ، ولكن شارل الداهية فاقه فى تلك اللعبة ، متجاهلا وعوده .

واعتقد الكاردينال أن التمسك بالمراسيم دعامة القوة ، ويستطيع المرء بالقوة أن يتبوأ السلطة ولكنه لا يستطيع أن يدعمها بثمن بخس وفى هدوء وسلام إلا بالتعود عليها أمام الجمهور ، والناس تحكم على سمو المرء بمقدار تمسكه بالرسمية التى يحتمى بها . ولهذا فإن ولزى كان يظهر فى الحفلات العامة والرسمية مرتدياً أفخر الملابس الرسميـة التى خيل إليه أنها مناسبة لمثل كل من البابا والملك . قبعة كاردينال حمراء ، وقفازين حمراوين ، وأردية من التافتاه القرمزية وحذاء من الفضة أو مموهاً بالذهب، ومرصعاً باللآلىء والأحجار الكريمة — ها هو ذا أنوسنت الثالث وبنيامين دزرائيلى وبروفل الجميل اجتمعوا معاً فى شخص واحد . كان أول من لبس الحرير[١٧] بين رجال الدين فى انجلترا . وعندما كان يردد القداس (وهو أمر نادر) كان شماسته من الأساقفة والرهبان ، وفى بعض المناسبات كان النبلاء من حملة ألقاب دوق وايرل يصبون الماء الذى يغسل به يديه المقدستين . وأذن لتابعيه أن يركعوا وهم يخدمونه على المائدة . وخدمه فى مكتبه وبيته خمسمائة شخص[١٨] ، كثير منهم من ذوى النسب العريق . وكانت قلعة هامبتون التى شيدها لتكون مقراً له باذخة جداً إلى حـد أنه أهداها للملك (١٥٢٥) ليتقى شر حسده .

ومهما يكن من أمر فإنه نسى أن هنرى كان ملكاً . وكتب جيوستنيانى إلى عضو شيوخ من البنادقة : « لدى وصولى لأول مرة إلى انجلترا اعتاد الكاردينال أن يقول لى إن جلالته سوف يفعل كذا وكذا » . وبعد ذلك — بالتدريج نسى نفسه وبدأ يقول : « سوف نفعل كذا وكذا » أما الآن يقول « سأفعل كذا وكذا »[١٩] ، وكتب السفير مرة أخرى يقول : « إذا كان لابد من إغفال أمر الملك أو الكاردينال فمن الأفضل التغاضى عن الملك ، فالكاردينال قد يستاء من السبق الذى يسلم به للملك[٢٠] » وقلما كان الأشراف والدبلوماسيون يحصلون على الإذن بالمثول فى حضرة الحاجب قبل تقديم

الالتماس الثالث . وكلما مر عام كان الكاردينال يحكم صراحة حكماً مطلقاً يشتد يوماً بعد يوم ، واستدعى المجلس النيابى مرة إبان رئاسته ، وكان قليل الاهتمام بالأشكال الدستورية ، وقابل المعارضة بالاستياء والنقد بالزجر . وكتب المؤرخ بوليدور فرجيل يقول : « إن هذه الوسائل سوف تؤدى إلى سقوط ولزى » فأرسل فرجيل إلى البرج ، ولم يطلق سراحه إلا بعــد أن تشفع له ليو العاشر مراراً . واشتدت المعارضة .

ولعل من عزلهم ولزى أو أدبهم هم الذين اعتصموا بآذان التاريخ ، ونقلوا آثامه كما هى بلا غفران ، إلا أن أحداً لم ينازع فى مقدرته ، أو انصرافه فى مثابرة لكثير من مهامه . وقال جيوستنيانى لعضو الشيوخ من البندقية المعتز بنفسه « إنه ينجز من العمل قدر ما يشغل كل القضاة وموظفى المكاتب والمجالس فى البندقية ، فى المحاكم المدنية والجنائية على الســواء ، وهو يدير كذلك كل شئون الدولة مهما كانت طبيعتها (٢١) » .

وكان محبوباً من الفقراء ، مكروها من الأقوياء بسبب عدم تحيزه فى تطبيق العدالة . وفتح بلاطه لكل من يشكون من الاضطهاد ، ولا تكاد توجد سابقة لهذا فى التاريخ الانجليزى بعد الفرد . وكان ينزل العقاب بالجانى الأثيم ، مهما كان رفيع القدر (٢٢) ، دون خوف ولا وجل . وكان كريماً مع العلماء والفنانين وبدأ إصلاحاً دينياً بإحلال كليات محل أديار عديدة . وكان بصدد القيام بإصلاح مثير فى التعليم الإنجليزى عندما تآمر ضده كل الأعداء الذين خلقهم اندفاعه فى أعماله وقصر نظر كبريائه ، فتآمروا بخلق قصة خيالية ماكية لتدبير خطة لسقوطه

٣ ـ ولزى والكنيسة

وأدرك المساوئ التى لا تزال باقية فى حياة رجال الدين فى انجلترا ضرب لها مثلا عظيما : أساقفة غائبين ورجال دين متعلقين بالدنيا ،

ورهباناً كسالى ، وقساوسة وقعوا فى شرك الأبوة . وكانت الدولة التى طالما دعت إلى إصلاح الكنيسة ، مسئولة إلى حــد ما عن الشرور ، لأن الملوك كانوا يعينون الأساقفة ، وكان بعض الأساقفة من أمثال مورتون ، وواهرام وفيشر رجالا على خلق رفيع ، ذوى مقدرة عظيمة ، وكان كثير من الآخرين منغمسين جداً فيما تتيحه لهم الأسقفية من حياة وادعة ، فلم يســتطيعوا أن يدربوا أتباعهم من رجال الدين على الكفاءة من الناحية الروحية ، وكذلك على المثابرة فى تدبير المال . وربما كانت أخــلاقيات الجنس عند القساوسة أفضل مما هى عند زملائهم فى ألمانيا ، ولكن لم يكن ثمة مفر من وجود حالات من التسرى بين رجال الدين ، ومن الزنا والسكر والجريمة فى الأبرشيات البالغ عددها ٨,٠٠٠ فى انجلترا — وهى حالات — كثيرة دفعت كبير الأساقفة مورتون إلى أن يقول : (١٤٨٦) « إن ما يقترن بحياتهم من فضائح يعرض للخطر استقرار نظامهم[٢٣] » . وأبلغ رتشارد فوكس ، حوالى عام ١٥١٩ ، ولزى بأن رجال الدين فى أسقفية ونشستر كانوا قد ترددوا إلى هاوية كبيرة من الفسق والفساد ، إلى حد أنه يئس من أن يشهد فى حياته أية محاولة لإصلاح دينى[٢٤] . وارتاب القساوسة بالأبرشيات فى أن ترقياتهم تتوقف على مقدار مقتنياتهم ، فأخذوا يغتصبون ضرائب العشور أكثر مما فعلوا فى أى وقت مضى . وكان البعض يستولى كل عام على عشر دجاج الفلاح وإنتاجه من البيض واللبن والجبن والفاكهة ، بل حتى من كل الأجور التى كانت تدفع لمعاونته ، وكل إنسان لا يترك فى وصيته ميراثاً للكنيســة يتعرض لخطر عظيم بحرمانه من الدفن طبقاً للطقوس المسيحية مع ما يترتب على ذلك من نتائج متوقعة مروعة إلى حد لا يمكن التفكر فيها . وبعبارة موجزة فرض رجال الدين مكوساً لتمويل مصالحهم فى إصرار مثل الدولة الحديثة . وما أن حل عام ١٥٠٠ حتى كانت الكنيسة تملك ، وفقاً لتقدير كاثوليكى محافظ ، حــوالى خمس

الأملاك بأسرها فى إنجلترا(٢٥) . وحسد النبلاء هناك كما فى ألمـانيا رجال الدين على هذه الثروة وتلهفوا على استعادة الأراضى والدخول التى تنازل عنها لله أسلافهم الأتقياء أو الخائفون .

وأجمل دين كوليه حالة رجال الدين العلمانيين مع مبالغة واضحة فى خطاب وجهه إلى جمعية رجال الكنائس عام ١٥١٢ فقال : « أود أخيراً وأنا عالم بشهرتكم ومهنتكم ، أن تفكروا فى إصلاح أمور الكهنوت لأنه لم يحدث من قبل أن كان الأمر محتوماً كما هو الآن . . . . لأن الكنيسة — زوجة المسيح — التى تمنى ألا تشوبها شائبة أو تدب فيها الشـيخوخة قد أصبحت دنسة مشوهة ، وكما يقول أشعياء : « كيف صارت القرية الأمينة زانية »(*) . وكما يقول أرميا : أما أنت فقد زنيت بأصحاب كثيرين(**) » . وقد حملت بكثير من بذور الظلم وهى تنجب كل يوم أعظم الذرية دنساً . ولم يشوه شىء وجه الكنيسة مثل ما شوهته المعيشة العالمانية والدنيوية لرجال الدين . . . . أى لهفة وجوع يشبعان فى هذه الأيام بين رجال الدين بعد الشرف والوقار . وأى سباق تنقطع فيه الأنفاس من صدقة إلى صدقة ومن منفعة أقل إلى منفعة أكبر .

ألم تغرق الشهوة إلى الجسد ، ألم تغرق هذه الرذيلة الكنيسة بالفيضان . . ولهذا فليس هناك ما يسعى إليه فى حرص الجانب الأكبر من القساوسة أكثر مما يهيئ لهم اللذة الحسية ؟ إنهم لينصرفون إلى المآدب والولائم . ويقفون حياتهم وينصرفون إلى القنص والصيد بالصقور ، وهم غارقون فى مباهج هذه الحياة الدنيا . .

وقد تملك الجشع أيضاً . . . قلوب كل القسس . . . إلى حد أننا اليوم

(*) العهد القديم : سفر أشعياء : الاصحاح الأول ، آية ٢١
(**) « « : سفر أرميا : الإصحاح الثالث ، آية ١

لا نرى شيئاً سوى ما يخيله لنا أنه كفيل بأن يعود علينا بمغنم ، ونحن نعانى فى هذه الأيام من الهراطقة — وهم رجال يتصفون بحماقة عجيبة ، إلا أن هرطقتهم ليست وبائية خبيثة بالنسبة لنا وللناس مثل حياة رجال الدين الفاسدين الغاوين . ولا بد أن يبدأ الإصلاح الدينى بكم(٢٦) » .

وصاح نائب الأسقف مرة أخرى وهو يتميز غيظاً : « أيها القساوسة .. يا طائفة القسس . . . أواه ! إن الضلال المقيت الذى يسدر فيه هؤلاء القساوسة التعساء ، الذين يضم منهم عصرنا عدداً كبيراً لا يخشون الاندفاع من أحضان بغى دنسة إلى حرم الكنيسة ، وإلى مذبح المسيح ، وإلى أسرار العشاء الربانى(٢٧) .

بل إن رجال الدين النظاميين أو الرهبانيين تعرضوا لاستنكار شديد ، فقد اتهم كبير الأساقفة مورتون عام ١٤٨٩ الراهب وليام من دير سانت ألبانز بـ « الاتجار فى المقدسات والرتب والوظائف الدينية والربا والاختلاس والعيش علنا وباستمرار مع العاهرات والعشيقات داخل أرباض الدير وخارجه » واتهم الرهبان بأنهم يحيون حياة داعرة . . . . كلا بل يدنسون الأماكن المقدسة ، حتى كنائس الرب بالذات بمضاجعة الراهبات الممقوتة » . ويحولون ديراً ثانوياً مجاوراً إلى « ماخور عام »(٢٨) .

وترسم سجلات الجولات التفتيشية الأسقفية صورة أقل اكفهراراً . فمن بين اثنين وأربعين ديراً تم التفتيش عليها بين عامى ١٥١٧ و ١٥٣٠ وجد خمسة عشر ديراً لم تقترف فيها خطيئة كبيرة ، وفى معظم الأديار الأخرى كانت جرائم التعدى على النظام أكثر منها على العفة(٢٩) . وكانت بعض الأديار لا تزال تمارس نظام الصلاة فى القرون الوسطى والإقبال على العلم والضيافة والبر وتعليم الشباب . واستغل بعضها السذاجة وجمعت النقود من العامة لمخلفات وهمية نسبوا إليها شفاء معجزاً من الأمراض ، وشكا أساقفة

من « الأحذية المنتنة والأمشاط القذرة . . والزنارات الرثة وخصلات الشعر والخرق القذرة المقررة والموصى بها للجهلة من الناس . باعتبارها مخلفات صحيحة لنساء أو رجال مقدسين[٣٠].

وعلى الجملة فإن الأديار السمائة فى إنجلترا أظهرت ، طبقا لتقدير آخر مؤرخ كاثوليكى ، سوء سلوك على نطاق واسع وكسلا متلافا وإهمالا يكلف غاليا فى رعاية أملاك الكنيسة[٣١].

وفى عام ١٥٢٠ كان فى انجلترا نحو ١٣٠ ديراً للراهبات . منها أربعة فقط تضم ما يزيد على ثلاثين نزيلة[٣٢]. وألغى الأساقفة ثمانية أديار ، وقال الأسقف فى إحدى الحالات بسبب « الأخلاق الداعرة لنساء البيت وتبذلهن بسبب مجاورتهن لجامعة كمبردج[٣٣]» . وتمت ثلاث وثلاثون جولة تفتيشية لواحد وعشرين ديراً للراهبات فى أبرشية لنكولن وقدمت عنها تقارير من بينها ستة عشر تقريراً مشجعا ، وأربعة عشر تقريرا تضمنت ملاحظات عن الافتقار إلى النظام أو الأخلاق وتقريران تحدثا عن راهبات كن يعشن فى الخنا ، وتقرير وجد راهبة حاملا من قسيس[٣٤]. وكانت مثل هذه الانحرافات عن القواعد الصارمة تعد طبيعية فى المناخ الأخلاقى السائد فى تلك العصور ، ولعل الخدمات الكريمة فى التعليم والبر كانت ترجحها .

وكان رجال الدين لا يتمتعون بالشعبية . وكتب يوستاس شابويس السفير الكاثوليكى لشارل الخامس فى إنجلترا إلى مولاه عام ١٥٢٩ فقال : « إن كل الناس يكرهون القساوسة »[٣٥] . وندد كثير من الناس ، من المتشبثين بعقيدة المحافظين تماما بقسوة الضرائب التى فرضها رجال الدين وتبذير الأساقفة وثراء الرهبان وكسلهم . وعندما اتهم كاتب سر أسقف لندن بقتل هرطيق (١٥١٤) توسل الأسقف إلى ولزى أن يمنع المحاكمة أمام محلفين مدنيين « لأنى واثق أن كاتب سرى لو حوكم أمام أى اثنى عشر

رجلا فى لندن فإنهم سوف ينحازون فى حقد إلى صف الهرطيق إلى حد أنهم سوف يلبذون كاتبى ويدينونه على الرغم من أنه برىء مثل هابيل »(٣٦).

وأخذت الهرطقة تشتد مرة أخرى . وفى عام ١٥٠٦ اتهم خمسة وأربعون رجــلا بالهرطقة أمام أسقف لنكولن وتراجع ثلاثة وأربعون عما قالوا ، وأحرق اثنان . وفى عام ١٥١٠ حاكم أسقف لندن أربعين هرطيقا وأحرق اثنين ، وفى عام ١٥٢١ حاكم خمسة وأربعين وأحرق خمسة ، وتورد السجلات قائمة تضم ٣٤٢ محاكمة مثل هذه فى خلال خمسة عشر عاماً(٣٧) .

ومما كان يعد بين الهرطقات الجدل حول القربان المقدس وهل يظل يقدم من الخبز فحسب ، وأن القساوسة لا حول لهم ولا قوة أكثر من الآحاد الآخرين من الناس فى التكريس أو الحل ، وأن القرابين المقدسة ليست ضرورية للحصول على الخلاص ، وأن رحلات الحج إلى المزارات المقدسة والصلاة من أجل الموتى لا قيمة لها ، وأن الصلوات يجب أن توجه لله وحده ، وأن فى وسع الإنسان أن يظفر بالنجاة بالإيمان وحده ، بغض النظر عما يقدم من صالح الأعمال ، وأن المسيحى المخلص فوق كل القوانين ما عدا شريعة المسيح ، وأن الكتاب المقدس والكنيسة يجب أن يكونا القاعدة الوحيدة التى يحتكم إليها فى العقيدة ، وأن كل الرجال يجب أن يتزوجوا ، وأن الرهبان والراهبات يجب أن يجحدوا أقسامهم بالتزام العفة .

وكانت بعض هذه الهرطقات أصداء لمذهب لولارد ، وكانت بعضها انعكاسات لنفخات من بوق لوثر .

وفى أوائل عام ١٢٥١ كان الثائرون الشبان فى اكسفورد يتلقفون فى لهفة أنباء الثورة الدينية فى ألمانيا ، وآوت كامبردج فى أعوام ١٥٢١ — ٢٥ اثنى عشر من زعماء هراطقة المستقبل ، وليام تيندال وميلز كوفردال وهيولاتيمر وتوماس بلنى وادوارد فوكس ونيكولاس ردلى وتوماس

كرانمر . . . لقد هاجر كثير منهم : وهم يتوقعون الاضطهاد ، إلى القارة ، وطبعوا كراسات دينية مناهضة للكاثوليكية وبعثوا بها سرا إلى إنجلترا .

وأصدر هنرى الثامن عام ١٥٢١ كتابه المشهور « قضية المقدسات السبعة ضد مارتن لوثر » ، ولعله أصدره كرادع لهذه الحركة أو ربما لإظهار سعة علمه فى اللاهوت ، واعتقد الكثيرون أن ولزى هو المؤلف الخفى ، ولعل ولزى هو الذى اقترح تأليف الكتاب ، وصاحب ما ورد فيه من أفكار رئيسية كجزء من دبلوماسيته فى روما ، بيد أن إرازموس ادعى أن الملك قد فكر فى الرسالة من أولها لآخرها وألفها ، ويميل الحكم الآن إلى هذا الرأى . وهذا الكتاب له سمات المبتدئ ، وهو لا يكاد يحاول تقديم رد عقلى يدحض به الآراء الأخرى ، ولكنه يعتمد على فقرات منقولة من الكتاب المقدس والروايات الكنسية والتعسف الشديد . وكتب الثائر المنتظر ضد البابوية يقول : « أى ثعبان سام يصل إلى درجة من يصف سلطة البابا بأنها مستبدة ؟ . . . وأى جارحة من جوارح الشيطان تحاول أن تمزق أعضاء المسيح وتفصلها عن رأسها » . ما من عقوبة يمكن أن تكون جسيمة عندما توقع على من يعصى القس الأكبر والقاضى الأعلى على الأرض « لأن الكنيسة بأسرها ليست رعية للمسيح فحسب . . . بل لكاهن المسيح الوحيد ، بابا روما »(٣٨). « وكان هنرى يغبط ملك فرنسا على ألقاب التشريف التى تسبغها الكنيسه عليه مثل : « أكثر المسيحيين مسيحية » وفرديناند وايزابلا على لقب العاهلين الكاثوليكيين . وعندما قدم وكيله وقتذاك الكتاب إلى ليو العاشر طلب منه أن يمنح هنرى وخلفاءه لقب — حامى العقيدة — ووافق ليو ووضع من استهل الإصلاح الدينى فى انجلترا الكلمات على سكنه .

وتمهل لوثر فى الإجابة . ورد عام ١٥٢٥ ردا فريدا على ذلك « الحمار الأحمق » ، « وذلك المجنـــون الهائج . . . ملك الأكاذيب ، الملك

هينز ، ملك انجلترا يغضب الله . . . ولما كانت تلك الدودة اللعينة العفنة قد افترت كذبا بشر مبيت على مليكي فى السماء فإنه يحق لى أن ألطخ هذا الملك الإنجليزى بقذره »(٣٩) « ولم يتعود هنرى على هذا الرشاش فاشتكى إلى أمير سكسونيا المختار الذى قال له بأدب جم ألا يتطفل على الأسود ، ولم يصفح الملك قط عن لوثر على الرغم من اعتذاره فيما بعد ، ونبذ البروتستانت الألمان حتى عندما تمرد تماما على البابوية .

وكان أعظم رد مفحم للوثر هو نفوذه فى إنجلترا ففى ذلك العام نفسه ١٥٢٥ نسمع عن « جمعية الإخوان المسيحيين » . فى لندن التى انطلق وكلاؤها المأجورون يوزعون كراسات دينيـــة لوثرية وهرطقية أخرى وأناجيل بالإنجليزية كلها أو بعضها .

وفى عام ١٤٠٨ انزعج كبير الأساقفة أروندل بسبب توزيع نسخة الكتاب المقدس التى ترجمها ويكلف ، فمنع القيام بأى ترجمة له باللغة الوطنية دون الحصول على موافقة من الأسقف ، على أساس أن أى نسخة تترجم بدون ترخيص قد يحدث فيها تحريف للفقرات الصعبة ، أو تلون التعبير لتأييد هرطقة . ولم يشجع كثير من رجال الدين قراءة الكتاب المقدس بأى صيغة ، واحتجوا بأن الترجمة الصحيحة تستلزم معرفة خاصة ، وأن المنتخبات من الكتاب المقدس كانت تستخدم لإثارة الفتنة(٤٠). ولم تبد الكنيسة أى اعتراض رسمى على الترجمات السابقة لويكلف بيد أن هذا الإذن المفهوم ضمنا لم تكن له أهمية لأن كل النسخ الإنجليزية قبل عام ١٥٢٦ كانت مخطوطة(٤١).

ومن ثم تأتى الأهمية الزمنية للعهد الجديد الإنجليزى الذى نشره تندال عام ١٥٢٥ — ٢٦ . وكان قد فكر مبكراً فى أيام دراسته فى ترجمة الكتاب المقدس ، لا من النسخة اللاتينية له كما فعل ويكلف ، بل من الأصلين

العبرى واليونانى . وعندما لامه كاثوليكى غيور وقال له : « خير لك أن تعيش بلا شريعة الرب » أى الكتاب المقدس من أن تعيش بشريعة البابا » ، رد تندال بقوله : « إذا مد الله فى عمرى فلن تمضى بضع سنين حتى أجعل الصبى الذى يدفع المحراث يعرف من الكتاب المقدس أكثر مما تعرف أنت[٤٢]» . ومنحه أحد معاونى بلدية لندن الفراش والمأوى لمدة ستة شهور عكف الشاب أثناءها على العمل . وذهب تندال عام ١٥٢٤ إلى فتنبرج واستمر فى العمل تحت إرشاد لوثر . وبدأ فى كولونيا يطبع نسخة العهد الجديد المترجمة من النص اليونانى كما حققه ارازموس . وأثار وكيل إنجليزى السلطات عليه ، ففر تندال من كولونيا الكاثوليكية إلى ورمز البروتستانتية ، وهناك طبع ٦,٠٠٠ نسخة ، أضاف لكل منها مجلدا منفصلا ضمنه تعليقات ومقدمات عدوانية ، اعتمد فيها على مقدمات إرازموس ولوثر . وهربت كل هــذه النسخ إلى انجلترا وكانت بمثابة الوقود ، الذى أشعل نار البروتستانتية الأولى ، وزعم كوثبرت تونستال ، أسقف لندن أن هناك أخطاءاً شنيعة فى الترجمة ، وتحاملا مغرضاً فى التعليقات ، وهرطقات فى المقدمات ، وحاول أن يمنع تداول الطبعة بشراء كل النسخ المكتشــفة وإحراقها علناً فى ميدان سانت بول كروس ، بيد أن نسخاً جديدة ظلت ترد من القارة ، وعلق مور على ذلك بقوله إن تونستال كان يمول مطبعة تندال . وكتب مور نفسه حواراً مستفيضاً (١٥٢٨) ، انتقد فيه النسخة الجديدة فرد عليه تندال ، ورد مور على الرد فى « تفنيد » يتألف من ٥٧٨ صفحة من القطع الكبير . ورأى الملك أن يخمد الفتنة بمنع قراءة الكتاب المقدس بالإنجليزية وتداوله ، إلى أن تصدر ترجمة معتمدة من ذوى الشأن (١٥٣٠) ، وفى غضون ذلك حرمت الحكومة كل طبع أو بيع أواستيراد أو حيازة للمؤلفات الهرطقية .

وبعث ولزى بأوامره بالقبض على تندال ، إلا أن فيليب ، حاكم لاندجراف هس أسبغ حمايته على المؤلف ، وتابع فى ماربورج ترجمته للأسفار الخمسة (١٥٣٠) . وترجم الجانب الأكبر من العهد القديم إلى الإنجليزية فى أناة ، بجهده الخاص أو تحت إشرافه . غير أنه سقط فى أيدى الموظفين الإمبراطوريين فى لحظة لم يتخذ فيها احتياطاته وسجن لمدة ستة عشر شهراً فى فلفورد (قرب بروكسل) ، وأعدم فى المحرقة (١٥٣٦) على الرغم من تشفع توماس كرومويل وزير هنرى الثامن . وتحدثنا الرواية أن آخر كلماته كانت : « رباه ، افتح عينى ملك انجلترا [٤٣] » وقد عاش ما يكفى لإتمام رسالته ، فالصبى الحارث يستطيع الآن أن يسمع المبشرين الإنجيليين الآن وهم يروون له بإنجليزية ثابتة واضحة قوية قصة المسيح الملهمة . وعندما ظهرت النسخة التاريخية المعتمدة (١٦١١) كان ٩٠ فى المائة من أعظم ما كتب فى الأدب الكلاسى الإنجليزى وأشدها تأثيراً كانت لتندال بلا تغيير [٤٤] .

وكان موقف ولزى تجاه هذا الإصلاح الدينى الإنجليزى الوليد يتسم باللين ، كما يمكن أن يتوقع من رجل على رأس الكنيسة والحكومة على السواء . فاستأجر شرطة سرية لكشف الهرطقة ، وفحص الأدب المشكوك فيه والقبض على الهراطقة . غير أنه سعى إلى إغراء هؤلاء بأن يسكتوهم لا أن يعاقبوهم ، ولم يصدر أوامره قط بإرسال هرطيق إلى المحرقة . وفى عام ١٥٢٨ سجن ثلاثة من طلبة جامعة أكسفورد بتهمة الهرطقة ، وترك أسقف لندن واحداً منهم يموت فى الحبس وأنكر آخر ما قاله وأطلق سراحه ، أما الثالث فأخذه ولزى ووضعه تحت رعايته وسمح له بالفرار [٤٥] . وعندما ندد هيو لاتيمر ، أفصح المصلحين المدينيين الأوائل فى القرن السادس عشر بانجلترا ، بفساد رجال الدين وطلب أسقف ايلى من ولزى منعه ، منح ولزى لاتيمر ترخيصاً بالوعظ فى أى كنيسة بالبلاد .

ورسم الكاردينال خطة ذكية لإصلاح الكنيسة . وفى راوية لأسقف برنت أنه كان يحتقر رجال الدين وبخاصة . . . الرهبان الذين لا يؤدون خدمة للكنيسة أو الدولة ، ولكنهم كانوا بسبب حياتهم الفاضحة وصمة عار فى جبين الكنيسة وحملا على الدولة . ومن ثم قرر أن يوقف عدداً منهم ويحولهم إلى مؤسسة أخرى(٤٦) » . ولم يكن إغلاق دير لا يؤدى وظيفته على ما يرام بالأمر الذى لم يسمع به من قبل ، فقد حدث فى كثير من الحالات قبل ولزى بأمر صدر من الكنيســة . وبدأ (١٥١٩) بإصـــدار تشريعات لإصلاح القوانين الكلسية التى وضعها سانت أوغسطين » ولو أن هــذه القواعد اتبعت لأصبحت القوانين الكنسية نموذجية للغاية . وفوض كاتم سره توماس كرومويل فى زيارة الأديار بنفسه أو بواسطة وكلاء له وأن يقدم له تقارير عن الأحوال الموجودة ، وأتاحت هــذه الجولات التفتيشية مهارة متمرسة لكرومويل فى تنفيذ أوامر هنرى فيما بعد بتقصى الحياة فى الأديار بانجلترا بشدة . وارتفعت الأصوات بالشكوى من قسوة هؤلاء الوكلاء ومن تلقيهم « الهدايا » أو أخذها كرها ، وعن مشاطرتهما كرومويل والكاردينال(٤٧) فى هذه الهدايا . وحصل ولزى عام ١٥٢٤ على إذن من البابا كليمنت السابع بإغلاق الأديار التى تضم أقل من سبعة نزلاء واتفاق دخول هذه الممتلكات على إنشاء كليات . وشعر بالسعادة عنــدما مكنته هذه الأموال من فتح كلية فى موطنه ابسويتش وأخرى فى أكسفورد وراوده الأمل فى أن يستمر على هذا المنوال فيغلق المزيد من الأديار عاماً بعد عام ويســتبدل بها كليات(٤٨). إلا أن نياته الطيبة ضاعت فى غمرات السياسة ، وكانت أعظم نتيجة لإصـــلاحاته المتعلقة بالأديار هى أنه زود هــنرى بسابقة جديرة بالإجلال لخطة أبعــد مدى ، وتدر ربحاً أكثر .

وفى غضون ذلك كانت سياسة الكاردينال الخارجية قد أدت إلى نتيجة تدعو إلى الأسى . ولعله سمح لانجلترا بالانضمام إلى شارل فى حربه مع فرنسا (١٥٢٢) لأنه كان يسعى إلى الحصول على تأييد الإمبراطور لترشيحه للبابوية (١٥٢١) . ومنيت الحملات الإنجليزية بالفشل وتكلفت أموالا طائلة ، وأزهقت فيها أرواح كثيرة .

ودعا ولزى (١٥٢٣) أول مجلس نيابى فى سبع سنوات ، لتمويل الجهود الجديدة ، وصدمه بطلب إعانة مالية لم يسبق لها مثيل قدرها ٨٠٠,٠٠٥ جنيه — أى خمس ما يملكه كل علمانى . واحتج أعضاء مجلس العموم ثم صوتوا على السبع فقط ، واحتج رجال الدين بيد أنهم سلموا دخل نصف عام من كل الصدقات . وعندما وصلت الأنباء بأن جيش شارل قد تغلب على الفرنسيين فى بافيا (١٥٢٥) وأخذ فرانسيس أسيراً . رأى هنرى وولزى أن من الحكمة أن يسهما فى تقطيع أوصال فرنسا الذى يوشك أن يحدث . ووضعت خطة للقيام بغزو جديد واقتضى الأمر تدبير المزيد من الأموال وخاطر ولزى بآخر ما تبقى له من شعبية ، بأن طلب من كل الإنجليز الذين يتجاوز دخلهم ٥٠ جنيهاً (٥٠٠ دولار ؟) أن يسهموا بسدس أموالهم فى « هبة ودية » ، لمتابعة الحرب والوصول بها إلى غاية مجيدة ، « ودعونا نتبرع ودياً حتى نمنع شارل من ابتلاع فرنسا بأسرها » .

وقوبل الطلب بمقاومة انتشرت على نطاق واسع اضطر ولزى إلى أن يتحول إلى وضع برنامج للسلام . ووقعت معاهدة للدفاع المتبادل مع فرنسا كمحاولة أخرى لاستعادة توازن القوى . . ولكن جنود الإمبراطور استولوا عام ١٥٢٧ على روما وأسروا البابا وبدا أن شارل

قد أصبح وقتذاك سيد القارة الذى لا يقهر ، وقضى على سياسة وازى القائمة على الصد والتوازن . وانضمت إنجلترا إلى فرنسا عام ١٥٢٨ فى الحرب ضد شارل .

وكان شارل ابن أخى كاثرين الأراجونية التى كان هنرى شديد الرغبة فى الطلاق منها ، وكان كليمنت السابع ، الذى يستطيع أن يمنحه لأسباب تتعلق بمصلحة الدولة ، أسيرا لشارل بشخصه وسياسته .

٤ ـ طلاق الملك

جاءت كاترين الأراجونية ، ابنة فرديناند وإيزابلا إلى إنجلترا عام ١٥٠١ ، وكانت فى السادسة عشرة من عمرها وتزوجت (١٤ نوفمبر) من أرثر البالغ من العمر خمسة عشر عاما ، وهو أكبر أبناء هنرى السابع . ومات أرثر فى اليوم الثانى من إبريل عام ١٥٠٢ وكان المفروض بوجه عام أن الزوج قد دخل بزوجته . ومن ثم أرسل السفير الأسبانى قياما بالواجب « أدلّة » إلى فرديناند ولم ينتقل لقب أرثر ، أمير ويلز رسميا إلى شقيقه الأصغر هنرى إلا بعد مرور شهرين على وفاة أرثر(٤٩). ولكن كاثرين أنكرت أن زوجها دخل بها . وقد أحضرت معها صداقا قدره ٢٠٠٫٠٠٠ دوكات (٥٫٠٠٠٫٠٠٠ دولار ؟) وكره هنرى السابع أن يدع كاثرين تعود إلى إسبانيا ومعها هذه الدوكات ، وتلهف على أن يجدد مصاهرته لفرديناند القـــوى فاقترح أن تتزوج كاثرين من الأمير هنرى على الرغم من أنها كانت تكبر الصبى بست سنوات . وكانت هنالك آية فى الكتاب المقدس (سفر اللاويين اصحاح ٢٠ : آية ٢١) تحرم هذا الزواج :

« وإذا أخذ رجل امرأة أخيه فذلك نجاسة . . . يكونان عقيمين » ومهما يكن من أمر فإن هناك آية أخرى تنص على خلاف ذلك : « إذا سكن إخوة معا ومات واحد منهم وليس له ابن . . . . . . أخو زوجها يدخل عليها ويتخذها لنفسه زوجة » . (سفر التثنية : اصحاح ٢٥ آية ٥) . واستنكر كبير الأساقفة وارهام الزواج المقترح ودافع عنه الأسقف فوكس الونشستري إذا أمكن الحصول على محلل من البابا للمانع من المصاهرة . وطلب هنري السابع الحصول على المحلل . فمنحه له البابا يوليوس (١٥٠٣) . وجادل بعض خبراء القانون الكنسي في حق البابا في التحلل من مبدأ نص عليه الكتاب المقدس[٥٠] وأكد البعض حقه في هذا ، أما يوليوس نفسه فقد راودته بعض الشكوك[٥١]. وأعلنت رسميا الخطبة ، وهي في الواقع زواج شرعي — عام ١٥٠٣ ، ولما كان العريس لا يزال في الثانية عشرة من عمره فحسب فقد أجلت المعاشرة . وفي عام ١٥٠٥ طلب الأمير هنري إعلان بطلان الزواج ، لأن أباه أكرهه[٥٢]عليه ولكنه أقنع بصحة الزواج على أساس أنه في مصلحة إنجلترا .

وفي عام ١٥٠٩ ، وبعد ستة أسابيع من ارتقائه العرش احتفل علنا بالزواج . وبعد سبعة شهور (٣١ يناير سنة ١٥١٠) أنجبت كاترين أول طفل لها ، وقد مات عند الولادة . وأنجبت بعد ذلك بعام ابنا وابتهج هنري بولادة وريث ذكر يصل به سلسلة نسب تيودور ، ولكن الطفل مات بعد بضعة أسابيع وسقط ابن ثان وثالث بعد الولادة مباشرة (١٥١٣ و ١٥١٤) . وبدأ هنري يفكر في الطلاق . أو بعبارة أدق في إعلان بطلان الزواج باعتباره غير صحيح . وحاولت كاترين المسكينة مرة أخرى وفي عام ١٥١٦ أنجبت طفلة قدر لها أن تكون الملكة ماري . وأذعن هنري وقال لنفسه : « إذا كانت هذه المرة ابنة فإن الأبناء سوف يجيئون بعدها[٥٣]»

بفضل الله ومنه . وفى عام ١٥١٨ أنجبت كاترين ابنا آخر ولد ميتا . واشتدت خيبة أمل الملك والبلاد لأن مارى البالغة من العمر عامين ، كانت قد خطبت إلى ولى عهد فرنسا ، وإذا لم يرزق هنرى بولد فإن مارى سوف ترث العرش الإنجليزى ، وعندما يصبح زوجها ملكا على فرنسا فإنه سيكون فى الواقع ملكا على إنجلترا أيضا ، وتصبح بريطانيا مقاطعة تابعة لفرنسا ، وكان دوقات نورفولك وبكنجهام تداعبهم الآمال فى أن يزيحوا مارى ويضمنوا التاج لأنفسهم ، وأطلق بكنجهام لسانه فاتهم بخيانة البلاد وقطع رأسه (١٥٢١) ، وعبر هنرى عن خوفه من أن يكون حرمانه من إنجاب ولد عقابا من الله لأنه استخدم محللا بابويا(٥٤) من وصية واردة فى الكتاب المقدس . وأقسم ليقودن حملة صليبية ضد الأتراك إذا أنجبت له الملكة ولدا . غير أن كاترين لم تحمل بعد ذلك . وما أن حل عام ١٥٢٥ حتى تخلى عن كل أمل فى الحصول على ذرية أخرى منها .

وكان هنرى منذ أمد بعيدقد فقد الميل إليها باعتبارها أنثى . وكان وقتذاك فى الرابعة والثلاثين ، أى فى عنفوان الرجولة الفتية ، وكانت فى الأربعين وتبدو أكبر من سنها . ولم تكن قط مغرية ، وألحق أن مرضها المتكرر ، أو ما صادفها من سوء الحظ ، قد شوه جسدها وأضفى على روحها قتامة . وكانت تبز النساء بثقافتها ودماثتها ولكن الأزواج قلما يرون أن التضلع فى العلم خلة محمودة فى الزوجة . وكانت زوجة صالحة مخلصة ، تحب زوجها حبا لا يفوقه إلا حبها لإسبانيا : وكانت ترى نفسها باعتبارها — وكانت كذلك لفترة ما — سفيرة لإسبانيا وكانت ترى أن إنجلترا يجب أن تقف دائماً فى صف فرديناند أو شارل : وفى حوالى عام ١٥١٨ اتخذ هنرى أول حظية له عرفها بعد الزواج وهى اليزابيث بلاوند شقيقة مونتجوى صديق ارازموس : وأنجبت له ابنا عام ١٥١٩ وأنعم هنرى على الصبى بلقب

دوق رتشموند وسومرست ، وفكر فى أن يقف وراثة العرش عليه . وفى عام ١٥٢٤ اتخذ حظية أخرى ، هى مارى بولين(٥٥) ، والحق أن سير جورج ثروكمورتون اتهمه فى وجهه بالزنا مع أم مارى أيضاً(٥٦). وكان هناك قانون غير مكتوب فى ذلك العهد ينص على أن الملك إذا ما تزوج لأسباب تتعلق بمصلحة الدولة ولم يكن ذلك باختياره ، فإن له الحق فى أن ينشد خارج الزواج الغرام الذى فقده فى المخدع الشرعى .

وفى عام ١٥٢٧ أو قبله حول هنرى فتنته إلى آن شقيقة مارى . وكان والدهما سير توماس بولين ، تاجرا دبلوماسيا حظى منذ وقت طويل بعطف الملك ، أما أمهما فكانت من آل هوارد ، وهى ابنة الدوق نورفولك . وأرسلت آن إلى باريس لإتمام دراستها فيها ، وهناك عملت وصيفة للملكة كلود ثم لمرجريت دى نافار ، ولعلها تشربت منها بعض النوازع البروتستانتية . وكان فى وسع هنرى أن يراها فتاة طروبا فى الثالثة عشرة من عمرها فى ميدان كاوث أف جولد ، وعندما عادت إلى إنجلترا وهى فى الخامسة عشرة من عمرها (١٥٢٢) أصبحت وصيفة للملكة كاترين . ولم تكن رائعة الجمال ، وكانت قصيرة القامة لها بشرة قاتمة وفم واسع ورقبة طويلة ، ولكنها خلبت لب هنرى وآخرين غيره بعينيها السوداوين البراقتين وشعرها البنى المسترسل ورشاقتها وذكائها ومرحها . وكان لها بعض العشاق المولهين بها ، ومنهم توماس ويات الشاعر ، وهنرى برسى ، الذى أصبح فيما بعد إيرل نور ثمبرلاند ، واتهمها أعداؤها فيما بعد بأنها كانت متزوجة فى السر من برسى قبل أن تضع أنظارها على الملك ، إلا أن الدليل لم يكن قاطعا(٥٧). ولا نعرف متى بدأ هنرى يطارحها الغرام وأقدم رسائل الحب الباقية التى كتبها لها ترجع فيما يرجح إلى يولية عام ١٥٢٧ .

ما هى العلاقة بين هذه القصة الغرامية والتماس هنرى الحكم ببطلان

زواجه ؟ مما لا جدال فيه أنه قد فكر فى هذا الأمر فى وقت يرجع إلى عام ١٥١٤ عندما كانت آن فتاة فى السابعة من عمرها . ويبدو أنه طرح الفكرة جانبا حتى عام ١٥٢٤ ، عند ما كف عن مباشرة علاقاته الزوجية مع كاترين ، وفقا لروايته(٥٨) . وأقدم إجراءات سجلت ببطلان الزواج اتخذت فى مارس عام ١٥٢٧ ، بعد تعرف هنرى بآن بوقت طويل ، وفى الوقت الذى حلت فيه محل شقيقتها فى أحضان الملك . والظاهر أن ولزى كان لا يعلم شيئاً عن أى نية للملك فى الزواج من آن عندما ذهب فى يوليو عام ١٥٢٧ إلى فرنسا لإعداد العدة للزواج بين هنرى ورينيه ، ابنة لويس الثانى عشر التى سرعان ما أثارت حركة بروتستانتيه فى إيطاليا . وأول إشارة لمـــا انتواه هنرى وردت فى خطاب أرسله يوم ١٦ أغسطس سنة ١٥٢٧ السفير الإسبانى إلى شارل الخامس يبلغه فيه أن هناك اعتقادا عاما فى لندن بأن الملك إذا حصل على « طلاق » فإنه سوف يتزوج « ابنة سير توماس بولين(٥٩) » ولم يكن هذا يعنى مارى بولين لأن هنرى وآن كانا يعيشان فى شقتين متجاورتين تحت نفس السقف فى جرينوتش(٦٠) عند حلول نهاية عام ١٥٢٧ . وقد نستنتج من هذا أن هنرى سارع بطلب بطلان الزواج على الرغم من أنه يصعب أن يقال إن السبب فى ذلك هو افتتانه بآن . وكان السبب الأساسى رغبته فى الحصول على ولد يمكن أن ينتقل إليه العرش مع شىء من الثقة فى خلافة هادئة . وكانت إنجلترا بأسرها تشاطره ذلك الأمل . وتذكر الناس فى فزع السنوات العديدة (١٤٥٤ — ٨٥) التى نشبت فيها الحرب بين بيتى يورك ولانكاستر على التاج ، ولم يكن قد مضى على ظهور أسرة تيودور غير اثنين وأربعين عاما فى سنة ١٥٢٧ ، وكان حقها فى العرش مشكوكا فيه ، ولم يكن فى وسع أحد أن يصل حبل الأسرة الحاكمة دون منازع إلا ولد شرعى ينحدر مباشرة من صلب الملك ، ولو لم يلتق هنرى قط بآن بولين فإنه كان قميناً

بأن يرغب فى الحصول على طلاق وزوجة ولود بصورة مقبولة : ولا شك أنه يستحق هذا .

واتفق ولزى مع الملك فى هذا الموضوع وأكد له أنه يمكن الحصول على قرار من البابا ببطلان الزواج ، وكانت سلطة البابا فى منح مثل هذا الانفصال أمر مقبول بوجه عام ، كإجراء حكيم لتلبية مثل هذه الضرورات الوطنية تماما ، ويمكن تقديم سوابق كثيرة . بيد أن تقدير الكاردينال المشغول لم يعمل حسابا لتطورين بغيضين : فهنرى لم يكن يريد ريليه بل كان يريد آن ، وبطلان الزواج سوف يصدر من بابا ، كان عند ما وصلته المشكلة ، أسيراً لإمبراطور ، كان لديه أكثر من سبب لمناصبة هنرى العداء . وربما كان شارل حريا بأن يعارض بطلان هـــذا الزواج ما دامت عمته تقاومه ، وكان يعارض أكثر لو عقد زواج جديد ، كما دبر ولزى ، بربط إنجلترا بحلف قوى مع فرنسا . ولم يكن السبب الأولى للإصلاح الدينى الإنجليزى هو جمال آن بولين الصاعد ، بل الرفض العنيد الذى بدا من كاترين وشارل فى إدراك عدالة رغبة هنرى فى الحصول على ولد . واشتركت الملكة الكاثوليكية مع الإمبراطور الكاثوليكى والبابا الأسير فى انفصال إنجلترا عن الكنيسة . ولكن السبب النهائى للإصلاح الدينى الإنجليزى لم يكن طلب هنرى بطلان الزواج بقدر ما كان من ارتفاع شأن الملكية الإنجليزية وبلوغها درجة من القوة جعلتها قادرة على أن ترفض التسليم بسلطة البابا فى التدخل فى شئون إنجلترا ، وتحكمه فى مواردها .

وأكد هنرى أن رغبته العارمة فى الحصول على بطلان الزواج إنما دعا إليها جبرييل دى جرامون الذى أقبل إلى إنجلترا فى فبراير عام ١٥٢٧ لمناقشة الزواج المقترح بين الأميرة مارى والأسرة الملكية الفرنسية . فقـــد أثار جرامون ، كما يروى هنرى ، سؤالاً عن شرعية بنوة مارى ،

على أساس أن زواج هنرى بكاترين قد يكون غير صحيح باعتباره مخالفة لأحد نواهى الكتاب المقدس ولا يستطيع البابا أن يمحوها . وظن البعض أن هنرى لفق القصة(٦١) ، ولكن ولزى رددها وأبلغت إلى الحكومة الفرنسية (٥٢٨) ، ولم ينكرها ، بقدر ما هو معروف جرامون ، وجاهد جرامون لإقناع كليمنت بأن طلب هنرى بطلان الزواج أمر عادل ، وأبلغ شارل سفيره فى إنجلترا (٢٩ يوليو سنة ١٥٢٧) أنه كان ينصح كليمنت برفض التماس هنرى .

وبينما كان ولزى فى فرنسا أبلغ على وجه التحديد بأن هنرى لا يرغب فى الزواج من رينيه بل يريد الزواج من آن . واستمر يعمل للحصول على البطلان ، ولكنه لم يخف اكتئابه بسبب اختيار هنرى : وتجاوز الملك حاجبه فى خريف عام ١٥٢٧ ، وبعث بكاتم سره وليام نايت لتقديم ملتمسين للبابا الأسير ، الأول يتضمن أن كليمنت ، إذ يتعرف على صحة زواج هنرى الذى تكتنفه الشكوك وافتقاره إلى ذرية من الذكور وكراهية كاترين للطلاق ، يجب أن يسمح لهنرى بالاحتفاظ بزوجتين . وأصدر الملك أمراً فى آخر لحظة أثنى نايت عن تقديم هذا الاقتراح ، وكانت جرأة هنرى قد خمدت ولا بد أنه ذهل ، عندما تلقى ، بعد ثلاث سنوات ، خطابا من جيوفانى كاسالى أحد وكلائه فى روما ، مؤرخا فى ١٨ سبتمبر سنة ١٥٣٠ يقول فيه : « منذ بضعة أيام اقترح على البابا سراً أن يأذن لجلالتك باتخاذ زوجتين(٦٢) » . وكان ملتمس هنرى الثانى لا يقل غرابة ، على البابا أن يمنحه محللاً للزواج من امرأة كان للملك علاقات جنسية مع أختها(٦٣) . ووافق البابا على هذا بشرط أن يعلن بطلان الزواج بكاترين إلا أنه لم يكن على استعداد لإعلان بطلان هذا الزواج . وكان كليمنت لا يخشى شارل فحسب بل كان ينفر من القاعدة التى تقضى بأن أحد

للبابوات السابقين قد ارتكب خطأ جسيما بإعلان صحة الزواج . وتلقى فى نهاية عام ١٥٢٧ ملتمسا ثالثا — بأنه يجب أن يعين ولزى قاصداً رسوليا آخر لعقد محكمة فى إنجلترا تسمع الدليل وتحكم بصحة زواج هنرى بكاترين . وأذعن كليمنت (١٣ إبريل سنة ١٥٢٨) ، وعين الكاردينال كامبيجيو لعقد جلسة مع ولزى فى لندن ووعد — فى منشور بابوى لا يطلع عليه سوى ولزى وهنرى — أن يؤيد أى قرار يتخذه المندوبان البابويان(٦٤) . وربما كان لانضمام هنرى إلى فرانسيس (يناير سنة ١٥٢٨) فى إعلان الحرب على شارل وتعهدهما بتحرير البابا قد أثر فى إذعان البابا .

واحتج شارل وأرسل إلى كليمنت نسخة من وثيقة ادعى أنها وجدت فى المحفوظات الإسبانية ، وفيها أكد يوليوس الثانى صحة المحلل الذى اقترح هنرى وولزى بطلانه . وتعجل البابا ، وهو لا يدرى ما يفعل ولا يزال أسيراً لشارل ، فأرسل تعليمات إلى كامبيجو بألا ينطق بحكم قبل أن يحصل على تفويض صريح من الآن فصاعدا . . . فإذا ألحق بالإمبراطور ضرر كبير ، فإن كل أمل فى السلام العالمى يكون قد تبدد ولا تستطيع الكنيسة أن تنجو من الخراب التام لأنها تخضع خضوعا كاملا لسلطان أتباع الإمبراطور . . أجل بقدر الإمكان(٦٥)» .

وعند وصول كامبيجيو إلى إنجلترا (أكتوبر سنة ١٥٢٨) حاول أن يحصل على موافقة كاترين بالاعتزال فى دير للراهبات ، فوافقت بشرط أن يحلف هنرى أيمان الرهبان . ولكن لم تكن هناك أمور أبعد عن ذهن هنرى من الفقر والخضوع والعفة ، ومهما يكن من أمر فإنه اقترح أن يحلف هذه الأيمان إذا وعد البابا يحله منها عند الطلب ورفض كامبيجيو أن ينقل هذا الاقتراح إلى البابا وأبلغه بدلا من ذلك (فبراير سنة ١٥٢٩) بعزم الملك على الزواج من آن . وكتب يقول : « إن هذه العاطفة أمر خارق للعادة أنه لا يرى شيئاً ولا يفكر فى شيء سوى حبيبته آن ، إنه

لا يستطيع أن يستغنى عنها ساعة واحدة . وإنى لأشعر بالإشفاق عليه عندما أرى أن حياة الملك واستقرار وسقوط البلاد بأسرها تتوقف على هذه المسألة وحدها(٦٦)» .

وحدثت تغيرات فى الموقف الحربى جعلت البابا يتحول أكثر فأكثر ضد اقتراح هنرى . وفشل الجيش الفرنسى ، الذى كان هنرى قد ساعده بتمويله ، فى حملته الإيطالية ، وترك البابا فى حالة اعتماد كلى على الإمبراطور : وطردت فلورنسا حكامها من آل مديتشى — وكان كليمنت مخلصا لتلك العائلة مثله فى ذلك مثـــل شارل الذى كان مخلصا لآل هابسبورج .

وانتهزت (فينيسيا) البندقية فرصة عجز البابا لكى تنتزع رافنا من الولايات البابوية ، فمن كان وقتذاك يستطيع أن ينقذ البابوية سوى آسرها ؟ وقال كليمنت لقد استقر رأيى تماما على أن أصبح من أنصار النظام الإمبراطورى ، وسوف أعيش وأموت وأنا متمسك بهذا الرأى(٦٧) » . ووقع فى التاسع والعشرين من يونيه معاهدة برشلونه ، وبمقتضاها وعد شارل بإعادة فلورنسا لآل مديتشى ورافنا للبابوية والحرية لكليمنت ، ولكن على شريطة ألا يوافق كليمنت مطلقا على بطلان زواج كاترين إلا برضا كاترين وإرادتها الحرة .

ووقع فرانسيس الأول فى الخامس من أغسطس معاهدة كامبراى التى سلمت فى الواقع إيطاليا والبابا للإمبراطور .

وفى ٣١ مايو افتتح كامبيجيو مع ولزى المحكمة المختصة بالقاصد الرسولى للنظر فى الالتماس المقدم من هنرى ، بعد أن أجل افتتاحها لأطول مدة ممكنة . واستغاثت كاترين بروما ، وأبت أن تعترف باختصاص المحكمة . ومهما يكن من أمر فإن كلا من الملك والملكة حضرا يوم ٣١ يونيه ،

وخرت كاترين على ركبتيها أمامه وتوسلت إليه بكلمات مؤثرة أن يستأنفا حياتهما الزوجية . وذكرته بأعمالها الكثيرة وإخلاصها التام ، وصبرها على لهوه خارج الأسوار ، وأقسمت أن الله يشهد على أنها كانت عذراء عندما تزوجها هنرى ، وتساءلت أى شيء صنعته أساءت به إليه(٦٨) ؟ فأنهضها هنرى وأكد لها أنه لم يكن هناك ما يتمناه بحماسة أكثر من التوفيق فى زواجهما وأوضح لها أن الأسباب التى حملته على طلب الانفصال ليست شخصية، بل أملتها عليه مصلحة الأسرة المالكة والأمة . ورفض استغاثتها بروما على أساس أن الإمبراطور يسيطر على البابا ، فانسحبت وهى تبكى ، ورفضت أن تشترك بعد ذلك فى الإجراءات القضائية . وتكلم الأسقف فيشر مدافعا عنها ومن ثم اكتسب عداوة الملك . وطالب هنرى بصدور قرار واضح من المحكمة وتحايل كامبيجيو على المماطلة فى إصدار الحكم وأخيراً (٢٣ يوليه سنة ١٥٢٩) أجل المحكمة إلى العطلة الصيفية . وألغى كليمنت القضية وحولها إلى روما لكى يجعل التردد أشد حسما .

واستشاط هنرى غضبا وشعر بأن كاترين عنيدة بصورة غير معقولة ، فرفض أن تربطه بها أية علاقة بعد ذلك ، وأخذ يقضى ساعات لهوه علنا مع آن . وربما ترجع إلى هذه الفترة معظم رسائل الحب السبع عشرة التى نقلها كامبيجيو سرا من إنجلترا(٦٩) والتى تحتفظ بها مكتبة الفاتيكان بين ذخائرها الأدبيـــة . ويبدو أن آن المجربة التى خبرت أساليب معاملة الرجال والملوك لم تمنحه إلا تشجيعاً ودغدغة تثير عواطفـــه ، وشكت وقتذاك من أن شبابها يضيع فى الوقت الذى يتوانى فيه الكرادلة الذين لم يستطيعوا أن يدركوا رغبة عذراء فى الظفر برجل ميسور من حقا بحق هنرى فى أن يتوج الرغبة برباط الزواج . ولامت ولزى لأنه لم يتعجل البت فى طلب هنرى بعزم أشد وبلاغ أسرع ، وشاركها الملك استياءها .

وقد بذل ولزى كل ما فى وسعه وإن كان يعارض الأمر بكل جوارحه ؛ وكان قد أرسل بالمال إلى روما لرشوة الكرادلة(٧٠) ولكن شارل كان قد أرسل بدوره مالا وجيشا علاوة على هذا . بل إن الكاردينال كان قد أغضى عن فكرة التزوج من اثنتين(٧١) كما فعل لوثر بعد بضع سنوات . ومع ذلك عرف ولزى أن آن وأقرباءها من ذوى النفوذ يقومون بمناورة لإسقاطه . وحاول أن يهدئ من ثائرتها بالأطعمة اللذيذة والهدايا الثمينة ، غير أن عداءها كان يزداد كلما طال العهد على إصدار قرار ببطلان الزواج . وتحدث عنها فقال : « إنها العدو الذى لم تكتحل عيناه قط بالنوم ، ولم يكف عن الدرس والتصور معا ، فى النوم واليقظة على السواء ، للقضاء المبرم عليه(٧٢) » . وتنبأ بأن البطلان لو منح فإن آن سوف تصبح ملكة وتقضى عليه ، وأنه لو لم يمنح ذلك القرار فإن هنرى سوف يستغنى عنه باعتباره رجلا فاشلا . ويطالب محاسبته على إدارته ، حسابا ماليا دقيقا مفصلا .

وكان لدى الملك أسباب كثيرة لعدم الرضا عن حاجبه ، فقد فشلت السياسة الخارجية وأثبت أن التحول من صداقة شارل إلى الحلف مع فرنسا قد أدى إلى عواقب وخيمة :

ولم يكن فى إنجلترا وقتذاك امرؤ يقول كلمة طيبة فى صالح الكردينال الذى تمتع يوما بسلطة مطلقة ، فقد كان رجال الدين يكرهونه بسبب حكمه المطلق ، وكان الرهبان يخشون أن يشهدوا مزيدا من حل الأديار ، والعامة يبغضونه لأنه أخذ أبناءهم وأموالهم لشن حروب لا طائل من ورائها ، والتجار يمقتونه لأن الحرب مع شارل عاقت تجارتهم مع الفلاندرز ، والأشراف يكرهونه بسبب ما انتزعه منهم ظلما ، ولكبريائه

الطارئة وثروته التي تضاعفت سريعاً . وأبلغ بعض الأشراف السفير الفرنسي (١٧ أكتوبر سنة ١٥٢٥) بقولهم إنهم « ينوون » عندما يموت ولزى أو يقضى عليه أن يتخلصوا من الكنيسة ويتلقوا أموال الكنيسة وولزى معا[٧٣] » ، واقترح القماشون في كنت أن يوضع الكردينال في قارب يتسرب منه الماء ، ويترك لتتقاذفه الأمواج في البحر[٧٤].

وكان هنرى أشد دهاء . وفي اليوم التاسع من أكتوبر سنة ١٥٢٩ أصدر أحد وكلائه أمرا قضائياً باستدعاء ولزى للمثول أمام قضاة الملك ، للرد على اتهام بأن أعماله كقاصد رسولي قد خالفت قانون الخضوع لسلطة التاج (١٣٩٢) ، الذي يقضى بمصادرة أموال أي إنجليزي يأتي بالكتب البابوية إلى إنجلترا . ولم يختلف الموقف لأن ولزى كان قد كفل سلطة القاصد الرسولي بناء على طلب الملك[٧٥] ، وأنه استخدمها بخاصة لصالح الملك ، وأدرك ولزى أن قضاة الملك سوف يدينونه فأرسل إلى هنرى امتثالا ذليلا ، يعترف بفشله ويلتمس أن يتذكر الملك أيضاً خدماته وآيات ولائه . ثم غادر لندن في نقالة مائية سارت في نهر التيمس . وتلقى في بوتني رسالة رقيقة من الملك . وجثا على الطين في شكر بائس وحمد الله . واستولى هنرى على المحتويات الثمينة في قصر الكاردينال في هويتهول إلا أنه سمح له بالاحتفاظ بمنصب رئيس أساقفة يورك وبأموال شخصية تكفي احتياجات ١٦٠ جوادا تجر ٧٢ عربة إلى مقره الأسقفي[٧٦]. وخلف الدوق نورفولك ولزى في رئاسة الوزارة وخلفه مور في منصب الحاجب (نوفمبر سنة ١٥٢٩) .

وأقبل الكاردينال الذى جرد من سلطانه ، على عمله ، ككبير أساقفة ، في ورع ومثالية ، وأخذ يزور أبرشياته بانتظام ويدبر ترميم الكنائس ،

ويعمل قاضيا موثوقا به للتحكيم . وتساءل رجل من يوركشاير : « من كان أقل نصيبا من الحب فى الشمال من مولاى الكاردينال قبل أن يعيش بينهم ؟ ومن كان محبوبا أكثر بعد أن عاش هناك فترة ما(٧٧) ؟ » بيد أن الطموح استيقظ فى أعماقه مرة أخرى وسكن روحه من الموت وكتب خطابات ليوستاس شابويس سفير الإمبراطور فى إنجلترا ، وضاعت هذه الخطابات ، بيد أن هناك تقريراً من شابويس إلى شارل ورد فيه : « لدى خطاب من طبيب الكاردينال يقول إن سيده . . رأى أن على البابا أن يمضى قدما فى إجراءات لوم أشد ويستدعى الجيش العلمانى(٧٨) » . أى الحرمان من غفران الكنيسة والغزو والحرب الأهلية .

وعلم نورفولك بهذه الرسائل المتبادلة وقبض على طبيب ولزى وانتزع منه ، بوسائل لم تعرف على وجه التحقيق ، اعترافا بأن الكردينال قد أشار على البابا بحرمان الملك من غفران الكنيسة . ولا نعرف هل كان السفير أو الدوق هو الذى أبلغ صدقا عن الطبيب ، أو هل كان الطبيب هو الذى أبلغ حقا عن الكاردينال ، وعلى أية حال فإن هنرى أو الدوق أمر بالقبض على ولزى .

واستسلم فى هدوء (٤ نوفمبر سنة ١٥٣٠) وودع أسرته وانطلق إلى لندن . وأصيب فى شفيلد بارك بدوسنطاريا شديدة ألزمته الفراش . وهناك أقبل جنود الملك يحملون أوامر باقتياده إلى البرج . واستأنف رحلته ، ولكن بعد مضى يومين من الركوب بلغ من الضعف حدا جعل حارسه يسمح له بأن يلزم الفراش فى دير ليسيستر . وغمغم أمام ضابط الملك سير وليام كنجستون بالكلمات التى نقلها كافنديش واقتبسها شكسبير « لو أننى خدمت الله بإخلاص وجد كما خدمت الملك لما أسلمنى فى شيخوختى(٧٩) » . ومات ولزى بالغا من العمر خمسة وخمسين عاما فى دير ليسيستر يوم ٢٩ نوفمبر سنة ١٥٣٠ .

الفصل الرابع والعشرون

هنرى الثامن وتوماس مور

١٥٢٩ — ٣٥

١ — برلمان الإصلاح الدينى

فى المجلس النيابى الذى اجتمع فى وستمنستر يوم ٣ نوفمبر سنة ١٥٢٩ اتفقت الجماعتان الحاكمتان — النبلاء فى المجلس ، والتجار فى مجلس العموم على انتهاج ثلاثة ضروب من السياسة : تخفيض ثروة رجال الكنيسة وإضعاف سلطانهم ، والمحافظة على التجارة مع الفلاندرز وتأييد الملك فى حملته للحصول على وريث ذكر . ولم ينطو هذا الاتفاق على الرضا عن آن بولين التى كانت تواجه باستنكار عام باعتبارها مغامرة ، كما أنه لم يمنع وجود تعاطف عام مع كاترين[1] . أما الطبقات الدنيا ، وهى عاجزة من الناحية السياسية ، فكانت حتى ذلك الوقت لا توافق على الطلاق ، ووقفت المقاطعات الشمالية ، وهى كاثوليكية شديدة التحمس ، مع البابا[2] فى إخلاص . وعمل هنرى على تهدئة هذه المعارضة مؤقتا بأن ظل محافظا فى كل شىء اللهم إلا حق البابوات فى الهيمنة على الكنيسة الإنجليزية .

وكانت الروح القومية ، وهى فى إنجلترا أقوى منها فى ألمانيا ، تقف فى تلك المسألة إلى جانب الملك ، وعلى الرغم من فزع رجال الدين من تصور أن يكون هنرى سيداً لهم فإنهم لم ينفروا من الاستقلال عن بابوية لا شبهة فى خضوعها لسلطة أجنبية »

ونشر سيمون فش حوالى عام ١٥١٨ كتيبا من ست صفحات ، قرأه هنرى ، دون أن يبدى احتجاجا فيما نعلم ، وقرأه كثيرون بابتهاج

صادق . وأطلق عليه اسم « ابتهال الشحاذين » وطالب الملك بمصادرة ثروة الكنيسة الإنجليزية كلها أو جانب منها :

« فى العهود الخوالى لأسلافك النبلاء (هناك) تسلل فى دهاء إلى مملكتك . . شحاذون وأفاقون مقدسون ومتبطلون . . أساقفة ورؤساء أديار وشمامسة ورؤساء شمامسة ومعاونو أساقفة وقساوسة ورهبان ورجال دين وكهنة رهبان وبائعو صكوك غفران ومحضرون . ومن يستطيع أن يحصى هذا الضرب المتبطل المخرب الذى (طرح كل عمل جانبا) ألح فى السؤال إلحاحاً شديداً إلى حد أنهم حصلوا فى أيديهم على أكثر من ثلث مملكتك بأسرها ؟ إن أعظم المقاطعات وأجمل الدور والأراضى والأقاليم ملك لهم . وكان لهم إلى جانب هذا عشر محصول الغلة والمراعى والمروج والكلأ والصوف والمهور والعجول والحملان والخنازير والأوز والدجاج . . . أي نعم وإنهم ليتطلعون في حرص شديد إلى أرباحهم إلى حد أن الزوجات المسكينات لا بد وأن يكن مطالبات بأن يحسبن عشر كل بيضة وإلا فإن الزوجة لن تحصل على حقوقها فى عيد الفصح . . . ومن التى تشرع فى العمل مقابل ثلاثة بنسات فى اليوم إذا كان فى وسعها أن تحصل على عشرين بنسا على الأقل فى اليوم لقاء نومها ساعة مع أخ أو راهب أو قس[٣] ؟

ولعل النبلاء والتجار قد رأوا أن هناك شيئاً من المبالغة فى هذا الاتهام ، بيد أنهم اعتقدوا أنه يؤدى إلى نتيجة سارة — وهى إضفاء الصبغة العلمانية على أملاك الكنيسة ، وكتب السفير الفرنسى جان دى بلاى « إن هؤلاء السادة ينتوون » ، اتهام الكنيسة والتهام كل أموالها ، ولا أكاد أجد نفسى فى حاجة إلى تسجيل هذا بالشفرة ، لأنهم يجهرون به صراحة ، وأتوقع ألا يحصل القساوسة أبدا على خاتم الدولة — أى لن يكونوا على رأس الحكومة أبدا ، مرة أخرى ، وأنهم سوف يتعرضون فى هذا المجلس

النيابي لمفازع هائلة(٤)» . وكان ولزى قد منع هذا الهجوم على أملاك الكنيسة ، بيد أن سقوطه ترك رجال الدين بلاحول لهم ولا طول ، اللهم إلا ما يتمتعون به من إيمان الناس ، وهو إيمان كان آخذاً فى التقلص ، ولعل السلطة البابوية التى كانت قمينة بأن تحميهم بهيبتها أو تحريمها أو بحلفائها كانت وقتذاك الهدف الرئيسى لسخط الملك وكرة القدم التى تتقاذفها السياسة الإمبراطورية ، وكان العرف يقتضى موافقة المجمع الاكليروسى لرؤساء أساقفة كنتربرى ويورك على كل تشريع يمس الكنيسة ' إنجلترا أو تأييده . فهل كان فى وسع هذا المجمع تخفيف سورة غضب الملك وكبح جماح الحركة المناهضة لرجال الدين فى المجلس النيابى ؟

وافتتح المعركة مجلس العموم . إذ وجه خطابا إلى الملك يقر فيه عقيدة المحافظين ، وإن انتقد رجال الدين بشدة . وهاجم « قرار الاتهام » المشهور المجمع الاكليروسى واتهمه بأنه سن القوانين ، دون الحصول على موافقة الملك أو المجلس النيابى ، التى تحدد حرية العلمانيين تحديداً خطيراً ، وتعرضهم لتعزير شديد ، وغرامات باهظة ، واتهم رجال الاكليروس بأنهم أعطوا صدقات لـ « جموع من الأحداث ، قالوا إنهم أبناء إخوتهم » على الرغم مما يتمتع به مثل هؤلاء المستفيدين من شباب أو جهل ، واتهم المحاكم الأسقفية بأنها استغلت فى جشع حقها فى فرض رسوم وغرامات ، وهذه المحاكم بأنها قبضت على أشخاص وسجنتهم دون أن تبين التهم الموجهة إليهم ، وأنها اتهمت العلمانيين وعاقبتهم عقابا شديداً لشبهة هرطقة طفيفة واختتمت الوثيقة بمطالبة الملك بإصلاح هذه العلل(٥)، ولا شك فى أن هنرى الذى كان على علم بأسرار تأليف هذا الخطاب قدم نقاطه الرئيسية إلى المجمع الاكليروسى وطلب منه الرد .

وأقر الأساقفة وجود بعض الظلم وعزوا هذا إلى أفراد ظهروا اتفاقاً ، وأكدوا تمسك محاكمهم بالعدالة ، وأنهم يتأسون بالملك الورع الذى زجر لوثر فى نبل عظيم ، لمساعدتهم على قمع الهرطقة ، ثم أخطأوا خطأ فظيعاً وأساءوا فهم المزاج الملكى فأضافوا كلمات كانت بمثابة إعلان للحرب .

ما دمنا نعلن ونتمسك بساطتنا فى سن القوانين التى تستند إلى ما فى كتب الله المقدسة وما قررته الكنيسة المقدسة . . . فليس لنا أن نتخلى عن أعبائنا وواجباتنا ، ، التى أمرنا بها الله على وجه التأكيد ونتركها لرضاك السامى ، ومن ثم نلتمس من مراحمكم بكل خضوع . . . أن تحافظوا على هذه القوانين والشرائع وأن تدافعوا عنها مثلنا . . . وأن يعمل بتفويض من الرب إجلالا له تعالى على دعم الفضيلة والحفاظ على عقيدة المسيح(٦) »

وعلق موضوع النزاع . ولم يواجهه هنرى فى الحال . وكان أول ما اهتم به هو الحصول على موافقة المجلس النيابى على طلب عجيب ـ أن يعفى من سداد القروض التى قدمها له رعاياه(*) . واحتج أعضاء مجلس العموم ثم وافقوا : وقدمت ثلاثة مشروعات أخرى بقوانين تستهدف كبح جماح سلطة رجال الاكليروس على الوصايا التى تم الإشهاد عليها وتقاضيهم رسوماً على الموتى واحتفاظهم بالصدقات المتعددة ، وحظيت هذه المشروعات بقوانين بموافقة أعضاء مجلس العموم ، وعارضها بشدة الأساقفة ورؤساء الأديار وأصحاب المقاعد فى مجلس اللوردات ، وقد عدلت ، ولكنها أصبحت فى جوهرها قوانين نافذة ، وتأجل انعقاد المجلس النيابى إلى يوم ١٧ ديسمبر .

وتلقى الملك إبان صيف عام ١٥٣٠ شيئا من التشجيع الغالى ، إذ اقترح توماس كرانمر ، أستاذ اللاهوت فى جامعة كمبردج ، على هنرى ، أن تبدى

(*) ان انخفاض قيمة العملة الآن يغنى الحكومات من الالتجاء إلى مثل هذه اللصوصية الشريفة .

الجامعات الكبرى فى أوربا رأيها فى موضوع هو هل كان فى وسع البابا أن يسمح لرجل بالزواج من أرملة شقيقه . وأعقب هذا الاقتراح مباراة مرحة فى التنافس على الرشوة : ونثر وكلاء هنرى المال للتحريض على إصدار أحكام سلبية ، ولجأ وكلاء شارل إلى المال أو التهديد للحصول على ردود إيجابية[٧] ، وانقسمت ردود الجامعات الإيطالية ، ورفضت الجامعات اللوثرية تقديم أى رد مريح للمدافع عن العقيدة ، بيد أن جامعة باريس ، تعرضت لضغط من فرانسيس[٨] فقدمت الرد العزيز المنشود الذى كان يتلهف عليه . ووافقت جامعتا أكسفورد وكامبردج ، بعد أن تسلمتا رسائل صارمة من الحكومة ، على حق الملك فى الحصول على قرار بطلان زواجه .

وعندما شعر بدعم مركزه إلى هذا الحد ، أصدر عن طريق وكيله العام (ديسمبر سنة ١٥٣٠) إعلانا بأن الحكومة تعتزم رفع دعاوى ضد كل رجال الاكليروس الذين اعترفوا بسلطة ولزى قاصدا رسوليا ، وعلى أساس أنهم خالفوا قانون الولاء للتاج . وعندما عاد المجلس النيابى والمجلس الاكليروسى للانعقاد (١٦ يناير سنة ١٥٣١) أعلن وكلاء الملك وهم سعداء أن الدعاوى سوف تسحب إذا اعترفوا بأنهم مذنبون ودفعوا غرامة قدرها ١١٨,٠٠٠ جنيه (١١,٨٠٠,٠٠٠ دولار ؟)[٩] . فاحتجوا بأنهم لم يرغبوا قط فى أن يكون لولزى مثل هذا السلطان وأنهم لم يعترفوا به قاصدا رسوليا إلا لأن الملك قد فعل هذا بتقديم التماسه للنظر أمام محكمة ولزى وكامبيجيو . وكانوا على حق كامل بالطبع ، بيد أن هنرى كان فى حاجة ماسة إلى المال . ووافقوا ، وهم يولولون ، على سداد المبلغ من موارد أبرشياتهم . واستخف الطرب الملك فطالب وقتذاك بأن يعترف به رجال الاكليروس « حاميا للكنيسة ورجال الدين فى انجلترا والرئيس الأعلى الوحيد لهم » أى أن ولاءهم للبابا لا بد أن ينتهى وعرضوا اثنتى عشرة مصالحة وجربوا اثنتى عشرة عبارة مبهمة ، وكان هنرى قاسيا لا يرحم ، وأصر على أن يردوا بكلمة « نعم »

أو « لا » . وأخيراً (١٠ فبراير سنة ١٥٣١) عرض رئيس الأساقفة واهرام ، وكان وقتذاك فى الحادية والثمانين ، فى تبرم ، إقرار صيغة الملك وأضاف إليها عبارة فيها تحفظ « بقدر ما تسمح شريعة المسيح » ، وسكت المجلس الاكليروسى ، واعتبر السكوت رضا ، وأصبحت الصيغة قانونا . وهدأت ثائرة الملك ، فسمح عندئذ للأساقفة بمطاردة الهراطقة .

وتأجل اجتماع المجلس النيـــابى والمجلس الاكليروسى مرة أخرى (٣٠ مارس سنة ١٥٣١) : وفى يوليو ترك هنرى كاترين فى وندسور على ألا يراها أبدا مرة أخرى ؛ وسرعان ما نقلت بعد ذلك إلى امبتهل بينما أقامت الأميرة مارى فى رتشموند وطالب هنرى بالجواهر التى كانت قد ارتدتها كاترين بصفتها ملكة وأعطاها لآن بولين(١٠) واحتج شارل الخامس لدى كليمنت الذى وجه خطابا قصيرا للملك (٢٥ يناير سنة ١٥٣٢) يؤنبه فيه لاقترافه الزنا ، ويحضه على طرد آن والاحتفاظ بكاترين ملكة شرعية إلى أن يصدر قراراً فى الالتماس المقدم منه لإعلان بطلان الزواج . وتجاهل هنرى التأنيب واستمر فى غرامه . وكتب حوالى هذا الوقت إحدى رسائله الرقيقة لآن :

حبيبة قلبى ، أكتب لك هذا لأعرب عن الوحدة التى أعيش فيها هنا منذ فراقك ، لأنى أؤكد لك أنى أرى الوقت قد أصبح منذ رحيلك أطول مما تعودت أن أراه مدى أسبوعين كاملين ، وأعتقد أن رقتك وحرارة حبى هما السبب . . ولكنى أفكر الآن وأنا قادم إليك ، وآلامى قد خف نصفها ، فى أن يتحقق أملى فى أمسية خاصة بين أحضان حبيبتى التى سوف أركن قريبا إلى نهديها الجميلين وأقبلهما . كتبته يد من كان ولا يزال لك وسوف تظل معك على الدوام بإرادته .

وعندما انعقد المجلس النيابي والمجلس الاكليروسي مرة أخرى (١٥ يناير سنة ١٥٣٢) حصل هنرى من المجالس الأربعة جميعاً على تشريع آخر مناهض لرجال الاكليروس ينص على : أن رجال الدين دون درجة مساعد شماس ، يجب أن يحاكموا أمام المحاكم الدينية عند اتهامهم بالخيانة العظمى ، وأن الرسوم والغرامات التي تتقاضاها المحاكم الكنسية يجب أن تخفض ، وأن الرسوم الكنسية على الموتى ورسوم التثبت من صحة الوصايا يجب أن تخفض أو تلغى ، وأن موارد السنة الأولى لأسقف حديث التعيين يجب ألا تدفع بعد ذلك للبابا وأن تحويل الأموال الإنجليزية إلى روما من أجل محللات وصكوك غفران وخدمات بابوية أخرى يجب أن يتوقف ، وأرسلت إشارة ماكرة إلى المجلس البابوى بأن موارد السنة الأولى للأسقف حديث التعيين سوف ترد إلى البابا إذا أعلن بطلان الزواج بكاترين .

وفى هذا الوقت انحازت غالبية من الأساقفة إلى الرأى القائل بأنهم لن يفقدوا شيئا من السلطة أو الدخل إذا استقلت الكنيسة الإنجليزية عن روما . وفى مارس سنة ١٥٣٢ أعلن المجلس الاكليروسي استعداده للانفصال عن البابوية : « هلا تفضلتم يا صاحب السمو بوقف أعمال الاغتصاب الظالمة المذكورة . . . وإذا اتخذ البابا إجراء ضد هذه المملكة للحصول على موارد السنة الأولى للأساقفة حديثى التعيين . . . فلتتفضلوا سموكم بسن قانون من المجلس النيابي الحالى بسحب طاعة سموكم والشعب للكرسى البابوى فى روما(١٢) » . وفى ١٥ مايو قدم المجلس الاكليروسي تعهداً للملك بتقديم كل تشريع تال له إلى لجنة ــ نصفها من العلمانيين والنصف الثانى من رجال الإكليروس ــ لها الحق فى الاعتراض على أى قوانين ترى أنها ضارة بالمملكة . وهكذا ولدت كنيسة إنجلترا فى هذا « الإصلاح النيابي » الأسقفى وهذا المجلس الإكليروسى وأصبحت خاضعة للدولة وتابعة لها .

وفى ١٦ مايو استقال توماس مور من منصب الحجابة بعد أن فشل فى الوقوف أمام التيار المناهض لرجال الإكليروس وانسحب إلى بيته . ومات رئيس الأساقفة واهرام فى أغسطس بعد أن أملى وهو على فراش الموت رسالة أبدى فيها رفضه لخضوع المجلس الإكليروسى للملك . واستبدل هنرى بتوماس مور توماس أودلى ، وبواهرام ، توماس كرانمر . ومضت الثورة قدماً . وأجاز المجلس النيابى « قانون الاستئناف »، وبمقتضاه كان كل نزاع أرسل سابقاً إلى روما للفصل فيه يحسم « فى المحاكم الروحية والزمنية داخل المملكة دون اعتبار ،لأى منع أو حرمان من غفران الكنيسة أو تحريم يصدر من جهة أجنبية[١٣] » .

وفى ١٥ يناير سنة ١٥٣٣ تزوج هنرى من آن التى كانت حاملا منذ أربعة شهور[١٤]. وكان لدى الملك وقتذاك أسباب ملحة لإعلان بطلان زواجه من كاترين ، ولما كان قد بعث بطلب آخر للبابا دون أن يؤدى إلى نتيجة ، فقد حصل من المجلس الإكليروسى على موافقة على « طلاقه » (إبريل سنة ١٥٣٣) وفى ٢٣ مايو أعلن كرانمر بصفته رئيس أساقفة كنتربرى أن الزواج بكاترين مخالف للشريعة وباطل ، وفى يوم ٢٨ مايو أعلن أن آن زوجة شرعية لهنرى . وركبت آن بعد ثلاثة أيام وهى ترتدى الديباج وتتزين بالجواهر لكى تتوج ملكة لإنجلترا فى احتفال ملكى مهيب ، وضعت تصميمه التقاليد وهانز هولبين الصغير . ولاحظت وسط مظاهر الابتهاج صمت الجماهير الدال على الاستنكار ، ولعلها تساءلت إلى متى يحمل رأسها القلق التاج ؟

وأعلن البابا كليمنت بطلان الزواج الجديد ؛ وأن الأولاد الذين سيكونون ثمرة له غير شرعيين ، وحرم الملك من غفران الكنيسة (٢٢ يوليو سنة ١٥٣٣)

وولدت اليزابث يوم ٧ سبتمبر وأبلغ سفير شارل مولاه أن حظية الملك أنجبت ابنة سفاح[١٥] .

واستأنف المجلس النيابي ، الذي كان قد أجل يوم ٤ مايو جلساته في ١٥ يناير سنة ١٥٣٤ . وكانت موارد الأساقفة الجدد في السنة الأولى والموارد البابوية الأخرى قد خصصت نهائياً وقتذاك للتاج ، وأصبح تعيين الأساقفة امتيازاً للملك من الناحية القانونية ، كما جرى العمل به فعلا . ونقلت دعاوى الاتهام بالهرطقة من القضاء الكنسي إلى القضاء المدني .

وفي عام ١٥٣٣ أذاعت اليزابث بارتون وهي راهبة من كنت أنها تلقت أوامر من الرب بإدانة الزواج الثاني للملك ، وأنها قد سمح لها برؤية المكان الذي يعد لاستقبال هنري في الجحيم . وعرضتها المحكمة الملكية لاختبار قاس ، وانتزعت منها اعترافاً بأن رؤاها الإلهية كانت إفكاً وخداعاً ، وأنها سمحت لآخرين باستخدامها في مؤامرة للإطاحة بالملك[١٦] . وحوكمت هي وستة « شركاء في الجريمة » أمام مجلس اللوردات وقضى عليهم بالإدانة ، ونفذ فيهم حكم الإعدام (٥ مايو سنة ١٥٣٤) ، واتهم الأسقف فيشر بأنه علم بالمؤامرة وتقاعس عن تحذير الحكومة ، واتهم أيضاً بأنه كان هو وكاترين مطلعين على أسرار خطة وضعها شابويس ولم يشجعها شارل ، لغزو إنجلترا في الوقت الذي يقوم فيه أنصار كاترين بالتمرد[١٧] . وأنكر فيشر التهم الموجهة إليه ، ولكنه ظل موضع الاشتباه بالخيانة .

وكان توماس كرومويل أشد وكلاء هنري العدوانيين في هذه الأمور . وقد ولد عام ١٤٨٥ ، وهو ابن حداد من بوتني ، ونشأ في فقر ومسغبة ، ومضى يضرب سنوات في أرض فرنسا وإيطاليا أفاقاً بالفعل ، وعاد إلى انجلترا واشتغل بصناعة النسيج وأصبح مرابياً وكون ثروة ، وخدم ولزي بإخلاص خمس سنوات ، ودافع عنه في أيام البؤس ، واكتسب احترام

هنرى بسبب صناعته وولائه . وعين على التوالى حاجباً لخزانة الدولة وأميناً للسجلات وكاتم سر للملك (مايو سنة ١٥٣٤) ، وكان فى الفترة من عامى ١٥٣١ و ١٥٤٠ المدبر الأكبر لشئون الحكومة باعتباره منفذاً مطيعاً للإرادة الملكية ، واتهمه أعداؤه الأرستقراطيون ، الذين احتقروه بوصفه حديث نعمة يرمز لخصومهم الصاعدين ، رجال الأعمال ، بأنه يطبق مبادئ « أمير » مكيافلى ، بقبول الرشا وبيع المناصب وحب الثروة والسلطان حباً يجاوز الحدود . وكان هدفه ، الذى سعى جاهداً لإخفائه ، هو أن يجعل الملك صاحب الكلمة العليا كل مجال من مجالات الحياة الإنجليزية ، وأن يمول ملكية مطلقة بثروة الكنيسة المصادرة ، وأظهر فى سعيه لتحقيق أغراضه مقدرة تامة لا تعرف تأنيب الضمير ، وضاعف ثروته ، وكسب كل معركة خاضها ما عدا الأخيرة ، والراجح أن هنرى ، وقد أزعجه تزايد عداء الشعب له ، استدرج المجلس النيابى ، بناء على اقتراحه وعن طريق احتياله ، إلى الموافقة على قانون وراثة العرش (٣٠ مارس سنة ١٥٣٤) الذى أعلن أن الزواج بكاترين غير صحيح ،وحول مارى إلى ابنة سفاح ، وعين اليزابث وريثة للعرش إلا إذا أنجبت آن ولداً ، ونص على أن أى شخص يجادل فى صحة زواج آن بهنرى يستحق أقصى عقاب . وقضى القانون بأن يحلف جميع الإنجليز رجالا ونساء يميناً بالولاء للملك . وأخذ مندوبون للملك يؤازرهم جنود ، يخترقون البلاد راكبين ، ودخلوا البيوت والقصور وأديار الرهبان وأديار الراهبات ، وانتزعوا اليمين كرهاً . ولم يرفض حلف اليمين إلا قلة ضئيلة من بينهم الأسقف فيشر وتوماس مور : وعرضوا أن يحلفوا على ما جاء بشأن وراثة العرش على ألا يقسموا على باقى ما تضمنه القانون . وحكم عليهم بالسجن فى البرج . وصوت المجلس النيابى آخر الأمر على قانون السيادة الحاسم (١٢نوفمبر سنة ١٥٣٤) ، وأكد هذا القانون سيادة الملك على الكنيسة والدولة فى انجلترا ، وعمد الكنيسة الوطنية الجديدة باسم الكنيسة

الانجليكانية ، وخول الملك كل هذه السلطات على الأخلاق والتنظيم والهرطقة والعقيدة والإصلاح الكنسى ،وكانت حتى وقتذاك من اختصاص الكنيسة . ونص القانون على أن المرء يرتكب جريمة الخيانة إذا تحدث عن الملك أو كتب عنه أنه مغتصب أو طاغية أو انقسامى أو هرطيق أو كافر . وطلب من جميع الأساقفة أن يحلفوا يمينا جديدة بأنهم يقبلون سيادة الملك المدنية والكنسية دون تحفظ « بقدر ما تسمح شريعة المسيح » ، وأنهم لن يرضوا أبداً فى المستقبل باستئناف السلطة البابوية فى إنجلترا . وانتشرت كل قوات الحكومة لشل حركة المعارضة لهذه المراسيم ، التى لم يسبق لها مثيل . وتظاهر رجال الإكليروس العلمانيون بالخنوع شيئاً فشيئاً ، وأحجم كثير من الرهبان والإخوان الرهبان عن حلف الأيمان ، نظراً لولائهم للبابا ، وأسهمت مقاومتهم فى اتخاذ الملك قراره الأخير بإغلاق الأديار .

وأحنق عناد الإخوة الرهبان فى تشارترز هاوس ، وهو دير كارتوزى لندن ، هنرى وكرومويل بخاصة . وجاء ثلاثة من رؤساء الأديار الكارتوزيين إلى كرومويل ليقدموا له إيضاحاً عن إحجامهم عن الاعتراف بأى علمانى رئيساً للكنيسة فى إنجلترا ، فبعث بهم كرومويل إلى سجن البرج . وفى يوم ٢٦ ابريل سنة ١٥٣٥ حوكموا هم وراهب آخر وقسيس علمانى أمام قضاة الملك الذين كانوا يميلون إلى الصفح عنهم ، غير أن كرومويل خشى أن يشجع الرفق على المزيد من المقاومة ، فطالب بقرار بالإدانة وأذعن القضاة .

وفى يوم ٣ مايو جر الرجال الخمسة وكانوا لا يزالون يرفضون قبول قانون السيادة على زحافات إلى تيبرن وعلقوا واحداً وراء الآخر وأسقطوا بقطع الحبال وهم أحياء وقطعوا إرباً(١٨) وعلقت ذراع مبتورة على مدخل عقد تشارترز هاوس لتلقين الرهبان الباقين درساً ، ولكن أحداً منهم لم

يتراجع عن رفضه . وسجن ثلاثة فى البرج وشد وثاقهم وهم منتصبون بسلاسل من حديد حول أعناقهم وأقدامهم ، وأكرهوا على الوقوف فى هذا الوضع سبعة عشر يوماً . وقدم إليهم الطعام ، ولكن لم يفك وثاقهم لقضاء أى حاجة طبيعية . أما باقى الرهبان الكارتوزيين ، وكانوا لا يزالون يبدون عناداً ومشاكسة فقد تشتتوا فى أديار أخرى ما عدا عشرة منهم ، سجنوا فى نيوجيت ومات تسعة من هؤلاء من «حمى السجن وقذره[١٩]» .

وكان هنرى وقتذاك هو الحكم الوحيد فيما يتعين على الشعب الإنجليزى أن يؤمن به فى مجالى الدين والسياسة . ولما كان لاهوته لا يزال كاثوليكياً من كل وجه فيما عدا السلطة البابوية فقد اتخذ مبدأ مطاردة النقاد البروتستانت للمذهب الكاثوليكى بغير تحيز ، والنقاد الكثالكة لسيادته الكنسية ، والحق أن مطاردة الهراطقة قد استمرت وظلت طوال مدة حكمه . وفى عام ١٥٣١ أحرق توماس بلنى بأمر أصدره الحاجب توماس مور ، لأنه انتقد الصور الدينية ، ورحلات الحج والصلوات من أجل الميت . وقبض على جيمس بينهام لأنه اعتبر أن المسيح لا يكون حاضراً فى القربان المقدس إلا بروحه فعذب لكى ينتزع منه أسماء هراطقة آخرين ، وتشبث بما قال وأحرق فى سمثفيلد فى ابريل عام ١٥٣٢ . وأحرق آخران فى ذلك العام وعرض أسقف لندن أن يمنح فى خلال أربعين يوماً صك غفران للمسيحيين الصالحين الذين يحملون حزمة من الحطب لتغذية النار[٢٠] .

ووصل عهد الإرهاب إلى ذروته فى اضطهاد فيشر ومور ، وقد وصف إرازاموس أسقف روشيستر بأنه « شخص مثقل بكل فضيلة[٢١] » بيد أن فيشر نفسه كان قد اقترف ذلب الاضطهاد ، وقد انضم إلى السفير الأسبانى فى حث شارل على غزو إنجلترا وخلع هنرى[٢٢] . وقد اقترف فى نظر القانون جريمة خيانة الدولة ، وهو أمر لم يشفع له عندما احتج بأنه كان مخلصاً للكنيسة . وارتكب الحبر الأعظم الجديد ، بولس الثالث خطأ بتعيين

الأسقف المسجون كاردينالا ، وعلى الرغم من أن فيشر أعلن إنه لم يسع إلى هذا الشرف ، فإن هنرى رأى وقتذاك فى هذا التعيين تحدياً له . وفى ١٧ يونيه سنة ١٥٣٥ قدم الأسقف ، وكان وقتذاك فى عامه الثمانين ، إلى محاكمة أخيرة ورفض مرة أخرى أن يوقع على قسم يعترف فيه بهنرى رئيساً للكنيسة الإنجليزية ، واقتيد فى ٢٢ يونية إلى كتلة على تل تاور . ووصفه شاهد عيان بأنه « جسد طويل أعجف ، لا شىء فيه سوى الجلد والعظام ، إلى حد أن معظم من شاهدوه دهشوا من رؤية رجل لايزال فيه رمق من حياة ، على الرغم من بلوغه هذا الحد من الوهن(٢٣) » .

وتلقى وهو على منصة المقصلة عرضا بالعفو عنه إذا حلف اليمين فرفض وعلق رأسه المقطوع فوق جسر لندن . وقال هنرى : فى وسعه أن يذهب الآن ، إذا استطاع ، إلى روما ويحصل على قلنسوة الكاردينال(٢٤) » .

ومع ذلك فقد بقى هناك مكابر عنيد أشد مراساً .

٢ — مؤلف المدينة الفاضلة

كان والد توماس مور محامياً ناجحاً وقاضياً بارزاً . وتلقى توماس تعليمه فى مدرسة سانت أنطونى بلندن ، وعمل وصيفاً لرئيس الأساقفة مورتون ، وكان لهذا الفضل فى تثبيت عقيدته المحافظة وتكامله وتقواة المرحة . وتنبأ مورتون ، كما يقال لنا ، بأن « هذا الطفل الذى يخدم هنا على المائدة ... سوف يثبت أنه رجل عجيب(٢٥) » . وذهب الشاب إلى أكسفوردوهو فى الخامسة عشرة من عمره ، وسرعان ما فتن بالأدب الكلاسى إلى درجة حملت والد الشاب على انتزاعه من الجامعة ، لإنقاذه من أن يصبح أديبا خاوى الوفاض وبعث به لدراسة القانون فى لندن ، وكانت أكسفورد وكامبردج لا تزالان تستهدفان إعداد الطلاب للعمل فى سلك الكهنوت . وكانت كلية

نيو إن وكلية لنكولن إن(*) تدربان الرجال الذين كانوا وقتذاك يشرفون من بين رجال الاكليروس على الحكومة فى انجلترا، ولم يتلق من أعضاء مجلس العموم تعليما جامعيا سوى ثمانية أعضاء بينما كانت هناك نسبة مرتفعة من المحامين ورجال الأعمال .

وفى عام ١٤٩٩ التقى مور ، وكان فى الحادية والعشرين من عمره « بإرازموس وافتتن بالمذهب الإنسانى . وتعد صداقتهما من أطيب العطور شذى فى ذلك العصر . فقد وهب كلاهما مرحاً بقدرما ، وجعلا لدراستهما طعماً مستساغاً بالهجو الضاحك . وكانا يشتركان فى كراهية الفلسفة الكلامية التى قال مور إن ما تنطوى عليه من خبث فى التفريق بين الأشياء يعود على المرء بفائدة توازى ما يكسبه من حلب تيس فى غربال(٣٦). وكانا يأملان فى إصلاح الكنيسة من الداخل وتجنب تفكك أواصر الوحدة الدينية والتواصل التاريخى . ولم يكن مور نداً لإرازموس فى العلم أو التسامح ، والحق أن رقته المألوفة وكرمه كان يشوبهما فى بعض الأوقات تطرف فى الدين ، وكان فى الجدل ينحى بين آن وآخر مثل كل معاصريه، لبوجه لخصومه طعنا شديداً مريراً(٣٧) . ولكنه كان يفوق إرازموس فى الشجاعة والإحساس بالكرامة والإخلاص لقضية . ولا شك أن الرسائل التى تبادلاها تعد شاهداً ثمينا على أفضال عصر فظ . فهناك رسالة لمور يقول فى ختامها « وداعا يا إرازموس الحبيب يا من هو أعز على من عينى(٣٨) » .

وكان من أعظم رجال الدين فى القرن الذى عاش فيه ، أخزى بتقواه ـ العلمانية تهافت رجال الكهنوت من أمثال ولزى على الدنيا . وفى الثالثة والعشرين عندما تبحر فى دراسة القانون فكر فى أن يصبح قسا . وألقى

(*) كليتان لدراسة الحقوق على النظام الداخلى أشبه بنظام « الرواق » فى الأزهر الشريف — المترجم.

محاضرات عامة (١٥٠١) عن مدينة الرب التى بشر بها أوغسطين ، وجلس بين مستمعيه علماء نحارير أكبر منه سنا مثل جروسين .

وعلى الرغم من انتقاده الرهبان لتقاعسهم عن الامتثال لما يفرضه عليهم نظامهم فإنه أعجب إعجاباً شديداً بنظام الدير المخلص ، وأسف أحياناً لأنه لم يختر هذا النظام، وظل وقتا طويلا يرتدى قميصا من شعر الخيل لا يلبس تحته شيئا، وكان بين آن وآخر يسحب منه دما يكفى لتلطيخ ثيابه ببقع من الدماء ترى بوضوح . وكان يؤمن بالمعجزات ويصدق قصص القديسين والمخلفات التى تستخدم للعلاج والصور الدينية ورحلات الحج(٢٩) وكتب مصنفات ولائية لها نغمة القرون الوسطى أن الحياة سجن وأن الهدف من الدين والفلسفة تهيئة نفوسنا للموت ، وتزوج مرتين وأنجب عدة أطفال أنشأهم على حب نظام مسيحى يتسم بالوقار والانشراح فى آن واحد ، وتصحبه صلاة متكررة وحب متبادل وإتكال كامل على العناية الإلهية . وكانت « دار مانور » فى تشلسى التى انتقل إليها فى عام ١٥٢٣ مشهورة بمكتبتها وصالة العرض فيها وحدائقها الممتدة إلى مائة ياردة إلى نهر التامز .

واختير وهو فى السادسة والعشرين من عمره (١٥٠٤) نائباً بوصفه مواطناً حراً فى المجلس النيابى . وهناك ناقش بنجاح ضد إجراء اقترحه هنرى السابع مما دفع الملك إلى أن يسجن مور الكبير فترة قصيرة . ويفرض غرامة باهظة كوسيلة منحرفة لتلقين الخطيب الشاب درساً فى مواساة المواءمة .

وعند إغلاق ذلك المجلس النيابى عاد مور إلى الحياة الخاصة ونجح فى مزاولة القانون . وأقنع عام ١٥٠٩ بتولى منصب مساعد المشرف فى المدينة ، أى فى لندن القديمة شمالى نهر التيمس . وكان مكلفا بتبعات تتفق ومزاجه ، وهى وظائف لها صيغة قانونية أكثر مما تتسم بالمخاطرة . وأكسبته أحكامه

شهرة واسعة، لما اتسمت به من حكمة وعدم تحيز ،وخالف برفضه المهذب للهدايا من المتخاصمين ، سوابق العهد الشائنة التى كانت لا تزال فى عنفوانها أيام فرانسيس بيكون . وسرعان ما عاد إلى المجلس النيابى وما إن حل عام ١٥١٥ حتى كان خطيب مجالس العموم .

ووصف إرازموس فى خطاب بعث به إلى هوتن مور (٢٣ يولية ١٥١٧)، بأنه متوسط القامة له بشرة شاحبة وشعر أصحم لا يهتم بالملبس أو المظهر زاهد فى الطعام والشراب ، منشرح سريع النكتة حاضر الابتسامة، يميل إلى الدعابات والخدع ويحتفظ فى بيته بمهرج وقرد وكثير من الحيوانات المدللة الصغيرة، « وكانت كل الطيور فى تشلزيا تأتى إليه ليطعمها » . وكان زوجا مخلصا وأبا محبا يعبد أولاده وخطيبا مقنعا ومستشارا أصيل الرأى ورجلا شديد الحرص على البر وخدمات الأصدقاء — واختتم هذا الرسم التمهيدى الذى يدل على الوله به بأنه « باختصار ماذا خلقت الطبيعة ألطف وأحلى وأسعد من عبقرية توماس مور[٣٠] ؟ » .

ووجد أمامه متسعا من الوقت لتأليف كتب وبدأ بكتاب « تاريخ رتشارد الثالث »، ولكن نزعته كانت حادة ضد الحكم المطلق، وكان يجلس على العرش حاكم مطلق ، ورأى أن من الفطنة أن يتجنب قضاء الكاتمة المطبوعة : ونشر بعد وفاته وكتب شكسبير مسرحية تقوم عليه ، ولعل السيرة الذاتية التى أذاعتها الدراما تحمل بعض المسئولية عن الخلق الذى يحمله رتشارد ، وفى عام ١٥١٦ طرح مور باللاتينية، كما لو كان يقوم بدعابة، كتابا من أشهر الكتب بأسرها ، مبدعاً كلمة ، وواضعا سابقة مقدما على خطوة للمدن الفاضلة الحديثة ومتوقعا نصف الاشتراكية ، ومعبرا عن نقد للاقتصاد والمجتمع والحكومة فى إنجلترا إلى حد أنه تسلح من جديد بالإقدام بعد التروى ونشر المجلد فى الخارج ست طبعات لاتينية قبل أن يسمح بطبعه

باللاتينية كذلك فى إنجلترا ؛ واعترف بأنه كتبه للتسلية دون أن يقصد نشره على الجمهور بيد أنه شكر إرازموس لاطلاعه عليه فى المطبعة بلوفان(٣١) وترجم إلى الألمانية والإيطالية والفرنسية قبل أن تظهر النسخة الإنجليزية (١٥٥١) بعد وفاة المؤلف بستة عشر عاماً . وما أن حل عام ١٥٢٠ حتى كان حديث القارة .

وأطلق عليه مور اسم « ليس فى موضع » ولا نعرف من خطر له ذلك الخاطر السعيد بتغيير هذا العنوان وسط الطباعة إلى المرادف اليونانى يوتوبيا أو المدينة الفاضلة(٣٢) وتم إخراج الحكاية بصورة بارعة جداً دفعت كثيراً من القراء إلى الاعتماد بأنها قصة حقيقية ويقال إن مبشراً دينياً قد فكر فى السفر وتحويل سكان المدينة الفاضلة إلى المسيحية(٣٣). وكان هنرى الثامن قد أرسل مور سفيراً إلى بروجس (١٥١٥) ومن هناك انتقل إلى أنتورب برسالة قدمه فيها إرازموس إلى بيتر جيلس كاتب المدينة . وادعت المقدمة أن جيلس قد قدم مور إلى ملاح برتغالى له لحية ، لوحت بشرته تقلبات الطقس ، يدعى رافاييل هيثلوداى ، وترادف باليونانية « ماهر فى الهذر » كان قد سافر بحراً مع أمريجو فسبوتشى عام ١٥٠٤ ، ودار حول الكرة الأرضية (ست سنوات قبل رحلة ماجلان) ، وزار فى العالم الجديد ، جزيرة سعيدة حل سكانها معظم المشكلات التى كانت تعانى منها أوروبا فى ذلك العهد . وجعلت طبعة لوفان للسخرية أكثر تقبلا بأن بدأت بحفر الخشب للجزيرة وعينة من لغة المدينة الفاضلة ؛ ولم يكشف المؤامرة إلا هفوة واحـــدة : فهيتلد واى يميل إلى الثناء على رئيس الأساقفة مورتون بكلمات(٣٤) أقرب إلى فطرة مور التى تعترف بالجميل من تجربة الملاح .

ويصف ماجلان الوهمى شيوعية سكان الجزيرة بقوله : « لما كان كل شىء على المشاع ، بين سكان المدينة الفاضلة فإن كل شىء متوفر لدى كل

إنسان . وأنا أقارن بينهم وبين كثير من الأمم . . . حيث يقول كل إنسان إن كل ما قد حصل عليه ملك خاص له وإنه أموال خاصة . وأنا أستمسك جيدا بما قاله أفلاطون . . . إن كل الناس يجب أن يحصلوا ويتمتعوا بحصص متساوية من الثروة والأمتعة . . . لأنه حيث ينتزع كل إنسان ، يتخذ ألقابا معينة ويتمسك بادعاءات ما ، ويختطف أكبر قدر يستطيع الحصول عليه بحيث نجد أن قلة هى التى تتقاسم فيما بينها كل الثروات فلن يترك للباقين سوى العوز والفاقة(٣٥) .

وكل إنسان فى المدينة الفاضلة يأخذ إنتاجه إلى المخزن العام ويتسلم منه حسب ما تتطلبه احتياجاته . ولا أحد يطلب أكثر مما يكفيه لأن الأمان من الحاجة يصده عن الجشع . ويتناول الناس الوجبات على مائدة مشتركة ولكن للمرء أن يأكل فى بيته إذا شاء . وليس فى المدينة الفاضلة عملة ولا شراء بثمن رخيص ولا بيع بثمن غال ، وآفات الغش والسرقة والنزاع على الملكية غير معروفة . ولا يستخدم الذهب بوصفه عملة ، ولكن لصناعة أشياء نافعة مثل الأوانى التى نقضى فيها الحاجة . وهى لا تعرف المجاعات أو السنوات العجاف ، لأن المخازن العامة تحتفظ باحتياطى للطوارئ . وكل أسرة تشتغل بالزراعة والصناعة معاً ، يستوى فى ذلك الرجال والنساء . ولكى يتحقق إنتاج مناسب لا بد أن يعمل كل بالغ ست ساعات يوميا ، ويتحدد اختيار المهنة باحتياجات الجماعة . وسكان المدينة الفاضلة أحرار بمعنى الحرية من الجوع والخوف ، ولكنهم ليسوا أحرارا فى أن يعيشوا على حساب الآخرين . وفى المدينة الفاضلة قوانين بيد أنها بسيطة وقليلة ، ومن ثم ينتظر من كل إنسان أن يدافع عن قضيته ولا حاجة لوجود محامين . ويحكم على الذين يخالفون القانون بالعمل عبيدا للجماعة ، ويقومون بأداء المهام الكريهة ، ولكنهم يستعيدون المساواة الكاملة بأقرانهم بعد انتهاء دورهم . أما الذين يكدرون صفو الأمن تكديرا خطيرا فيحكم عليهم بالإعدام فى بلاد أخرى .

ووحدة المجتمع فى المدينة الفاضلة هى الأسرة الأبوية « والزوجات يهيمن على أزواجهن، والأولاد ينسبون لآبائهم(٣٦) » . والزواج من واحدة هو الشكل الوحيد الذى يسمح به فى مجال الارتباط الجنسى .

وقبل الزواج ينصح الخطيبان بأن يرى أحدهما الآخر وهو مجرد من الملابس، حتى يكتشف العيوب الجسمانية فى حينه، وإذا بلغت درجة كبيرة من الجسامة فإن العقد قد يلغى . وتذهب الزوجة لتعيش مع زوجها فى دار والده بعد الزواج ويسمح بالطلاق بسبب الزنا أو برضى الطرفين بشرط موافقة مجلس الجماعة . وتختار كل ثلاثين أسرة زعيم قبيلة كل عام ليحكمها ويختار كل عشرة من زعماء القبائل رئيساً لإدارة مقاطعة بها ٣٠٠ أسرة . ويكون المائتا زعيم للقبائل مجلساً قومياً ينتخب أميرا أو ملكا مدى الحياة .

ومن التبعات الأساسية الملقاة على عاتق زعماء القبائل المحافظة على صحة الجماعة بتزويدها بالمـــاء النظيف واتخاذ الإجراءات اللازمة للحفاظ على الصحة العامة وتوفير العناية الطبية والعلاج بالمستشفيات لأن الصحة أهم النعم على الأرض . وينظم الحكام التعليم للأطفال والكبار ويهتمون اهتماماً شديدا بالتدريب المهنى ويؤيدون العلم ولا يشجعون التنجيم وقراءة الطالع والخرافة . ولهم أن يشنوا الحرب على الشعوب الأخرى إذا رأوا أن هذا يقتضيه صالح الجماعة . « إنهم يعتبرون أن أعدل سبب للحرب يتوفر عندما يحتفظ أى شعب بقطعة من الأرض فضاء ولا تستغل بأى صورة نافعة أو مربحة، ويمنع الآخرين من الاستفادة منها أو حيازتها ، وهم بحكم قانون الطبيعة يجب أن يطعموا ويفرج عنهم(٣٧)(هل كان هذا دفاعا عن استعمار أمريكا ؟) . بيد أن سكان المدينة الفاضلة لا يمجدون الحرب » إنهم يكرهونها باعتبارها عملا وحشياً واضحاً ، ومناقضاً لشعور كل أمة أخرى تقريبا . ويرون أنه لا شىء أكثر خسة وتفاهة من المجد المستمد من الحرب(٣٨) » .

والدين فى المدينة الفاضلة لا يكاد يكون حراً تماما . وتعامل بالتسامح

أى عقيدة، اللهم إلا الإلحاد وإنكار خلود الإنسان، وفى وسع ساكن المدينة الفاضلة إذا شاء أن يعبد الشمس أو القمر . ولكن الذين يلجأون إلى العنف فى العمل أو الكلام عن أى دين معترف به يقبض عليهم ويعاقبون لأن القوانين تستهدف منع النزاع الدينى[٣٩] . والذين ينكرون الخلود لا يعاقبون بل يبعدون عن الوظيفة ويحرم عليهم إبداء آرائهم لأى إنسان اللهم إلا للقساوسة و « أصحاب الشأن » . وإلا « فإنه يباح لكل إنسان أن يؤثر ويتبع أى دين يشاء . . . ويستطيع أن يبذل كل جهده لإقناع آخر برأيه ما دام يفعل هذا سلميا وفى رصانة ، وفى غير ما عجلة وبلا زجر أو قدح يصدران عن نزاع ضد الآخرين[٤٠] » . ومن ثم فإن فى المدينة الفاضلة عدة أديان بيد أن « أعظم وأحكم دور . . . هو الإيمان بوجود قوة إلهية معروفة ، دائمة ، لا تدرك ولا تفسر ، أعظم من أن يدركها عقل الإنسان ومقدرته ، متفرقة فى أنحاء العالم[٤١] ». والرهبانية مسموح بها بشرط أن يشغل الرهبان أنفسهم بأعمال البر والمنفعة العامة ، مثل إصلاح الطرق والجسور وتطهير الخنادق وقطع الأخشاب والعمل خدما بل ورقيقا ، وفى وسعهم أن يتزوجوا إذا رغبوا . وهناك قساوسة ، ولكنهم يتزوجون أيضاً . وتعتبر الدولة أن أول وآخر كل شهر وكل عام بمثابة أعياد دينية ، ولكن فى تأدية الاحتفالات الدينية فى هذه العطلات ، « لا يرى تمثال أى إله فى الكنيسة » ، ولا تؤدي صلوات ، ولكن فى وسع كل إنسان أن يتلو صلاة ما فى جرأة دون أن يسىء إلى أى طائفة[٤٢] » . وفى كل يوم من هذه العطلات تسجد الزوجات والأطفال أمام أزواجهن أو آبائهم، ويطلبون الصفح عن أى ذنب قد اقترفته أو أى واجب يكونون قد أخلوا به ، ولا يسمح لأحد بالحضور إلى الكنيسة إلا بعد أن يسود الوئام والسلام بينه وبين عدوه . وهذه لمسة مسيحية ، ولكن إنسانية مور الفتية تبدو فى قبوله الجزئى لوجهة النظر اليونانية عن الانتحار . إذا عانى إنسان من مرض عضال غير قابل للشفاء ، فإنه

يسمح له ويشجع على إنهاء حياته . أما فى الحالات الأخرى فإن مور يعتقد أن الانتحار جبن ، ويروى « أن الجثة يجب أن تلقى دون دفن فى مستنقع نتن[٤٣] » .

ولا نعرف كم من هذه يمثل النتائج التى توصل إليها مور بعد ترو ، وكم منها كان من تفكير إرازموس ، وكم منها كان من وحى ألاعيب الخيال . وعلى أية حال فإن السياسى الشاب أبعد نفسه فى حرص عن اشتراكية سكان المدينة الفاضلة ، وهو يتمثل نفسه بقول لهيثلوداى : « أرى أن كل الناس لن يعيشوا فى ثراء حيث تكون كل الأشياء على المشاع . لأنه كيف تكون هناك وفرة فى السلع . . حيث نجد أن نظرة الإنسان إلى مكاسبه الشخصية لا تدفعه إلى العمل ، ولكن الأمل يراوده فى أن يجد فى عناء الآخرين ما يجعله ينعم بالكسل . لا يمكن أن تكون كل الأمور على ما يرام ، ما لم يكن كل الناس صالحين ، وهو ما أعتقد أنه لن يحدث فى هذه السنين العديدة الطويلة[٤٤] » . ومع ذلك فإن بعض التعاطف على ضروب الحنين المتطرفة لا بد أن يكون قد استلهم بصورة كبيرة المثال الشيوعى . وثمة صفحات أخرى فى المدينة الفاضلة تنتقد فى غضب قسوة استغلال الأغنياء للفقراء . وفيها تنديد بإحاطة اللوردات الإنجليز لبعض الأراضى العامة بسياج ، وذلك بصورة مفصلة وروح لا يتوقعان فيما يبدو ، من أجنبى . ويقول هيثلوداى لمور : « إن الطمع الجائر للقلة قد تحول إلى الخراب التام لجزيرتك . إن هؤلاء الأغنياء لا يطيقون إلا أن يشتروا كل شىء ليبتلعوا ويستأثروا بكل شىء ويتحكموا فى السوق وحدهم كما يشاءون باحتكارهم[٤٥] » . وعندما أفكر وأزن بعقلى كل هذه الحكومات التى تزدهر الآن فى كل مكان فإنى لا أفهم — وليساعدنى الله — إلا أن هناك مؤامرة ، يدبرها الأغنياء لترويج سلعهم باسم الجمهور . إنهم يخترعون ويتوسلون بكل الوسائل والخدع . .

كيف يستأجرون ، . ويتعسفون . . . فى جهد الفقراء مقابل مبلغ صـــغير بقدر الإمكان . . . وهذه الحيل تؤدى إلى سن القوانين (٤٦) .

وهذا يكاد يكون صوت كارل ماركس يحرك العالم من سفح فضاء فى المتحف البريطانى ، ولا شك أن المدينة الفاضلة هى أقوى ضروب الاتهام وأولها للنظام الاقتصادى الذى استمر فى أوروبا الحديثة حتى القرن العشرين ، وإنها سوف تظل معاصرة مثل اقتصاد يسير وفق خطة معينة ومثل رفاهية الدولة أيضاً .

٣ — الشهيد

كيف تأتى لرجل تعج فى رأسه مثل هذه الأفكار أن يعـــين فى مجلس هنرى الثامن فى السنة التالية لنشر كتاب المدينة الفاضلة ؟ الراجح أن الملك على الرغم مما اشتهر به من علم ، لم يستطع أن يتحمل قراءة الكتاب باللاتينية ومات قبل أن ينشر بالإنجليزية . واحتفظ مور بخواطره المتطرفة لأصدقائه . وعرفه هنرى مزيجاً نادراً من المقدرة والكمال ، وقدّره باعتباره صلة وثيقة بينه وبين مجلس العموم ، ونصبه فارساً وعينه وكيلا للخزانة (١٥٢١) ، وعهد إليه بمهام دبلوماسية دقيقة .

وعارض مور السياسة الخارجية التى انتهجها ولزى وقاد بها إنجلترا للحرب مع شارل الخامس ، إذ أن الإمبراطور فى نظر مور لم يكن داهية خطيراً فحسب ، بل كان أيضاً البطل المدافع عن العالم المسيحى ضد الأتراك . وعندما سقط ولزى نسى مور حتى وقتذاك أخلاقياته ليراجع — فى المجلس النيابى — زلاته وأخطاءه التى أدت إلى السقوط . وكان ، بصـــفته زعيما للمعارضة ، الخليفة المنطقى للكاردينال ، وظل يعمل رئيساً لوزراء (حاجباً) إنجلترا واحداً وثلاثين شهراً .

ولكن الملك كان الخليفة الحقيقى لولزى . فقد اكتشف هنرى قوته ومقدرته وقال إنه قرر أنه يحرر نفسه من بابوية تكن له العداوة وتقف فى طريقه وأن يسبغ صفة الشرعية على زواجه بامرأة أحبها وتستطيع أن تنجب له وريثاً للعرش .

ووجد مور نفسه لا يوجه السياسة بل يخدم الأهداف التى تسير فى اتجاه مضاد لأعمق مشاعر الولاء التى يطويها بين جوانحه . وواسى نفسه بتأليف كتب ضد اللاهوت البروتستانتى وبمطاردة زعماء البروتستانت . واتفق فى كتاب حوار يتعلق بالهرطقة (١٥٢٨) وفى كتب متأخرة ، مع فرديناند الثانى وكالفن والأمراء اللوثريين على ضرورة الوحدة الدينية لتحقيق القوة والسلام القوميين . وخشى انقسام الإنجليز إلى اثنتى عشرة أو مائة طائفة دينية . ومع أنه كان قد دافع عن ترجمة إرازموس للعهد الجديد إلى اللاتينية فإنه احتج ضد نسخة تندال الإنجليزية باعتبارها تحريفاً للنص بصورة تثبت وجهات النظر اللوثرية ، وشعر بأن ترجمات الكتاب المقدس يجب ألا تتحول إلى أسلحة يشرعها فلاسفة الحانة . وعلى أية حال فإنه تمسك بأن الكنيسة كانت أداة ثمينة جداً للنظام والمواساة والإلهام ، بحيث لا يجوز تمزيقها إرباً بالاستدلال المتسرع من مجادلين معجبين بأنفسهم .

وانتقل من هذه الحال إلى إحراق البروتستانت على المحرقة . أما الاتهام الذى وجه إليه بأنه أمر بجلد رجل فى بيته بسبب الهرطقة (٤٧) فإنه موضع خلاف ، ويبدو أن رواية مور عن المذنب بعيدة عن اللاهوت « إذا نظر خلسة لأية امرأة وهى تركع » فى الصلاة و « إذا تدلى من رأسها شىء فى تضرعاتها فإنه عندئذ يتسلل وراءها . . . يعمل على رفع كل ثيابها ويقذف بها فوق رأسها(٤٨) » . ويمكن أن يقال إنه فى أحكام الإعدام الثلاثة التى أعلنت فى أسقفيته إبان توليه منصب الحاجب ، كان يستجيب فيها للقانون ، الذى كانت الدولة فى حاجة إليه ليكون العضد العلمانى للمحاكم الكنسية(٤٩) ،

ولكن ليس من شك فى أنه وافق على عمليات الإحراق(٥٠). ولم يسلم بوجود أى تناقض بين سلوكه والتسامح الكبير فى الاختلافات الدينية الذى أبداه فى مدينته الفاضلة ، لأنه حتى هناك رفض التسامح مع الملحدين والمنكرين للخلود ، وهؤلاء الهراطقة الذين لجأوا إلى العنف أو توسلوا بالطعن . ومع ذلك فقد ارتكب هو نفسه جريمة الطعن بمجادلته البروتستانت الإنجليز(*) .

وجاء الوقت الذى رأى فيه مور أن هنرى أخطر الهراطقة على الإطلاق . ورفض الموافقة على زواجه من آن بولين ورأى فى التشريع المناهض لرجال الدين الذى صدر فى ١٥٢٩ — ٣٢ اعتداء صارخاً على كنيسة يرى أنها بمثابة قاعدة لا غنى عنها للنظام الاجتماعى . وعندما تقاعد من المنصب وانسحب إلى خلوة بيته فى تشلسى (١٥٣٢) كان لا يزال فى عنفوانه ، فى الرابعة والخمسين من عمره ، ولكنه كان يرتاب فى أنه لن يعيش طويلا . وحاول أن يهيئ أسرته للمأساة بالحديث (هكذا يقول زوج ابنته وليام روبر) عن حياة الشهداء الأحرار وعن جلدهم العجيب وعما كابدوه من آلام وعن ميتتهم التى آثروا فيها أن يتعرضوا للعذاب على أن يسيئوا إلى

(*) « ومع ذلك فهناك خنزير لا يتلقى أى تعليم إلا ليدنسه وهناك كلاب تمزق بأنيابها كل علم نافع . . ولا يكفى أن يعظ الناس أمثال هؤلاء الكلاب بل يجب جلدهم بالسياط والمقارع بعنف ، والحيلولة بينهم وبين تمزيق العلم النافع بأنيابهم . . . إلى أن يستكينوا ويصيخوا السمع لما يقال لهم . وبهذه الوسائل يمنع الخنزير من إلحاق الأذى ، والكلاب تخضع أحياناً للتعاليم إلى حد . . . أنها تتعلم كيف ترقص على مزمار سيدها . والعقاب رادع فى حين أن التعليم المجرد منه لا يكفى . فمن هم الكلاب بمعنى الكلمة الآن سوى هؤلاء الهراطقة الذين ينبحون على القرابين المقدسة المباركة . . . ومن هم الخنازير بمعنى الكلمة سوى هراطقة أيامنا هذه ، وهم من ضرب نجس لم يشهده أحد قط من قبل ؟

وفى مثل هذا الموكب الرزين أقسم جميع أصحاب القداسة على العفة . . وتحولوا إلى جرية قذرة شائنة ينعم بها الرهبان بنكاح الراهبات »(٥١) .

الرب فأى شىء أسعد وأكثر بركة من أن يحب الله وأن يتعرض لفقد المال والسجن وضياع الأرض بل والحياة أيضاً » . وكان فضلا عن هذا يقول لهم معتصما بعقيدته إذا أدرك أن أبناءه سوف يشجعونه على الترحيب بالموت فى سبيل هدف سام فإنه سوف يجد فى هذا من السلوى ما يملأ نفسه حبوراً ولهذا السبب يهرع إلى الموت مبتهجاً(٥٢) .

وتحقق كل ما توقعه ، فقد اتهم عام ١٥٣٤ ، ووجهت إليه تهمة بأنه كان على علم بمؤامرة تتعلق براهبة كنت ، فأقر بأنه التقى بها ، وآمن بأنها تتلقى الوحى ، ولكنه أنكر أنه كان على علم بالمؤامرة . وتشفع كرومويل ، وتفضل هنرى بالصفح عنه . ولكن فى السابع عشر من ابريل حكم على مور بالسجن فى البرج لأنه رفض أن يحلف اليمين على قانون الوراثة ، الذى رأى عندما قدم إليه أنه ينطوى على إنكار لسيادة البابا على الكنيسة فى إنجلترا .

وكتبت إليه ابنته الأثيرة مرجريت رسالة ترجوه فيها أن يحلف اليمين ، فرد عليها بأن توسلها سبب له ألماً أشد مما سببه له سجنه . وزارته زوجته (الثانية) فى البرج وانتهرته (كما يقول روبر) لعناده :

« إنى لأعجب لك فى هذا العام يا مستر مور ، يا من كنت أحسبك حتى الآن رجلا عاقلا ، لماذا تتظاهر بالحمق ، فترقد هنا فى هذا السجن الضيق القذر ، وترضى بأن تحبس بين الفئران والجرذان ، بينما فى وسعك أن تكون حراً فى الخارج ، وتنعم بحظوة ورضا الملك ومجالسه ، إذا فعلت فقط ما فعله كل الأساقفة وخير المتعلمين فى هذه المملكة . وعندما أرى أن لك فى تشلسى بيتاً جميلا لائقاً ، وأرى مكتبتك وكتبك وقاعة صورك وحديقتك وبستانك وكل الضروريات الأخرى ، تبدو جميلة من حولك ، حتى لتستطيع أن تسعد برفقتى ، أنا زوجتك ، ورفقة أولادك وأسرتك ، فإنى أتأمل باسم الرب ماذا تعنى بمكوثك هنا وكلفك بإطالة أمده(٥٣) » .

وبذلت محاولات أخرى لزحزحته عن موقفه ، بيد أنه قاومها كلها بابتسامة .

وفى أول يولية سنة ١٥٣٥ قدم لمحاكمة أخيرة . فدافع عن نفسه جيداً ولكن حكم عليه بالإدانة لخيانة الدولة ، وبينما كان عائداً من وستمنستر إلى البرج اقتحمت ابنته مرجريت صفوف الحرس ، واحتضنته وتقبلت بركته الأخيرة . وفى اليوم السابق لإعدامه أرسل قميصه المصنوع من الشعر إلى مرجريت ومعه رسالة « غداً نلتقى » لكى نذهب إلى الله . . . وداعاً يا ابنتى العزيزة ، صلى من أجلى ، وسوف أصلى من أجلك ، ومن أجل جميع أصدقائك ، لكى نلتقى فى السماء مسرورين[٥٤] .

وعندما ارتقى منصة المقصلة (فى ٧ يوليو) ووجد أنها ضعيفة توشك أن تنهار قال لأحد التابعين : « أرجوك أيها الملازم أن تراعى أن أكون فى أمان وأنا فى أعلاها ، وبالنسبة لنزولى دعنى أحتال لنفسى[٥٥] » . وطلب منه الجلاد الصفح والمغفرة فاحتضنه مور . وكان هنرى قد أصدر تعليمات بألا يسمح للسجين إلا ببضع كلمات . وطلب مور من المشاهدين أن يصلوا من أجله ، وأن يشهدوا بأنه تعرض للموت فى سبيل عقيدة الكنيسة الكاثوليكية المقدسة ، ومن أجلها ، ثم طلب منهم أن يصلوا من أجل الملك ، وأن ينعم الله عليه بمشير صالح ، واحتج بأنه مات وهو خادم صالح للملك ، ولكنه خادم الرب أولا[٥٦]. وتلا المزمار الحادى والخمسين ، ثم وضع رأسه على الكتلة ، وسوى بعناية لحيته البيضاء الطويلة ، حتى لا تتعرض لأى أذى وقال : « مما يؤسف له أنها سوف تقطع ، وأنها لم ترتكب جريمة خيانة الدولة[٥٧] » ، وعلق رأسه على جسر لندن .

وسرت موجة من الرعب فى إنجلترا التى أدركت وقتذاك قسوة الملك ، التى أصر عليها ، وسرت فى أوروبا قشعريرة من الفزع . وشعر إرازموس

أنه هو نفسه قد مات لأنه ، «ليس لنا إلا روح واحدة تتردد بيننا[٥٨] وقال انه لم تعد لديه وقتذاك أى رغبة فى الحياة . وبعد عام مات هو أيضاً . وعلم شارل الخامس بالحادث وقال للسفير الإنجليزى : « لو كنت سيداً لخادم مثل هذا توفرت لى — أنا نفسى — عن أعماله خبرة غير ضئيلة فى هذه السنوات العديدة ، فإنى كنت أفضل أن أفقد أحسن مدينة فى ممتلكاتى ولا أفقد مثل هذا المستشار الجليل[٥٩] » . وصاغ البابا بولس الثالث نشرة بابوية بحرمان هنرى الخارج على القانون من زمالة العالم المسيحى ، وتحريم الصلوات الدينية فى إنجلترا ، ومنع كل تجارة معها ، وحل كل الرعايا البريطانيين من إيمانهم بالولاء للملك ، وأمرهم هم وكل الأمراء المسيحيين بخلعه فوراً . ولما كان كل من شارل وفرانسيس لا يرحبان بهذه الإجراءات ، فإن البابا حجز صدور النشرة البابوية حتى عام ١٥٣٨ . وعندما أصدرها ، منع شارل وفرانسيس نشرها فى مملكتيهما ، إذ لم يرضيا التصديق على الادعاءات البابوية بوجود سلطة له على الملوك . وكان فشل النشرة البابوية إيذانا بضعف السلطة البابوية ، وارتفاع سلطان الدولة القومى .

ورأى دين سويفت أن مور رجل « يتمتع بأعظم الفضائل » — ولعله يستخدم الكلمة بمعناها القديم الخاص بالشجاعة — « بين الرجال الذين أنجبتهم هذه المملكة[٦٠] » .

وفى الذكرى الأربعمائة لإعدام توماس مور وجون فيشر أدرجتهما كنيسة روما بين قديسيها .

٤ — حكاية ثلاث ملكات

فقد هنرى ثلاثا من ست ملكات فى خلال ثلاثين شهرا من وفاة مور . فقد تلاشت حياة كاترين فى معتزلها الشمالى ، وهى لا تزال تدعى أنها زوجة هنرى الشرعية الوحيدة ، وملكة انجلترا صاحبة الحق الشرعى ، واستمرت

وصيفاتها فى إطلاق هذااللقب عليها . وفى عام١٥٣٥ نقلت إلى قلعة كيمبالتون قرب هنتنجدون، وهناك حبست نفسها فى حجرة واحدة ولم تكن تحركها إلا لحضور القداس . واستقبلت زوارا و« عاملتهم فى كرم زائد(٦١) » وحجزت مارى ، وكانت وقتذاك فى التاسعة عشرة فى هاتفيلد التى لا تبعد إلا بمسيرة عشرين ميلا ، غير أنه لم يسمح للأم ولا لابنتها بأن ترى إحداهما الأخرى ، ومنعاً من الاتصال ببعضهما ، ومع ذلك فإنهما تراسلا ، وتعد رسائل كاترين من أعظم الرسائل المؤثرة فى الأدب بأسره . وعرض هنرى عليهما دارين آخرين أفضل من داريهما ، إذا اعترفتا بملكته الجديدة ، فرفضتا . وعينت آن بولين عمتها مربية لمارى وأمرتها بأن تحتفظ « بابنة السفاح » وتلزمها حدها بـ « لكمة على الأذنين بين آن وآخر(٦٢) » . ومرضت كاترين فى ديسمبر سنة ١٥٣٥ وكتبت وصيتها وبعثت برسالة للإمبراطور تطلب منه حماية ابنتهـــا ووجهت وداعا مؤثرا لـ « سيدها وزوجها العزيز » الملك .

« إن ساعة وفاتى تقترب ولا حيلة لى إلا أن أنصحك ، بحكم ما أكنه لك من حب ، بأن نعنى بطهارة روحك التى يجب ان تؤثرها على كل الاعتبارات فى الدنيا ، أو على أى جسد تشتهيه مهما كان ، والذى من أجله قذفت بى فى كوارث عديدة ، وبنفسك فى متاعب كثيرة ولكنى أغفر لك كل شىء ، وأرجو الله أن يغفر لك أيضا ، وبالنسبة للباقى أوصيك خيراً بابنتنا مارى ، وأتوسل إليك أن تكون لها أباً صالحاً . . . وأخيراً فإنى أردد هذا القسم بأن عينى تريدان أن تبصراك فوق كل شىء وداعاً(٦٣) » .

وبكى هنرى عندما تسلم الرسالة ، وعندما ماتت كاترين (٧ يناير سنة ١٥٣٦) بالغة من العمر خمسين عاماً ، أمر الحاشية بإعلان الحـــداد . فرفضت آن(٦٤).

ولم تستطع آن أن تعرف أنها ستموت أيضاً فى خلال خمســـة شهور ، ولكنها أدركت أنها خسرت الملك ، فقد أدى طبعها الحاد وسورات غضبها المتسمة بالصلف ، ومطالبها التى تبعث على الضجر ، إلى إنهاك هنرى الذى رأى أن لسانها السليط يتناقض مع رقة كاترين(٦٥) . وفى اليوم الذى دفنت فيه كاترين ولدت آن طفلا ميتاً ، وبدأ هنرى الذى كان لا يزال يتلهف على ولد يفكر فى طلاق آخر — أو فى بطلان للزواج كما سوف يفعل ، وروى عنه أنه قال إن زواجه الثانى تم تحت إغراء السحر ، ومن ثم فإنه باطل(٦٦) . وبدأ من أكتوبر سنة ١٥٣٥ يولى اهتماماً خاصاً بإحدى وصيفات آن وهى جين سيمور . وعندما أنبته آن أمرها بأن تتحمله فى صبر ، كما فعل من هن أفضل منها(٦٧) ، ولعله انتهج حيلا قديمة عندما اتهمها بالخيانة . إذ يبدو إنه مما لا يصدق أن تخاطر حتى امرأة نزقة بعرشها بلحظة تبذل ، ولكن يبدو أن الملك كان قد آمن فى إخلاص بأنها مذنبة . وأشار إلى الشائعات الدائرة عن غرامياتها التى وصلت إلى مجلسه ، فاستقصى الأمر وأبلغ الملك أنها اقترفت الزنا مع خمسة أعضاء من البلاط ، هم سير وليام بريريتون ، وسير هنرى نوريس ، وسير فرانسيس وستون ، ومارك سميتون ، وأخيها اللورد روشفورد ، وأرسل الرجال الخمسة إلى البرج وتبعتهم آن فى اليوم الثانى من مايو سنة ١٥٣٦ .

وكتب لها هنرى يعللها بالآمال فى الصفح عنها والرفق بها إذا كانت صادقة معه ، فردت بأنها ليس لديها ما تعترف به . وزعم خـــدمها فى السجن أنها أقرت بأنها تلقت عرضين بتبادل الحب مع نوريس ووستون ، بيد أنها ادعت أنها صدمتهما . وفى يوم ١١ مايو وبعـــد أن طلب من هيئة المحلفين الكبرى فى مدلسكس أن تقوم بتحقيق محلى فى الجرائم التى يقال إن الملكة قد ارتكبتها فى تلك البلاد أبلغت أنها وجدتها مذنبة لاقترافها الزنا مع جميع الرجال الخمسة المتهمين ، وقدمت أسماء وتواريخ معينة(٦٨) . و

يوم ١٢ مايو حوكم أربعة من هؤلاء الرجال فى وسنمنستر أمام هيئة محلفين، منهم والد آن الايرل أف ولتشاير. واعترف سميتون أنه مذنب كما اتهم، أما الآخرون فدافعوا عن أنفسهم بأنهم غير مذنبين، وحكم بإدانة الأربعة جميعاً. وفى يوم ١٥ مايو حوكمت آن هى وأخوها أمام جماعة مكونة من ستة وعشرين نبيلا برئاسة الدوق أف نورفولك وهو عمها، ولكنه عدوها السياسى. وأكد الشقيقان أنهما بريئان، ولكن كل عضو من جماعة القضاة أعلن أنه مقتنع بأنهما مذنبان، وحكم عليهما بأن يحرقا أو يقطع رأساهما كما يتراءى للملك. وفى يوم ١٧ مايو شنق سميتون، أما الرجال الأربعة الآخرون فقد قطعت رءوسهم كما يليق برتبهم. وفى ذلك اليوم طلب وكلاء الملك من رئيس الأساقفة كرانمر أن يعلن عدم صحة الزواج بآن وأن اليزابث ابنة سفاح فأذعن. ولا يعرف الأسس التى بنى عليها هذا الحكم، ولكن يظن أن زواج آن السابق المزعوم بلورد نورثمبرلاند أعلن وقتذاك أنه حقيقى.

وركعت آن عشية وفاتها أمام لادى كنجستون زوجة الحارس وطلبت منها منة أخيرة: أن تذهب وتركع أمام مارى، تتوسل إليها باسم آن أن تصفح عن الأخطاء التى ارتكبت فى حقها، بسبب كبرياء امرأة تعسة غير متبصرة[٦٩]، وطلبت أن ينفذ فيها حكم الإعدام فوراً يوم ١٩ مايو. والظاهر أنها استمدت شيئاً من العزاء من فكرة خطرت لها هو: « لقد سمعت أن الجلاد بارع جداً ولى عنق صغير » — ومن أجل ذلك ضحكت واقتيدت ظهر ذلك اليوم إلى منصة المقصلة، وطلبت من المشاهدين أن يصلوا من أجل الملك « لأنه ليس هناك أمير يبزه فى الرقة والرأفة[٧٠] »، ولم يكن هناك أحد يقطع بأنها مذنبة، ولكن قليلين أسفوا لسقوطها:

وفى يوم وفاتها منح كرانمر للملك محللا بالزواج مرة أخرى فى سعيه

المتجدد للحصول على ولد ، وفى اليوم التالى خطب هنرى ، جين سيمور سراً ، وتزوجا يوم ٣٠ مايو ١٥٣٦ ، ونودى بها ملكة يوم ٤ يونية ؛ وكانت سليلة أسرة ملكية ، إذ أنها تنحدر من إدوارد الثالث ، وكانت لها صلة قرابة من الدرجة الثالثة أو الرابعة بهنرى ، مما دعا إلى الحصول على محلل آخر من كرانمر المطيع . ولم تكن تتمتع بجمال خاص ، بيد أنها أثرت فى الجميع بذكائها ورقتها بل وتواضعها ، ووصفها الكاردينال بول خصم هنرى اللدود بأنها : « ممتلئة بالطيبة » ، ولم تشجع محاولات الملك التقرب بها إبان حياة آن ، ورفضت قبول هداياه ، وأعادت رسائله دون أن تفتحها ، وطلبت منه ألا يحدثها إلا فى حضور آخرين(٧١)

وكان أول عمل تم بعد الزواج هو القيام بالتوفيق بين هنرى ومارى . وقام هنرى به بطريقته الخاصة فأمر كرومويل بأن يبعث لها برسالة عنوانها : « اعتراف لادى مارى » . وهى تعترف بالملك رئيساً أعلى للكنيسة فى انجلترا وتنكر « سلطة أسقف روما المزعومة »، وتعترف أن زواج هنرى بكاترين « من قبيل سفاح القربى وغير شرعى » . وطلب من مارى أن توقع باسمها على كل جملة ، ووقعت ولم تصفح عن نفسها قط . وبعد ثلاثة أسابيع أقبل الملك والملكة لرؤيتها وقدما إليها هدايا و ١٠٠٠ كراون ، وأطلق عليها مرة أخرى لقب أميرة ، وفى يوم عيد الميلاد لعام ١٥٣٦ استقبلت فى البلاط ، وهناك لا بد أن شيئا طيبا كان فى هنرى وفى « مارى الدموية » — لأنها كادت تتعلم فى السنوات الأخيرة أن تحبه .

وعندما اجتمع المجلس النيابى مرة أخرى (١٨ يونية سنة ١٥٣٦) أصدر بناء على طلب الملك قانوناً جديداً بوراثة العرش وبمقتضاه أعلن أن اليزابث ومارى على السواء بنتان غير شرعيتين ، وتقرر أن يقتصر التاج على الذرية المتوقع أن تنجبها جين سيمور ؛

ومات الدوق آن رتشموند ابن هنرى غير الشرعى ، وتعلقت آمال الملك كلها فى حمل جين . وهللت إنجلترا معه عندما ولدت (١٢ أكتوبر سنة ١٥٣٧) ولدا هو إدوارد السادس فى المستقبل . بيد أن جين المسكينة التى ارتبط بها الملك وقتذاك ارتباطاً عميقاً ، بقدر ما سمحت روحه ، التى تتركز حول ذاته ، ماتت بعد ولادة ابنها باثنى عشر يوما . وظل هنري رجلا محطما بعض الوقت . وعلى الرغم من أنه تزوج مرة أخرى ثلاث مرات فإنه طلب عند وفاته أن يدفن بجانب المرأة التى ضحت بحياتها فى سبيل حمل ابنه .

ماذا كانت ردود الفعل لدى الشعب الإنجليزى بالنسبة لأحداث هذا العهد المضطرب ؟ من الصعب أن نقول شيئاً ، فالدليل فيه تحامل ويكتنفه الغموض ومشتت . وروى شابويس عام ١٥٣٣ أن رأى الكثيرين من الإنجليز أن « الملك رتشارد السابق لم يكن قط مكروها من شعبه إلى هذا الحد مثل هذا الملك[٧٢] » . وقد تعاطف الشعب بوجه عام مع رغبة هنرى فى الحصول على ولد ، وأدان قسوته على كاترين ومارى ولم يذرف دموعاً على آن ، ولكنه صدم صدمة عميقة بإعدام فيشر ومور . وكانت أغلبية الأمة السابقة لا تزال تدين بالكاثوليكية[٧٣] ، وكان رجال الاكليروس — بعد أن حققت الحكومة وقتذاك لنفسها موارد الأساقفة حديثى التعيين فى السنة الأولى — يأملون فى التوفيق مع روما . ولكن لم يجرؤ أحد على أن يرفع صوته بنقد الملك . وتلقى نقداً ، ومن إنجليزى ولكن مع وجود القنال بينه وبين ذراع الملك .

كان ريجنا لدبول ابن مرجريت بلانتا جينت كونتيسة سالزبورى ، وهى نفسها ابنة أخى إدوارد الرابع ورتشارد الثالث . وقد تعلم على نفقة هنرى ، وكان يتسلم مرتبا من الملك قدره ٥٠٠ كراون كل عام ، والظاهر أنه كان يعد لتولى أعلى المناصب فى الكنيسة الإنجليزية . ودرس فى باريس

وبادوا ، وعاد إلى انجلترا ، وهو يتمع بحظوة كبيرة لدى الملك ، ولكن عندما أصر هنرى على سماع رأيه فى الطلاق ، رد ريجينالد صراحة أنه لا يستطيع أن يوافق عليه ما لم يصدق عليه البابا . ولم يقطع هنرى مرتب الشاب وسمح له بالعودة إلى القارة .

وهناك لبث بول اثنين وعشرين عاما وارتفع فى تقدير البابا باعتباره عالماً ومتضلعاً فى اللاهوت ، ونصب كاردينالا وعمره ستة وثلاثون عاماً (١٥٣٦) . وألف فى ذلك العام باللاتينية رسالة هجوم على هنرى هى دفاع عن وحدة الكنيسة . ورأى أن الأخذ بسيادة هنرى على الشئون الكنسية فى إنجلترا يدعو إلى الانقسام بين أبناء الديانة المسيحية وتشعبهم إلى قوميات منوعة ، وأن التصادم الناتج بين العقائد سيؤدى إلى فوضى اجتماعية وسياسية فى أوروبا . واتهم هنرى بأنه مصاب بجنون حب الذات والحكم المطلق . ولام الأساقفة الإنجليز على تسليمهم بعبودية الكنيسة للدولة . وندد بالزواج من آن باعتباره زنا ، وتنبأ (ولم يكن هذا من الحكمة إلى حد كبير) بأن النبلاء الإنجليز سوف يعدون البزابث « ابنة سفاح لعاهرة إلى الأبد[٧٤] » ، وطالب شارل الخامس بألا يضيع أى ذخيرة حربية فى حرب الأتراك وأن يحول القوات الإمبراطورية للقتال ضد ملك إنجلترا الكافر . كانت رسالة طعن شديدة ، أتلفتها كبرياء الشباب فى الفصاحة . وأشار الكاردينال كونتاريني على المؤلف بألا ينشر الرسالة ، بيد أن بول أصر ، وأرسل نسخة إلى إنجلترا .

وعندما نصب بولس الثالث بول كاردينالا اعتبر هنرى هذا عملا من أعمال الحرب . وتخلى الملك عن كل فكرة تدور حول المصالحة ، واتفق مع كرومويل على أن الأديار فى إنجلترا يجب أن تحل ، وأن تضم أملاكها إلى التاج .

الفصل الخامس والعشرون

هنرى الثامن والأديار

١٥٣٥ - ٤٧

١ - تقنية الحل

كان هنرى عام ١٥٣٥ مشغولا جداً بالحب والحرب فلم يستطع أن يلعب دور البابا جملة أو تفصيلا ، فعين كرومويل الذى يؤمن بفلسفة اللا أدرية(١) « نائبا للملك فى كل قضاياه الكنسى » . ووجه كرومويل وقتذاك السياسة الخارجية والتشريع الوطنى والسلطة القضائية العليا والمجلس الخاص والمخابرات وقاعة النجم وكنيسة إنجلترا ، ولم يكن لولزى فى أوج مجده قط أصابع طويلة متشبثة بفطائر غضة بهذه الكثرة . وكان يراقب أيضاً كل الطباعة والنشر ، وأقنع الملك بأن يحرم طبع الكتب أو بيعها أو استيرادها إلا بعد الحصول على موافقة وكلاء التاج ، وأمر بنشر الكتب المناهضة للبابوية على نفقة الحكومة .

وقام جواسيس كرومويل ، وهم لا يحصون ، بإبلاغ كرومويل بكل حركات أو بيانات المعارضين لهنرى أو له . وكانت أية إشارة تدل على الاشفاق على فيشر أو مور وأية دعابة تدور حول الملك يمكن أن تؤدى إلى محاكمة سرية وسجن طويل(٢) ، وكان التنبؤ بوفاة الملك يعرض المرء لفقد حياته(٣) .

وقام كرومول ، فى بعض القضايا الخاصة بدور ممثل الاتهام والمحلفين

والقاضى ليصل إلى نتائج محققة . وكان كل واحد فى إنجلترا يخشاه ويكرهه .

وكانت أكبر معضلة واجهها هى أن هنرى كان مفلسا ، على الرغم من سلطانه العظيم . وكان الملك يتوق إلى زيادة حجم البحرية والإكثار من مرافئه وموانيه أو تحسينها ، وكانت حاشيته تتجاوز الحدود ونفقاته الشخصية باهظة ،ونظام كرومويل فى الحكم يحتاج إلى نهر عريض من الأموال . فكيف يجمع المال ؟ كانت الضرائب مرتفعة إلى الحد الذى تقابل فيه بمقاومة تجعل الجباية تكلف من النفقات أكثر مما تدر من الربح ، وكان الأساقفة قد استنزفوا أبرشياتهم لتهدئة سورة الملك ، ولم يكن هنك ذهب يتدفق من أمريكا ، كما يتدفق يوميا لإغاثة الإمبراطور عدو إنجلترا . ومع ذلك كانت فى إنجلترا مؤسسة واحدة ثرية وموضع ريبة وعاجزة لا تجد من يدافع عنها وهى الأديار . كانت موضع ريبة لأن ولاءها الأخير كان للبابا ، واشتراكها فى قانون السيادة يعد من قبيل المداهنة وغير تام ، وكانت فى نظر الحكومة هيئة أجنبية ملزمة بتأييد أى حركة كاثوليكية ضد الملك . وكانت عاجزة لأنها فى كثير من الحالات كفت عن القيام بوظائفها التقليدية فى مجالات التعليم والضيافة والبر ، وكانت لا تجد من يدافع عنها لأن الأساقفة استاءوا من إعفائهم من المراقبة الأسقفية ، ولأن الأشراف ، وقد أفقرتهم الحرب الأهلية ، طمعوا فى ثروتها ، ولأن طبقة رجال الأعمال كانوا يرون فى الرهبان والإخوة من الرهبان متلفين كسالى للموارد الطبيعية ، ولأن القسم الأكبر من العامة ، ومنهم كثير من الكثالكة الصالحين . لم يعودوا يؤمنون بفاعلية الخلفات التى كان الرهبان يعرضونها ، أو بالقداسات التى كان يقيمها الرهبان للموتى ، إذا دفع لهم الأجر . وكانت هناك سوابق رائعة لإغلاق الأديار ، فقد أغلقها زوينجلى فى زيورخ والأمراء اللوثريون فى ألمانيا وولزى فى إنجلترا . وكان المجلس النيابى قد صوت (١٥٣٣)

بالموافقة على تخويل الحكومة سلطة التفتيش على الأديار وإجبارها على تقويم اعوجاجها .

وأرسل كرومويل فى صيف عام ١٥٣٥ ثالوثا من « المفتشين » كل منهم معه عدد كبير من الموظفين لفحص حالة أديار الرهبان والراهبات فى إنجلترا من النواحى البدنية والأخلاقية والمالية وتقديم تقرير عنها . وكذلك للتفتيش على الجامعات والكراسى الأسقفية كإجراء مقبول . وكان هؤلاء « المفتشون » شبانا متهورين ، « من المرجح أن يسوموا بتنفيذ عملهم فى إتقان أكثر مما يتوسلون فى تنفيذه بالرقة[٤] » ، ولم يكونوا فى عصمة من قبول « الهدايا[٥] » ، وكان « الهدف من مهمتهم الحصول على قضية للتاج ، ولعلهم لجأوا إلى كل الوسائل المخــولة لهم لحث الرهبان والراهبات على إدانة أنفسهم[٦] . ولم يكن من الصعب أن يعثر فى ٦٠٠ دير فى إنجلترا على عدد مقنع ويدل على وجود انحرافات جنسية — وأحيانا انحرافات جنسية شاذة[٧] — ونظام متحلل واستغلال لمخلفات زائفة هدفه اكتناز المال ، وبيع أوعية مقدسة أو مجوهرات مقدسة لإضافة المزيد إلى ثروة الدير ، وما فيه من ضروب الراحة[٨] وإهمال الشعيرة أو الضيافة أو البر[٩] ولكن التقارير أغفلت عادة ذكر نسبة الرهبان الآثمين إلى الرهبان الجديرين بالتقدير ، والتمييز بوضوح بين الثرثرة والدليل[١٠] .

وقدم كرومويل للمجلس النيابى الذى انعقد فى ٣ فبراير عام ١٥٣٦ « كتابا أسود » ، ضاع الآن ، يكشف عن الاخطاء فى الأديار ، وينصح ، باعتدال استراتيجى : بإغلاق أديار الرهبان والراهبات التى يبلغ دخلها ٢٠٠ جنيه (٢٠,٠٠٠ دولار ؟) أو أقل فى العام . فوافق المجلس النيابى الذى كان معظم أعضائه قد اختيروا بواسطة معاونى كرومويل[١١] . وعين الملك محكمة المزايدات لكى تتسلم لصالح خزانة الملك أملاك وموارد هذه الأديار الصغرى البالغ عددها ٣٧٦ . وأطلق سراح ألفى راهب ليذهبوا لدور

أخرى أو يخرجوا إلى العالم — وفى الحالة الأخيرة كانوا يمنحون مبلغاً صغيراً أو معاشا يسد رمقهم إلى أن يجدوا عملا . ولم يكن بين ١٣٠ دير للراهبات سوى ١٨ ديرا يتجاوز دخلها ٢٠٠ جنيه ، ولكن لم يغلق منها وقتذاك إلا نصفها .

وقامت فى الشمال ثورة ثلاثيه قطعت دراما الحل . وكما نشأت المسيحية فى المدن ووصلت إلى القرويين — الوثنيين — فكذلك نهض الإصلاح الدينى فى المدن بسويسرة وألمانيا وإنجلترا ، ولقى مقاومة دامت طويلا فى الريف . وتقلص ظل البروتستانتية فى إنجلترا وسكوتلندة كلما ابتعدت المسافة من لندن أو أدنبره ، ووصلت متأخرة إلى ويلز وشمالى إنجلترا ، ولقيت ترحيبا ضئيلا فى إيرلنده . وفى المراكز الشمالية بإنجلترا أشعل سلب الأديار الصغرى نار الاستياء التى كانت مهيأة للاشتعال منذ وقت طويل بسبب الضرائب المتزايدة والحكم الملكى المطلق على رجال الاكابروس والتحريض الخفى للقساوسة . وانضم الرهبان ، الذين جردوا من أموالهم ووجدوا أن من الصعب عليهم الحصول على مرتباتهم أو على عمل ، إلى المتعطلين العديدين المكتئبين ، أما الراهبات اللاتى جردن من أملاكهن واللاتى كن يتجولن من مأوى إلى مأوى فقد أثرن غضب الجمهور ضد الحكومة . وألهب معاونو كروموبل « نار » الغضب بتزيين أنفسهم بأسلاب المعابد بالأديار وصناعة صدريات من القباء ، وسروج من صدرات القساوسة وقرابات خناجر من محافظ المخلفات(١٢) .

وفى يوم ٢ أكتوبر سنة ١٥٣٦ هاجم جمهور فى لوث مفتشا ، كان قد أغلق توا ديرا للراهبات فى لجبورن المجاورة لها ، وتم الاستيلاء على سجلاته وأوراق اعتماده وأحرقت وصوب إلى صدره سيف وأكره على أن يحلف يمين الولاء للعامة . وحلف كل من كان حاضرا بين الجمهور يمينا بأن يكون مخلصا للملك والكنيسة الرومانية المقدسة : وفى اليوم التالى احتشد

جيش ثائر فى كايستور على مسيرة بضعة أميال ، حرضه قساوسة ورهبان لا مأوى لهم ، واضطر أعيان الجهة — ومنهم من فعل ذلك باختياره — إلى الانضمام لجيش الثوار . وفى اليوم نفسه تجمع حشد كبير من القرويين فى هورن كاسل ، وهى مدينة أخرى تقع فى لنكولنشاير . واتهم حاجب أسقف لنكولن بأنه عميل لكرومويل ، وانتزع من فراشه ، وضرب حتى الموت بالهراوات . وصمم الثوار علمايصور محراثا وقدحا وبوقاً ، و « الكلمات الخمس الأخيرة » للمسيح ، واستخلصوا مطالب أرسلت إلى الملك : يجب أن تعاد الأديار وتخفف الضرائب أو تيسر ، وألا يدفع رجال الاكليروس ضرائب العشور أو موارد السنة الأولى من التعيين إلى التاج ، وأن يبعد « الدم الخبيث » (أى كرومويل) من المجلس الخاص ، وأن يقال الأساقفة الهراطقة — وبخاصة كرانمر ولاتيمر — ويعاقبون .

وانضم إلى الثورة مجندون من الأقاليم الشمالية والشرقية . واحتشد فى لنكولن حوالى ٦٠٫٠٠٠ رجل ، ولبثوا يرقبون رد الملك .

وكان رده عنيفا لا يقبل التفاهم . واتهم الثوار بإنكار جميل حاكم كريم ، وأصر على أن اغلاق الأديار الصغرى إنما تم بإرادة الأمة التى عبرت عنها عن طريق المجلس النيابى ، وأمر الثائرين بتسليم زعمائهم ، وأن يتفرقوا وينصرفوا إلى بيوتهم ، وإلا تعرضوا لعقوبة الإعدام ومصادرة أموالهم . وفى الوقت نفسه أمر هنرى أعوانه بحشد قواتهم والزحف بقيادة إيرل أف سفولك لمساعدة اللورد شروسبرى ، الذى كان قد نظم تابعيه لصد الهجوم ، وكتب رسائل خاصة إلى الأشراف القلائل الذين كانوا قد انضموا إلى الثورة . وعند ما أدرك هؤلاء وقتذاك أن الملك لا يمكن إرهابه ، وأن الثوار المسلحين تسليحا سيئا سوف يقهرون وشيكا ، اقتنع الكثيرون منهم بالعودة إلى قراهم ، وسرعان ما ذاب جيش الثوار فوق احتجاجات

القساوسة . وسلمت لوث خمسة عشر زعيما وأسر مائة آخرون ، وأعلن صدور عفو ملكى عن الباقين . وأخذ الأسرى إلى لندن والبرج وشنق ثلاثة وثلاثون ، منهم سبعة قساوسة ، وأربعة عشر راهبا ، وأطلق سراح الباقين على مهل(١٣) .

وفى غضون ذلك كانت هناك فتنة أشد خطورة قد نمت فى يوركشاير . اوجد رتشارد آسك ، وهو محام شاب ، نفسه متورطا بدنيا وعاطفيا فى لحركة . وأفزع محام آخر فتولى قيادة فرقة ثائرة فى بفرلى ، وأعار اللورد دارسى أف تمبلهرست ، وهو كاثوليكى متحمس ، الثورة تأييده الخفى ، وانضم اثنان من أسرة برسى ، وحذا حذوهم معظم أشراف الشمال .

وفى ١٥ أكتوبر سنة ١٥٣٦ ضرب الجيش الرئيسى ، المكون من ٩٫٠٠٠ رجل ، الحصار على يورك . وأجبر المواطنون فى المدينة العمدة على فتح الأبواب . ومنع آسك رجاله من نهب المدينة ، وحافظ بوجه عام على نظام ملحوظ فى جيشه غير المدرب . وأعلن إعادة فتح الأديار ، وعاد إليها الرهبان فى اغتباط ، وأدخلوا السرور على أفئدة الأتقياء بحرارة ترانيمهم الجديدة . وتقدم آسك واستولى على بومفريه ، واستولى ستابلتون على هل دون إراقة دماء . وانضم آخرون إلى رجال لنكولنشير فى تقديم المطالب وأرسلوا للملك : « أن يقمع كل الهراطقة وكتبهم ، ويستأنف الروابط الكنسية مع روما ، وأن يسبغ صفة الشرعية على مارى ، ويعزل مفتشى كرومويل ويعاقبهم ، ويلغى كل تسوير للأراضى العامة منذ عام ١٤٨٩ .

كانت هذه أحرج لحظة فى عهد هنرى . كان نصف البلاد يحمل السلاح ضد سياسته ، وكانت إيرلنده فى ثورة ، وكان بولس بول الثالث

والكردينال بول يحثان فرانسيس الأول وشارل الخامس على غزو إنجلترا وخلع الملك . واستجمع قواه المتخاذلة ، وأرسل أوامر إلى كل الجهات بحشد فرق موالية ، وفى الوقت نفسه أصدر تعليمات للدوق أف نورفولك بأن يتغفل الزعماء الثائرين بإجراء مفاوضات . ورتب الدوق مداولة مع آسك وعدة نبلاء وأغراهم بوعد منه بالعفو عنهم جميعاً . ودعا هنرى آسك إلى لقاء شخصى ومنحه جواز أمان . فجاء إلى الملك وافتتن بعبير الملكية ، وعاد وديعا ، ولم يلحقه أذى إلى يوركشاير (يناير سنة ١٥٣٧) ، وعلى أية حال فإنه قبض عليه هناك وأرسل سجينا إلى لندن . وانقطعت صلة الجيش الثائر بقواده فانشعب إلى فرق غاضبة وساده اضطراب همجى ، وتضاعفت حالات التمرد . وبينما كانت فرق الملك المتحدة تقترب اختفى الجيش الثائر كسراب تبدد (فبراير سنة ١٥٣٧) .

وعند ما استوثق هنرى من انهيار الثورة والغزو ما أنكر وعد نورفولك بالعفو العام ، وأمر بالقبض على من يمكن العثور عليه من الزعماء مثيرى الفتنة ، وأعدم الكثيرون منهم ومن ضمنهم آسك ، وكتب إلى الدوق يقول : « يسرنا أن نراك قبل أن نطوى علمنا مرة أخرى أن تقوم بإعدام مروع لعدد لا بأس به من السكان فى كل مدينة وقرية ومحلة تكون قد أجرمت ، حتى يكون فى هذا عبرة لكل من تسول له نفسه أن يقوم بمثل ذلك فى المستقبل . . . وما دامت هــذه الاضطرابات كلها قد نتجت من تحريض الرهبان والكنسيين فى هذه البقاع ومؤامراتهم الغادرة ، فإننا نريد منك فى هذه الربوع التى تآمروا فيها ، ودافعوا عن بيوتهم بالقوة . . أن تأمر بلا رحمة أو شفقة بشد وثاق هؤلاء الرهبان رجال الكنيسة الذين ثبت خطؤهم بأية وسيلة دون تأخير أو إجراء رسمى(١٤).

وعند ما رأى كرومويل ما لحق بالمعارضة من رعب شديد مضى قدماً

فى إغلاق الدور الدينية الباقية فى إنجلترا . وحلت يوما كل أديار الرهبان والراهبات التى كانت قد انضمت إلى الثورة وصودرت ممتلكاتها لمصلحة الدولة . وامتد مجال الزيارات التفتيشية ، وأثمرت تقارير عن الخروج على النظام والفجر والخيانة والانحلال . وتوقع كثير من الرهبان سلفا إغلاق الأديار فباعوا المخلفات والنفائس التى فى دورهم إلى أعلى مزايد ، وبلغ ثمن إصبع لسانت أندرو أربعين جنيها(١٥) . وأدين الرهبان فى والسنجهام بتزييف معجزات ، وألقى تمثال العذراء ، الذى كان يدر عليهم أرباحا ، فى النار . وهدم ضريح سانت توماس بيكيت التاريخى فى كانتربرى ، وأعلن هنرى الثامن أنه فى انتصاره على هنرى الثانى لم يكن قديسا حقا ، وأحرقت المخلفات التى أساءت إلى كوليه ، وتفكه بها إرازموس . ونقلت التحف الثمينة التى وهبها الحجاج الورعون فى خلال ٢٥٠ عاما إلى الخزانة الملكية (١٥٣٨) ، ولبس هنرى بعد ذلك فى إبهامه خاتما محلى بياقوتة كبيرة أخذت من الضريح . وسعت بعض الأديار إلى خداع القدر بإرسال المال والهدايا لكرومويل ، وقبل كرومويل كل شىء وأغلقها جميعاً . وما أن حل عام ١٥٤٠ حتى كانت كل الأديار وكل الأملاك الديرية ما عدا كنائس دير الكاتدرائية قد انتقلت إلى الملك .

وعلى الجملة فقدأغلق ٥٧٨ ديرا للرهبان وحوالى ١٣٩ دير للراهبات ، واشتت ٦٥٢١ راهبا أو أخا و ١٥٦٠ راهبة . وتخلى حوالى خمسين راهبا وراهبتان من هؤلاء عن الرداء الدينى ، بيد أن الكثيرين توسلوا أن يسمح لهم بمتابعة حياتهم التى ألفوها فى الدير فى مكان آخر(١٦) . وفقد حوالى ١٢٫٠٠٠ شخص ، كانت الدور الدينية تستخدمهم فيما مضى أو كانوا يعتمدون عليها فى معيشتهم ، وظائفهم أو مخصصاتهم من الصدقات . وكانت الأراضى والمبانى المصادرة تدر دخلا سنويا قدره حوالى ٢٠٠٫٠٠٠ جنيه

(٠٠٠ر٠٠٠ر٢٠ دولار ؟) ، غير أن عقود البيع التى أبرمت سريعا خفضت الدخل السنوى للأملاك بعد التأميم إلى حوالى ٠٠٠ر٣٧ جنيه ، ولا بد أن يضاف إلى هذا المبلغ ٠٠٠ر٨٥ جنيه من المعدن الثمين المصادر ، ومن ثم قد يبلغ ما حصل عليه هنرى إبان حياته من جملة الأسلاب والدخل حوالى ٥٠٠ر٤٢٣ر١ جنيه(١٧).

وكان الملك سخيا بهذه الأسلاب . فقد وهب بعض هذه الممتلكات — ومعظمها باعه بأسعار بعد مساومة — لنبلاء صغار أو مواطنين أحرار كبار — تجار أو محامين — ممن أيدوه أو وجهوا سياسته . وتسلم كرومويل أو اشترى ستة أديار لها دخل سنوى قدره ٢٢٩٣ جنيها ، وتسلم ابن أخيه سير رتشارد كرومويل سبعة أديار تدر دخلا قدره ٢٥٥٢ جنيها(١٨) وكانت هذه أصل الثروة التى جعلت من أوليفر الحفيد الثانى لرتشارد رجلا من رجال الثروة المادية والنفوذ فى القرن التالى . وذهبت بعض الأسلاب لبناء سفن وحصون وموانى وبعضها ساعد فى تمويل الحرب وذهب بعضها إلى القصور الملكية فى وستمنستر وتشلسى وهامبتون كورت ، وفقد الملك بعضها فى لعب النرد(١٩) . وأعيدت ستة أديار إلى الكنيسة الانجليكانية لتستخدم كراسى أسقفية ، وخصص مبلغ صغير لمواصلة أعمال البر العاجلة التى كان يقدمها فيما سبق الرهبان والراهبات ؛ وأصبحت الأرستقراطية الجديدة التى نشأت بفضل هدايا هنرى وعقود البيع التى أبرمها ، عضدا قويا للعرش التيودورى ، ودعامة للمصلحة الاقتصادية ضد أى عودة للكاثوليكية . وقد أبادت الأرستقراطية الإقطاعية القديمة نفسها ، أما الأرستقراطية الجديدة ، التى تأصلت جذورها فى التجارة والصناعة ، فإنها غيرت طبيعة الأشراف من السلبية المحافظة إلى عمل إيجابى ، وصبت دما جديدا وطاقة جديدة فى الطبقات العليا بإنجلترا . ولعل هذا — والأسلاب كان مصدر خصب العهد الإليزبيثى .

وكانت نتائج التحلل معقدة بلا حدود . ولعل الرهبان المتحررين قد أسهموا بدور متواضع أو لم يسهموا فى زيادة عدد سكان إنجلترا من حوالى ٢٫٥٠٠٫٠٠٠ عام ١٤٨٥ إلى حوالى ٤٫٠٠٠٫٠٠٠ عام ١٥٤٧[20] وساعدت زيادة مؤقتة فى عدد المتعطلين على تخفيض أجور الطبقات الدنيا جيلا كاملا ، وأثبت ملاك الأراضى الجدد أنهم أكثر جشعا من القدامى[21].

وكانت النتيجة من الناحية السياسية هى زيادة سلطة الملكية ، وفقدت الكنيسة آخر معقل للمقاومة ، وكانت النتائج من الناحية الأخلاقية ازدياد الجرائم والخصاصة والتسول وتقلص الموارد اللازمة لأعمال البر[22]. وأغلق ما يزيد على مائة مستشفى تديرها الأديار ، وقامت السلطات البلدية بتزويد قلة منها بالحاجة . أما المبالغ التى أوصت بها الأرواح الخائفة أو الموقرة للقساوسة، كتأمين ضد نار جهنم أو نار المطهر ،فقد صودرت على أساس أن هناك أملا فى ألا يلحق الموتى أذى ، وانتزع الملك[23]. ٢٣٧٤ من الهبات الموقوفة على إقامة قداسات للأرواح . وكانت أقسى النتائج فى مجال التعليم . فقد كانت أديار الراهبات تهيئ مدارس للبنات ، وكانت الأديار والقساوسة المشرفون على الهبات المخصصة للقداسات قد حافظت على مدارس وتسعين كلية للبنين ، وحلت كل هذه المؤسسات .

وبعد أن ذكرنا الحقائق بإنصاف لا يشوبه إلا تحامل يصـــدر عن اللا وعى ، فإنه يسمح للمؤرخ بإضافة تعليق افتراضى يعترف به . إن جشع هنرى وجور كرومويل هما اللذان ساعدا مدى جيل على تخفيض حتمى فى عدد الأديار الإنجليزية وإضعاف نفوذها . وكانت هذه الأديار قد قامت يوما بعمل يدعو للإعجاب فى مجالات التعليم والبر والعناية بالمرضى فى المستشفيات ، بيد أن إسباغ الصفة العلمانية على هذه الوظائف كان يسير قدماً فى سائر أنحاء غربى أوروبا ، حتى فى المناطق التى كانت تغلب عليها

الكاثوليكية : وكان ضعف الغيرة الدينية والنزعات الدنيوية الأخرى تحتجز تدفق المترهبين على المؤسسات الديرية . وانخفض عدد هؤلاء المترهبين إلى حد بدا أنه لا يتناسب مع فخامة مبانيهم والدخل الذى تدره أراضيهم . ومما يؤسف له أن الموقف قوبل بالاندفاع الفجائى الفظ من كروموبل ، بدلا من خطة وازي الإنسانية ، والأسلم ، وتنحصر فى تحويل المزيد من الأديار إلى كليات .

وكانت الوسيلة التى لجأ إليها هنرى هنا ، كما فعل من قبل فى سعيه للحصول على ابن ، أسوأ من الهدف الذى ينشده . لم يكن هنا بأس فى وضع نهاية ، إلى حد ما ، لاستغلال ورع ساذج بغش يتظاهر بالورع . وإنا لنعرب عن عظيم أسفنا لما حدث للراهبات اللاتى كن فى الغالب الأعم بشقين قياما بالواجب فى إقامة الصلوات والتدريس وأعمال البر ، بل إن المرء الذى لا يستطيع أن يشاركهن إيمانهن الذى لا يتزعزع يجب أن يكون شاكرا لأن لهن مثيلات يمددن يد العون مرة أخرى ، بإخلاص يدوم مدى الحياة ، ويلبين حاجة المرضى والفقراء .

٢ — الايرلندى العنيد ١٣٠٠ — ١٥٥٨

برر الملوك الإنجليز سيطرتهم على إيرلندة على أساس أن قوة معادية فى القارة يمكن فى أى لحظة أن تستخدم هذه الجزيرة المخضرة للقيام بهجوم جانبي على إنجلترا ، وأصبح هذا الاعتبار ، بعد حب السلطة ، أشد قوة عندما فشلت إنجلترا البروتستانتية فى كسب إيرلندة إلى صفها من الكنيسة الرومانية . وكان الشعب الإيرلندى ، الذى يعشق البطولة والفوضى والمشهور بالرجولة والعنف ، والموهبة الشاعرية ، والذى يفتقر إلى النضج السياسي ، يقاوم كل يوم خضوعه لدم أجنبي ولغة دخيلة .

وازدادت سيئات الاحتلال الإنجليزى . وعاد كثير من ملاك الأراضى . الإنجلو — ايرلنديين إلى إنجلترا فى عهد إدوارد الثالث ، ليعيشوا هناك فى يسر على ما تدره إيجارات الأراضى الإيرلندية ، وعلى الرغم من أن المجلس النيابى الإنجليزى ندد مراراً بهذا العمل فإن « مالكية الأرض الغائبة » ازدادت خلال ثلاثة قرون ، لتصبح حافزاً أكبر للثورات الأيرلندية . ومال الإنجليز الذين ظلوا فى إيرلندة إلى الزواج من فتيات إيرلنديات ، وامتزجوا تدريجيا بالدم الإيرلندى ، وألفوا طرق العيش الإيرلندية . وكان المجلس النيابى الإيرلندى ، الذى يسيطر عليه المقيمون الإنجليز ، ويغلب عليه النفوذ الإنجليزى ، تواقا إلى سد هذه البالوعة السلالية فأجاز قانون كلكنى الشهير (١٣٦٦) الذى منع ، مع بعض النصوص السخية التى لا تخلو من حكمة الزواج المختلط أو التربيب أو أى علاقات ألفة أخرى بين الإنجليز والايرلنديين فى إيرلندة وأى حديث بالإيرلندية أو تقليد للعادات الإيرلندية أو ارتداء الزى الإيرلندى بواسطة الإنجليز ، وإلا تعرضوا للسجن وخسارة الممتلكات . ولم يكن يحق لإيرلندى آنذاك أن يستقبل فى أى منظمة دينية إنجليزية ، ولا لمنشدين أو قصاصين إيرلنديين أن يدخلوا بيوتا إنجليزية[٢٤]. وفشل هذا الحظر فقد تألقت الورود الإيرلندية ، وفاقت سلطة القانون واستمر الاندماج السلالى فى تلك المناطق الضيقة مارش أو بوردر أو بيل التى لم يجرؤ الإنجليز على السكنى إلا فيها وحدها(*) .

وكان يمكن إيرلنده إبان حروب الوردتين أن تطرد الإنجليز ، لو أن الزعماء الإيرلنديين اتحدوا ، ولكنهم آثروا النزاع الأخوى ، وشجعهم أحيانا على هذا الذهب الإنجليزى . ووطد هنرى السابع من جديد السلطة

(*) كانت منطقة « بيل » فى عام ١٥٠٠ مقصورة على كونتيات دبلن وميث واوث وجزء من كيلدار .

الإنجليزية فى منطقة بيل ، ودفع نائبه الإقطاعى سير إدوارد بوينجز فى المجلس النيابى الايرلندى « قانون بوينج » المذل (١٤٩٤) ، ونص على أنه ليس للمجلس النيابى الإيرلندى أن ينعقد فى المستقبل حتى تكون كل مشروعات القوانين المقدمة له قد وافق عليها الملك والمجلس الخاص فى إنجلترا .

وأصبحت الحكومة الإنجليزية فى إيرلندة ، بعد أن أضعفت إلى هذا الحد ، أشد الحكومات فى العالم المسيحى عجزا وجورا وفسادا . وكانت حيلتها الأثيرة هى تعيين واحد من سنين زعيما إيرلنديا كمندوب لنائب الملك . وتفويضه فى شراء أو إخضاع الباقين . وحقق جيرالد إيرل كلدار الثامن ، الذى عين على هذا النحو ، شيئاً من التقدم فى هذا الاتجاه وخفف من حدة التمرد بين القبائل ، مما ساعد المظالم الإنجليزية على إبقاء إيرلندة ضعيفة وفقيرة . وعند وفاته (١٥١٣) عين ابنه جيرالد فيتزجيرالد ليخلفه كنائب . وكان لهذا الإيرل التاسع لكلدار سير حياة جارية نمطية للوردات الإيرلنديين . واتهم بالتآمر مع إيرل أف دزموند بالسماح لقوة فرنسية بالنزول إلى أرض إيرلندة ، فاستدعى إلى إنجلترا وحكم عليه بالسجن فى البرج . وأطلق هنرى الثامن سراحه ، وعينه من جديد نائباً لدى وعده بمساعدة القضية الإنجليزية بإخلاص . وسرعان ما أتهم بسوء الحكم وأحضر إلى إنجلترا مرة أخرى وأرسل من جديد إلى البرج حيث مات خلال عام (١٥٣٤) ، وأعلن ابنه المخلص « سلكن توماس » (توماس الحريرى) فتز جيرالد على الفور الحرب على الإنجليز ، وحارب بشجاعة وتهور أربعة عشر شهرا وقهر وشنق (١٥٣٧) .

وفى هذا الوقت كان هنرى الثامن قد أكمل إجراءات انفصاله عن الكنيسة الرومانية . وأمر المجلس النيابى بقحة تميز بها أن يعترف به رئيساً للكنيسة فى إيرلندة ، وكذلك فى إنجلترا ، فأذعن ، وطلب من جميع الموظفين

الحكوميين فى إيرلندة أن يحلفوا يمينا بقبول سيادته الكنسية ، وفرض أن تدفع كل ضرائب العشور الكنسية مذ ذاك إلى الملك . ودخل المصلحون الدينيون إلى الكنائس فى منطقة النفوذ الإنجليزى فى إيرلندة وحطموا المخلفات والتماثيل الدينية . وأغلقت الأديار جميعاً ما عدا قلة فى مكان قصى ، واستولت الحكومة على ممتلكاتها ، وطرد رهبانها على أن يمنحوا معاشا إذا لم يثيروا ضجيجا . ووزعت بعض الأسلاب على الزعماء الإيرلنديين وقبل معظمهم ، بعد أن رشوا على هذا النحو ، ألقاب نبلاء من الملك الإنجليزى ، واعترفوا بسيادته الدينية وأنكروا قسمهم للبابا (١٥٣٩)[٢٥] . وألغى نظام العشيرة ، وأعلن أن إيرلندة مملكة ، وهنرى ملك لها (١٥٤١) .

كان هنرى منتصرا ولكنه فان ، ومات فى خلال خمس سنوات من انتصاره . وبقيت الكاثوليكية فى إيرلندة . واعتبر الزعماء مروقهم حادثا عابرا فى السياسة وظلوا كثالكة (كما فعل هنرى) ، اللهم إلا فيما يختص بتجاهل البابا ، وظل القساوسة الذين أيدوهم فى خدماتهم الدينية وتقبلوها محافظين تماما فى العقيدة . ولم تتعرض عقيدة الشعب لأى تغيير أو بالحرى اكتسبت حيوية جديدة ، لأنها حافظت على عزة القومية فى وجه ملك ينزع إلى الانشقاق . وفيما بعد أمام ملكة بروتستانتية . وأصبح الكفاح من أجل الحرية أشـــد مما كان عليه من قبل ، لأنه كان وقتذاك يدور لصالح الجسد والروح .

٣ – ملك من قمة رأسه إلى اخمص قدميه

كان هنرى فى عام ١٥٤٠ أعظم ملك يحكم حكما مطلقا عرفته إنجلترا . وكان النبلاء النورمنديون القدامى الذين كبحوا جماح وليام الفاتح ، يخضعون صاغرين فى جبن ، ونسوا تقريباً العهد الأعظم (الماجناكارتا) الذى نص

على امتيازاتهم . أما النبلاء الجدد ، الذين أثروا من التجارة وأنعم عليهم الملك ، فقد وقفوا حاجزا أمام الثورات الأرستقراطية أو الدينية . وأذعن له مجلس العموم الذى كان يوما الحامى الغيور للحريات الإنجليزية ، وكان وكلاء الملك وقتذاك قد اختاروه بعناية ، وخول تقريباً سلطات لم يسبق لها مثيل : الحق فى مصادرة الأملاك وتعيين من يشاء خلفا له ، وتجديد العقيدة المحافظة والهرطقة ، وإرسال رجال للإعدام بعد محاكمة مزيفة ، وإصدار إعلانات لها سلطة القوانين الصادرة من المجلس النيابى « كانت روح الاستقلال الإنجليزية فى عهد هنرى تشتعل خافتة فى وقبها وحب الحرية غدا فاترا[٢٦] » . وقبل الشعب الإنجليزى هذا الحكم المطلق بسبب الخوف من ناحية ؛ ولأنه خيل إليه أنه البديل لحرب ورد أخرى . كان النظام أهم من الحرية .

وأغرت نفس البديلات الإنجليز بتحمل سيادة هنرى على الشئون الكنسية ، وعند ما رأى هنرى أن الكثالكة والبروتستانت على استعداد لأن يمسك كل منهما بخناق الآخر ، ورأى أن المواطنين الكاثوليك والسفراء والحكام يتآمرون ضده إلى حد الغزو تقريباً ، اعتقد أن النظام لا يمكن أن يستتب فى الحياة الدينية فى إنجلترا إلا بتحديد الملك للعقيدة والشعيرة ، وقبل ضمنا حالة السلطة فى الدين التى كانت من صنع الكنيسة . وحاول أن يملى من يجب أن يتلو الكتاب المقدس . وعند ما صادر الأساقفة ترجمة تندال للكتاب المقدس ، أمرهم بإعداد ترجمة أفضل ، وعند ما توانوا طويلا سمح لكروميل بتفويض مايلز كوفردال فى إعداد ترجمة جديدة . وظهرت أول نسخة كاملة بالإنجليزية فى زيورخ عام ١٥٣٥ . ونشرت عام ١٥٣٩ طبعات منقحة ، وأمر كروميل بأن يوضع هذا « الكتاب المقدس العظيم » فى كل كنيسة إنجليزية . ومنح هنرى « بدافع من الكرم والطيبة الملكيين » المواطنين امتياز تلاوة الكتاب المقدس فى بيوتهم ، وسرعان ما أصبح تقليدا

يوميا عند كل أسرة إنجليزية تقريبا . ولكنه كان ينبوعا للشقاق والإلهام أيضا ، فقد أنبتت كل قرية مفسرين هواة ، أثبتوا أى شىء أو عكسه بما ورد فى الكتاب المقدس ، وتجادل المتعصبون حوله فى الكنائس ، وتعرضوا لضربات بشأنه فى الحانات[٢٧] . ومنح بعض الرجال الطموحين زوجاتهم أوامر قضائية بالطلاق ، أو احتفظوا بزوجتين فى آن واحد ، بحجة أن هذا عمل سليم أباحه الكتاب المقدس[٢٨] ؛ وأسف الملك لحرية التلاوة التى منحها للناس ، وعاد إلى مظاهرة الكاثوليك ؛ وحث المجلس النيابى عام ١٥٤٣ على سن قاعدة بأنه لا يجوز قانونا حيـــازة الكتاب المقدس إلا للنبلاء والملاك ، ولا يجوز لغير القساوسة الوعظ به أو الجدال فيه علنا[٢٩].

وكان من الصعب على الناس — وحتى على الملك — أن يعرف ما يدور فى ذهن الملك ؛ واستمر الكثالكة يرسلون إلى المحرقة أو المقصلة بسبب إنكارهم سيادته فى الشئون الكنسية ، والبروتستانت بسبب جدلهم فى اللاهوت الكاثوليكى ؛ وعُلِّق فورست وهو رئيس شعبة المتشددين من الفرنسسكان المتمثلين فى جرينوتش ، رفض أن ينكر سلطة البابا ، على نار وهو مكبل بالأغلال ، وشوى ببطء حتى مات (٣١ مايو سنة ١٥٣٧[٣٠]) .

وقبض على جون لامبرت ؛ وهو بروتستانتى بسبب إنكاره وجود المسيح حقيقة فى القربان المقدس ، وحاكمه هنرى بنفسه ، وحكم عليه هنرى بالموت وأحرق فى سمثفيلد (١٦ نوفمبر سنة ١٥٣٨) ومع تزايد تفوذ ستيفن جاردنر أسقف ونشستر مال هنرى أكثر وأكثر نحو العقيدة المحافظة . وفى عام ١٥٣٩ أعلن الملك والمجلس النيابى والمجمع الاكليروسى بـ « قانون المواد الستة » موقف الكنيسة الرومانية الكاثوليكية فى موضوعات الحضور الحقيقى للمسيح وعزوبة رجال الاكليروس وأقسام رهبان الدير والقداسات من أجل

الموتى ، وضرورة الاعتراف السرى أمام قسيس وكفاية تناول القربان المقدس من ضرب واحد . وكل من ينكر شفاها أو كتابة ، الحضور الحقيقى للمسيح ، يتعرض للموت حرقا دون أن تتاح له فرصة لإنكار ما قال أو للاعتراف أو الغفران ، وكل من ينكر أية مادة أخرى يجب أن تصادر أملاكه عند ارتكابه الذنب لأول مرة وتزهق روحه عند ارتكابه له مرة أخرى .

وأعلن أن كل الزيجات التى عقدها القساوسة حتى وقتذاك باطلة ، وأى قسيس يحتفظ بزوجته بعد ذلك يعد مرتكبا لجريمة الخيانة العظمى(٣١) . وكان الناس لا يزالون محافظين من حيث العقيدة ، فوافقوا على هذه المواد ، غير أن كروموويل بذل جهده لتخفيفها عند التطبيق ، وفى عام ١٥٤٠ تحول الملك مرة أخرى ، فأمر بوقف المطاردة بموجب هذا القانون . . . ومع ذلك فإن الأسقفين لاتيمر وشاكستون ، اللذين لم يوافقا على مواد القانون ، عزلا وسجنا . وفى يوم ٣٠ يوليو سنة ١٥٤٠ تعرض ثلاثة من البروتستانت وثلاثة من الكاثوليك للموت فى سمثفيلد فى وفاق تم رغم إرادتهم ، أما البروتستانت فلأنهم حاولوا التشكيك فى بعض العقائد الكاثوليكية ، وأما الكثالكة فلأنهم رفضوا الاعتراف بسيادة الملك على الشئون الكنسية(٣٢) .

وكان هنرى قويا شديداً فى الحكم وفى اللاهوت ، وعلى الرغم من أنه احتفظ بحاشية كثيرة العدد ، وقضى وقتاً طويلا فى التهام الطعام ، فإنه تعب كثيراً فى الاضطلاع بأعباء الحكم . واختار أعواناً مهرة جائرين مثله . وأعاد تنظيم الجيش ، وجهزه بأسلحة جديدة ، ودرس آخر ما توصل إليه الخبراء فى التكتيك والاستراتيجية . وبنى أول أسطول بحرى ملكى دائم طهر السواحل والقناة من القراصنة ، وأعد العدة للانتصارات البحرية التى تمت فى عهد اليزابث ، ولكنه فرض على شعبه مكوساً إلى الحد الذى

يحتمله ، وخفض قيمة العملة مراراً ، وصادر الأملاك الخاصة بحجج واهية ، أو طلب « اشتراكات » ، وأنكر ديونه ، واقترض من آل فوجر ، وروج الاقتصاد الإنجليزى مؤملا أن يعود عليه بدخل إضافى .

وكانت الزراعة فى تدهور ، وكان رق الأرض لا يزال منتشراً . ولم ينقطع تسوير الأراضى لترعى فيها الأغنام وضاعف ملاك الأراضى الجدد ، الذين لم تصدهم تقاليد الإقطاع ، إيجارات الأراضى مرتين أو أربع مرات على مستأجريهم ، بحجة ارتفاع الأسعار ، ورفضوا تجديد عقود الإيجار المنتهية « وشق آلاف من المستأجرين الذين جردوا من أراضيهم المستأجرة طريقهم إلى لندن وطرقوا بشدة أبواب المحاكم لرفع الظلم ، وهو أمر لم يستطيعوا الحصول عليه[٣٣] » .

ورسم مور الكاثوليكى صورة مؤثرة للفلاحين المتسولين[٣٤] ، وندد لاتيمر البروتستانتى بـ « اللوردات الحديثى النعمة الذين يرفعون الإيجارات » ، ورأى مثل لوثر ماضياً مثالياً كاثوليكياً عندما كانت أفئدة الرجال مفعمة بالشفقة والحنان[٣٥] . « وفرض المجلس النيابى عقوبات صارمة على الضرب فى الآفاق والتسول . وكان قانون ١٥٣٠ — ٣١ يفرض على كل من يتسول ، ويكون قادراً جسمانياً على العمل ، سواء كان رجلا أو امرأة ، أن يشد وثاقه إلى عربة وهو عار ويجلد بالسياط فى سائر أنحاء المدينة إلى أن يتلطخ جسده بالدم » . وإذا عاد لارتكاب الذنب مرة أخرى تقطع أذنه ، وإذا ارتكب مرة ثالثة تقطع أذنه الأخرى ، ومهما يكن من أمر فإن ارتكاب الذنب للمرة الثالثة كان يعرض المتسول للإعدام[٣٦] . ووجد الفلاحون المبعدون تدريجياً عملا فى المدن وخففت الإغاثة المقررة الفقراء من وقع الخصاصة . وارتفعت إنتاجية الأرض فى آخر الأمر بالزراعة على نطاق واسع بيد أن عجز الحكومة عن تخفيف التحول كان بمثابة فشل إجرامى قاس للحنكة السياسية .

وأسبغت الحكومة نفسها الحماية على الصناعة بالتعريفات الجمركية : وأفاد أصحاب المصانع من رخص أجر العمل ، الذى تيسر بهجرة الفلاحين للمدن ، وأعادت الطرق الرأسمالية تنظيم صناعة النسيج ، ورفعت طبقة جديدة من الأثرياء ، لتقف إلى جانب التجار فى مساندة الملك . وحل القماش محل الصوف باعتباره أهم صادرات إنجلترا . وكانت معظم الصادرات من الضروريات التى تنتجها الطبقة الدنيا ، وكانت معظم الواردات من سلع الترف التى لا يحصل عليها إلا الأغنياء(٣٧) .

وأفادت التجارة والصناعة من قانون صدر عام ١٥٣٦ يغير أسعار الفائدة بواقع ١٠ فى المائة . وكان ارتفاع الأثمان السريع فى صالح المشروع وبمثابة عقاب حكم به على العمال والفلاحين واللوردات الإقطاعيين من النمط القديم . وارتفعت الإيجارات إلى ١٠٠٠ فى المائة بين عامى ١٥٠٠ و ١٥٧٦(٣٨) . وارتفعت أسعار الطعام من ٢٥٠ إلى ٣٠٠ فى المائة ، وارتفعت الأجور بمقدار ١٥٠ فى المائة(٣٩) . وكتب توماس ستار فى حوالى عام ١٥٣٧ : « أن الفقر يسود الآن إلى حد يقف فيه أمام أى خير حقيقى ومزدهر للجماعة(٤٠) » .

ووجد أعضاء الطوائف الحرفية شيئاً من الفرج فى التأمين والمساعدة المتبادلة ، زودهم بما يسد رمقهم ، أمام الفقر والنار ، غير أن هنرى صادر عام ١٥٤٥ أملاك الطوائف الحرفية(٤١).

٤ — التنين يتقاعد

أى ضرب من الرجال كان هذا الملك الغول ؟ لقد رسم هولبين الصغير ، الذى جاء إلى إنجلترا حوالى عام ١٥٣٦ ، صوراً شخصية لهنرى وجين سيمور . فالكساء الفاخر يكاد يخفى بدانة الملك ، والأحجار الكريمة

وفرو الناقم ، واليد التى تقبض على سيف محلى بالجواهر ، تكشف عن استعلاء السلطة وزهو رجال لم يجد من يقاومه ، والوجه العريض المكتنز ينم على ميل شديد للذات الحسية ، والأنف دعامة قوة ، والشفتان المضمومتان والعينان القاسيتان تنم على طاغية مستبد سريع الغضب بارد إلى حد القسوة . وكان هنرى وقتذاك فى السادسة والأربعين ، فى أوج مجده السياسى ، ولكن بدأ الضعف يدب فى جسده . وقدر له أن يتزوج ثلاثا مرة أخرى ، ومع ذلك لم يرزق بعدها بذرية . ولم ينجب من زوجاته الست سوى ثلاثة أطفال ، عاشوا إلى ما بعد سن الطفولة . وأحد هؤلاء الثلاثة ، وهو إدوارد السادس ، كان معتل الصحة ، ومات فى الخامسة عشرة من عمره ، وظلت مارى عاقراً بائسة عندما تزوجت ، أما اليزابث فإنها لم تجرؤ قط على الزواج ، وربما كان ذلك لشعورها بوجود عائق جسمانى . وأصابت لعنة شبه العقم أو العيب الجسمانى أعظم الأسر الحاكمة اعتزازاً بنفسها فى التاريخ الإنجليزى .

وكان هنرى حاد الذهن وحكمه على الرجال يدل على الفراهة ، وشجاعته عظيمة ، وقوة إرادته هائلة . وكان سلوكه فظا ، ووساوسا تبددت مع شبابه . ومهما يكن من أمر فإنه ظل مع أصدقائه شفوقاً كريماً ، ولطيفاً بشوشاً ، قادراً على كسب ودهم وإخلاصهم . وقد ولد ليكون ملكاً ، وأحيط منذ ولادته بالخضوع والملق ، ولم يجرؤ على معارضته إلا قليلون ، وقد دفنوا بعد أن قطعت رءوسهم . وكتب مور من سجن البرج : « مما يؤسف له كثيرا ولا شك أن نرى أى أمير مسيحى على استعداد لأن يلبى رغباته بوساطة مجلس يركع أمامه ، وبوساطة رجال دين ضعاف . . . والملق ، فاشتط فى ظلم الناس بصورة مخجلة(٤٢) ، كان هذا هو المصدر الخارجى لنكوص هنرى على عقبيه فى الخلق — فقد أدى عدم وجود مقاومة

لإرادته ، بعد وفاة مور ، إلى أن يصبح خائرا معنوياً وبدنياً . ولم يكن أكثر تهاوناً فى الحلس من فرانسيس الأول ويبدو أنه بعد حادث آن بولين قد أصبح أشد تحمساً للزواج بواحدة ، على التوالى ، من شارل الخامس . ولم يكن الانحلال الجنسى أسوأ نقيصة فيه . وكان نهمه للمال لا يقل عن نهمه للسلطة ، وقلما سمح لاعتبارات الإنسانية أن تقف فى وجه استيلائه على الأموال . وليس من شك فى أن استعداده المقسم بالجحود لقتل النساء اللاتى أحبهن أو الرجال ، أمثال مور وكرومويل ، الذين خدموه بإخلاص سنوات طوال ، أمر خسيس ، ومع ذلك يمكن القول أنه لم يسفك من الدماء عشر ما سفكه شارل التاسع حسن النية ، عندما أجاز مذبحة سانت بارتلوميو ، أو شارل الخامس عندما صفح عن نهب روما ، أو الأمراء الألمان عندما حاربوا ثلاثين عاماً للحصول على حقهم فى تحديد المعتقدات الدينية لرعاياهم .

والأصل الداخلى لفساده هو ما تعرضت له إرادته من إحباط متكرر فى الحب والأبوة . فقد خاب أمله طويلا فى الحصول على ابن ، وصد بطريقة خادعة فى طلبه المعقول إعلان بطلان زواجه الأول ، وخدعته (كما اعتقد) الزوجة التى خاطر من أجلها بعرشه ، وفقد سريعاً الزوجة الوحيدة التى أنجبت له وريثاً ، وخدعته فى الزواج امرأة أجنبية تختلف عنه تماماً فى اللغة والمزاج ، وخانته (كما ظن) زوجة خيل إليه أنها ستحقق له آخر الأمر بيتاً تخيم عليه السعادة — ها هو ملك كان يملك إنجلترا بأسرها ، ولكنه حرم من المباهج العائلية التى يستمتع بها أبسط زوج فى مملكته ، وكان يعانى من ألم متقطع بسبب قرحة فى ساقه ، وكافح الثورات والأزمات فى سائر مدة حكمه ، واضطر فى كل لحظة تقريباً أن يتسلح لصد الغزو والخيانة والاغتيال — فكيف كان فى وسع رجل مثل هذا أن ينمو ويصبح سوياً ، أو يتحاشى الفساد والتورط فى الشك والدهاء

والقسوة ؟ وكيف يتأتى لنا ، نحن الذين نغضب من وخز محنة نتعرض لها ، أن نفهم رجلا جمع فى عقله وفى شخصه عاصفة الإصلاح الدينى الإنجليزى وثقله ، وحرم شعبه بخطوات محفوفة بالمخاطر من ولاء جذوره عميقة ، ومع ذلك لا بد أنه كان حرياً بأن يشعر فى روحه المنقسمة بدهشة مفتتة — أحرر أمة أومزق شمل المسيحية ؟

كان الوسط الذى عاش فيه هو الخطر وكذلك السلطة . ولم يكن فى وسعه قط أن يعرف المدى الذى يصل إليه أعداؤه ، أو متى ينجحون . وفى عام ١٥٣٨ أمر بالقبض على سير جيوفرى بول شقيق ريجينالد . وخشى جيوفرى أن يتعرض للتعذيب ، فاعترف بأنه هو وشقيق آخر يدعى لورد مونتاجو ، وسير إدوار فيفيل والمركيز والمركيزة أف إكستر كانوا يتبادلون رسائل تنطوى على خيانة الدولة مع الكاردينال . وظفر جيوفرى بالصفح أما إكستر ومولتاجو وآخرون عديدون فقد شنقوا وشطروا إلى أربعة أقسام (١٥٣٨ — ٣٩) ، وأما ليدى إكستر فقد سجنت ، ووضعت الكونتيسة أف سالزبورى ، والدة بول وإخوته الأشقاء تحت الحراسة . وعندما زار الكاردينال شارل الخامس فى طليطلة (١٥٣٩) يحمل له طلبا لا طائل تحته من بول الثالث يرجو فيه من الإمبراطور أن ينضم إلى فرانسيس فى تحريم التجارة مع إنجلترا[٤٣] ، انتقم هنرى بالقبض على الكونتيسة ، التى كانت وقتذاك فى السبعين من عمرها ، ولعله كان يأمل بالاحتفاظ بها فى البرج ، أن يكبح جماح الكردينال للغزو . كان كل شىء عادلا فى لعبة الحياة والموت .

وبعد أن ظل هنرى عامين دون أن يتزوج أمر كروموبل أن يبحث له عن حلف بالمصاهرة يقوى سلطانه ضد شارل . فنصح كروموبل بالزواج من أن أخت زوجة الأمير المختار لسكسونيا ، وشقيقة الدوق أ ف كليفس الذى كان وقتذاك على خلاف مع الإمبراطور . وآلى كروموبل على نفسه

أن يتم هذا الزواج الذى كان يعلق عليه آمالا بتكوين حلف من الولايات البروتستانتية آخر الأمر ، وبهذا يجبر هنرى على إلغاء المواد الست المناهضة للوثر . وأرسل هنرى المصور هولبين لرسم صورة للسيدة ، ولعل كرومويل أضاف بعض التعليمات للفنان ، وجاءت الصورة ، ورأى هنرى أنها محتملة ، فهى تبدو حزينة ، لا تشجع فى الصورة التى رسمها هولبين ، والمعلقة فى متحف اللوفر ، ولكن تقاطيعها ليست أقل وضوحاً من جين سيمور التى رققت لحظة من قلب الملك .

وعندما جاءت آن بشحمها ولحمها ، ووقعت أنظار هنرى عليها (أول يناير سنة ١٥٤٠) مات الحب لدى أول نظرة . وأغمض عينيه وتزوجها ، وتضرع مرة أخرى أن يرزقه الله بابن يوطد به وراثة العرش فى آل تيودور ، إذ كان مظهر الأمير إدوارد وقتذاك يدل على ضعفه الجسمانى . ولكنه لم يصفح قط عن كرومويل .

وأمر بالقبض على وزيره الذى أفاده أكثر من أى وزير آخر بعد أربعة شهور زاعماً غلطه وفساده . ولم يك يعترض د ، فقد كان كرومويل تابعاً يحظى بأكبر نصيب من الكراهية فى إنجلترا — بسبب أصله ووسائله وخسته وثروته . وطلب فى سجن البرج أن يوقع بيانات يعارض فيها صحة الزواج . وأعلن هنرى أنه لم يكن قد قدم « رضاه الباطنى » عن الزواج ، وأنه لم يدخل بزوجته قط . واعترفت آن بأنها لا تزال عذراء ووافقت على بطلان الزواج ، مقابل معاش يوفر لها سبيل الراحة . وكرهت أن تواجه أخاها ، فاختارت أن تعيش وحيدة فى إنجلترا ، وكان لها عزاء صغير فى أنها دفنت فى مقابر دير وستمنستر عند وفاتها (١٥٥٧) . وقطعت رأس كرومويل يوم ٢٨ يوليو سنة ١٥٤٠ .

وفى اليوم نفسه تزوج هنرى من كاثرين هوارد ، البالغة من العمر

عشرين عاماً ، وهى من أسرة كاثوليكية لا تحيد عن عقيدتها قيد أنملة ، وكان هذا كسباً للحزب الكاثوليكى . وكف الملك عن أن يتقرب من البروتستانت بالقارة ، وعقد صلحاً مع الإمبراطور . وعندما شعر بأنه أصبح أخيراً آمناً فى ذلك الحمى تحول بفكره شمالا معلقاً الآمال على ضم اسكوتلنده ، وبذلك يكمل دائرة الحدود الجغرافية لبريطانيا ويضمن لها الأمن . وصرفته عن هذا ثورة أخرى فى شمالى إنجلترا . وقبل أن يرحل لقمعها وإخماد مؤامرة دبرت وراء ظهره ، أمر بإعدام جميع المسجونين السياسيين فى البرج ومنهم الكونتيسة أ ف سالزبورى (١٥٤١) . وانهارت الثورة وعاد هنرى إلى هامبتون كورت يتخبط فى الهموم ، لينشد السلوى عند ملكته الجديدة .

وكانت كاثرين الثانية أجمل زوجاته ، وتعلم الملك كيف يحبها تقريباً ، وهو يعتمد أكثر من قبل على الخدمات الجديرة بزوجة ، وحمد الله على الحياة الطيبة التى كان يعيشها ، والتى راوده الأمل فى أن يحققها تحت إشرافها ، ولكن فى اليوم الذى ردد فيه تسبيحة الشكر هذه (٢ نوفمبر سنة ١٥٤١) سلمه رئيس الأساقفة كرانمر وثائق تدل على أن كاترين كانت لها علاقات سابقة للزواج مع ثلاثة خاطبين متعاقبين : واعترف اثنان من هؤلاء وكذلك اعترفت الملكة . وقال السفير الفرنسى فى تقرير له : أن هنرى تملكه حزن شديد ، حتى ساد الاعتقاد بأنه جن(٤٤) . وأمضه الخوف من أن تكون لعنة الله قد حلت بكل زيجاته . وكان يميل إلى الصفح عن كاترين ، ولكن قدم إليه دليل على أنها اقترفت الزنا مع ابن عمها بعد زواجها بالملك . وأقرت بأنها استقبلت ابن عمها فى جناحها الخاص فى ساعة متاخرة بالليل ، ولكن حدث هذا فى حضور الليدى روشفورد ، وأنكرت أنها ارتكبت أى ذنب وقتها ، أو فى أى وقت منذ زواجها ، وشهدت ليدى روشفورد بصحة هذه البيانات بقدرما وصل إلى علمها(٤٥). بيد أن المحكمة

الملكية أعلنت أن الملكة مذنبة . وفى يوم ١٣ نوفمبر سنة ١٥٤٢ قطع رأسها فى نفس البقعة التى سقط فيها رأس آن بولين قبل ذلك بست سنوات ، أما عشاقها فقد حكم عليهم بالسجن مدى الحياة .

وكان الملك وقتذاك رجلا محطماً . وأعيت قرحته طب عصره ، وكان الزهرى الذى لم يشف منه تماماً ينتشر ويعيث فساداً فى هيكله(٤٦). وبعد أن فقد لذة الحياة سمح لنفسه بان يصبح كتلة ضخمة من اللحم ، وكان خداه متهدلين ويكادان يغطيان فكيه ، وكادت عيناه الضيقتان أن تختفيا فى تلافيف وجهه . ولم يكن فى وسعه أن يسير من غرفة إلى أخرى دون أن يستند إلى أحد . وأدرك أنه لن يعيش إلا بضع سنوات فأصدر (١٥٤٣) مرسوماً جديداً يحدد فيه وراثة عرشه : يتولاه أولا إدوارد ثم مارى ثم اليزابث ، ولم يذهب إلى أبعد من ذلك ، لأن من تليهم فى سلسلة النسب هى مارى ستيوارت ملكة اسكوتلنده . وقام بمحاولة لكى ينجب ولداً صحيحاً معافى ، بعد أن حثه مجلسه مراراً فبنى بزوجة سادسة (١٢ يوليو سنة ١٥٤٣) . وكانت كاترين بار قد عاشت بعد وفاة زوجين سابقين ، ومع ذلك فإن الملك لم يعد يصر على الزواج من عذارى . وكانت امرأة على حظ من الثقافة والفطنة ، فقامت برعاية مريضها الملك فى صبر ، وصالحته مع ابنته اليزابث ، التى طال إهماله لها ، وحاولت أن تلطف لاهوته ، وتخف حماسته للاضطهاد .

ولم تنقطع المشاعل اللاهوتية حتى نهاية حكمه ، فأحرق ستة وعشرون شخصاً بتهمة الهرطقة فى الثمانى السنوات الأخيرة من عهده . وفى عام ١٥٤٣ أبلغ الجواسيس الأسقف جاردنر أن هنرى فيلمر قال : « إذا كان الرب موجوداً حقاً (فى القربان المقدس) فإنى أكون قد أكلت فى حياتى عشرين ربا » . وأن روبرت تستوود حذر القسيس عند رفع القربان المقدس ، من أن يترك الرب يسقط ، وأن أنتونى بيرسون وصف كل

قسيس يعظ الناس بأى شيء سوى « كلمة الله » — أى الكتاب المقدس — يكون لصاً . وأحرق كل هؤلاء الرجال تنفيذاً لأوامر أصدرها الأسقف الإنجليكانى ، فى مرج أمام القصر الملكى فى وندسور . وانزعج الملك لأنه وجد أن الدليل الذى قدمه شاهد فى هذه القضايا كان قسما زوراً ، وأرسل الجانى الأثيم إلى سجن البرج[٤٧] . وفى عام ١٥٤٦ أدان جاردنر أربعة آخرين ، وأرسلهم إلى المحرقة لإنكارهم وجود المسيح حقاً فى القربان المقدس ؛ وكانت إحداهم امرأة شابة تدعى آن اسكيو تشبثت بهرطقتها طوال خمس ساعات من الاستجواب وقالت فى محاكمتها : « إن ما تسمونه ربكم قطعة من الخبز ، والدليل على ذلك أنكم لو تركتموها فى صندوق لمدة ثلاثة شهور لتعفنت » . وعذبت حتى أشرفت على الموت لكى تكشف عن أسماء هراطقة آخرين ، وظلت صامتة لم تنبس ببنت شفة ، وهى تتوجع ، وسارت إلى حتفها وهى تقول : « إننى سعيدة كواحدة كتب عليها أن تتجه للسماء[٤٨] » ؛ ولم يكن للملك دور فعال فى هذه المطاردات غير أن الضحايا استغاثوا به دون جدوى .

واشتبك عام ١٥٤٣ فى حرب مع اسكتلنده و « وأخيه المحبوب » فرانسيس الأول ، وسرعان ما وجد نفسه متحالفا مع عدوه القديم شارل الخامس ، ولكى يمول حملاته طالب رعاياه بتقديم « قروض » جديدة ، وامتنع عن سداد قروض عام ١٥٤٢ وصادر الهبات للجامعات[٤٩] . وحمل إلى ميدان القتال ليشترك فيها شخصياً وأشرف على حصار بولونيا والاستيلاء عليها . وغزت جيوشـــه اسكتلنده ، وهدمت أديار ملروز ودرايبورج وخمسة أديار أخرى ، ولكنها هزمت هزيمة منكرة فى أنكرم مور (١٥٤٥) ، وأبرم اتفاق فيه فائدة مع فرنسا (١٥٤٦) ، واستطاع الملك أن يموت فى سلام .

وكان وقتذاك ضعيفا واهناً إلى حد أن الأسر النبيلة أخذت تتنازع

فيما بينهما على من تكون له الوصاية على إدوارد الصغير . وكان إيرل أف سورى ، وهو شاعر ، واثقا أن أباه الدوق أف يورك سوف يكون وصيا إلى حد أنه اتخذ درعا وضع عليه شارة لا تصلح إلا لولى العهد، وقبض هنرى عليهما معا فاعترفا بأنهما مذنبان وقطع رأس الشاعر فى التاسع من يناير عام ١٥٤٧ ، أما الدوق فقد سجل فى قائمة انتظار الذين ينفذ فيهم حكم الإعدام بعد السابع والعشرين فورا .

ولكن الملك مات فى اليوم الثامن والعشرين . وكان فى الخامسة والخمسين من عمره ، ولكنه عاش عمره عشرات المرات . وترك مبلغا كبيرا . يدفع لإقامة قداسات لكى ترقد روحه فى اطمئنان .

وقد دام عهده سبعة وثلاثين عاما ، حول إنجلترا إلى بلاد أخرى أعمق مما كان يتصور أو يشتهى : وفكر فى أن يخلف البابا ، ويترك العقيدة القديمة التى عودت الناس على القيود الأخلاقية والخضوع للقانون دون أن يمسها بتغيير ، ولكن تحديه للبابوية الذى صادفه التوفيق ، وتشتيته السريع للرهبان والمخلفات ، وإذلاله المتكرر لرجال الإكليروس ، ونزعه لملكية الكنيسة وإسباغ الصفة العلمانية على الحكومة ، كل ذلك أضعف الهيبة الكنسية والسلطة الدينية إلى حد كبير ، مما أدى إلى حدوث التغييرات اللاهوتية التى أعقبت ذلك فى عهدى إدوارد واليزابث . كان الإصلاح الدينى الإنجليزى أقل اعتمادا على العقيدة من الإصلاح الدينى الألمانى ، ولكنهما أثمرا نفس النتيجة البارزة — وهى انتصار الدولة على الكنيسة . ونجا الشعب من براثن بابا معصوم ليقع فى أحضان ملك مستبد .

ولم يغنم شيئا من الناحية المادية فقد دفع ضرائب العشور كما دفع من قبل ، غير أن صافى الفائض عاد إلى الحكومة . وكان كثير من الفلاحين يزرعون وقتذاك أراضيهم المســتأجرة « للورداتهم المحدثين » ، وكانوا

أشد قسوة من الرهبان الذين اتخذ منهم كارلايل مثالا فى كتابه : « الماضى والحاضر » .

ومن رأى وليام كوبت أن « الإصلاح الدينى الإنجليزى » كان فى الحقيقة من وجهه الاجتماعى ، ثورة قام بها الأغنياء ضد الفقراء(٥٠) ، وتشير سجلات الأسعار والأجور إلى أن العمال الزراعيين وعمال المدن كانوا أحسن حالا عند ما ارتقى هنرى العرش منهم عند وفاته(٥١) .

وكانت المظاهر الأخلاقية لهذا العهد سيئة . فقد ضرب الملك للأمة مثلا يدل على فساد خلقه بانغماسه فى علاقات جنسية وبانتقاله الفظ فى خلال بضعة أيام من مصرع زوجة إلى فراش الزوجة التالية وبقسوته الهادئة وعدم أمانته المالية وجشعه المادى . وأشاعت الطبقات العليا الفوضى فى البلاط والحكومة بما دبرته من مؤامرات فاسدة . وتبارى الأعيان مع هنرى فى الاستحواذ على ثروة الكنيسة ، وابتز رجال الصناعة عمالهم وابتزهم الملك : ولم تكمل الصورة باضمحلال البر لأنه بقى هناك الخضوع الحقير لحاكم مطلق أنانى من شعب يرتجف هلعا . ولم ينقذ الموقف سوى شجاعة الشهداء البروتستانت والكاثوليك وأشرفهم فيشر ومور قد اضطهدا فى دورهما .

وإذا تأملنا بمنظور واسع هذه السنوات المريرة نجد أنها كانت تحمل بعض الثمار الطيبة . ولم يكن هناك بد من الإصلاح الدينى . ولا بد أن نذكر أنفسنا مرارا وتكرارا بهذا ونحن نسجل شيطنة القرن الذى ولد فيه ، كان الانفصام عن الماضى عنيفا ومؤلما ولم يكن فى الإمكان زعزعة قبضته على أذهان الناس إلا بتوجيه ضربة وحشية . وعندما أزيل الكابوس أصبحت روح القومية ، التى سمحت فى أول الأمر بالاستبداد ، حماسة شعبية وقوة خلاقة . وأدى تخلص الشئون الإنجليزية من البابوية إلى ترك الناس تحت رحمة الدولة حينا من الزمن ، ولكنه أجبرهم فى المدى الطويل على الاعتماد

على أنفسهم فى كبح جماح حكامهم والمطالبة ، عقدا وراء عقد ، بقدر من الحرية يكافئ ذكاءهم . ولن تكون الحكومة قوية دائما كما كانت فى عهد هنرى الرهيب ، بل سوف تكون ضعيفة فى عهد ابن عليل وابنة تطوى جوانحها على مرارة شديدة ، ثم تنهض الأمة بعد أن تتفجر طاقتها المنطلقة من عقالها فى عهد ملكة مذبذبة ، ولكنها ظافرة ، وترفع نفسها إلى مرتبة زعامة الفكر الأوروبى . ولو لم تكن إنجلترا قد تحررت على يد أسوأ وأقوى ملوكها فربما كان قدر للعالم أن لا يرى اليزابث وشكسبير .

الفصل السادس والعشرون

إدوارد السادس وماري تيودور

١٥٤٧ — ١٥٥٨

١ — حماية سومرست

لقد رسم هولبين صورة تعد من أعظم صوره على الإطلاق جاذبية للصبي البالغ من العمر عشر سنوات ، والذى ارتقى عرش إنجلترا باسم إدوارد السادس ، وذلك قبل ارتقائه العرش بأربع سنوات : قلنسوة مزينة بالريش ، وشعراً أحمر ، ورداء له بنيقة من فرو للقاقم ، ووجهاً فيه من الدعة والرقة التى تنم على قلق دفين ، ما يدفعنا إلى الظن بأنه ورث كل هذه الصفات من جين سيمور ولم يرث شيئاً من هنرى الثامن . ولعله ورث عنها ضعفها الجسمانى الذى جعلها تدفع حياتها فداء له ، ولم يوفق يوما فى الحصول على القوة التى تعينه على الحكم . ومع ذلك فإنه قام بالتبعات الملقاة على عاتقه باعتباره أميراً أو ملكاً بإخلاص نبيل ، فدرس اللغات والجغرافية وفن تدبير الحكم والحرب بشغف ، وفرض رقابة دقيقة على كل شئون الدولة التى تصل إليها معرفته ، وأبدى للجميع ما عدا الكثالكة المنشقين شفقة عظيمة وحسن نية كبيرة ، إلى حد أن إنجلترا ظنت أنها دفنت غولا لتتوج قديساً . وتعلم على يد كرانمر فأصبح بروتستانتيا متحمساً ، ولم يكن من أنصار توقيع أى عقوبة قاسية على من يتهم بالهرطقة ، ولكنه كره أن يترك أخته غير الشقيقة مارى تحضر القداس ، لأنه كان يؤمن بإخلاص أن القداس أشد ضروب عبادة الأوثان كفراً . وقبل مسروراً القرار الذى اتخذه المجلس

الملكى باختيار عمه إدوارد سيمور — الذى أنعم عليه حالا بلقب دوق أف سومرست — وصيا عليه ، وقد آثر انتهاج سياسة بروتستانتية .

كان سومرست رجلا على حظ من الذكاء والشجاعة ، ويتصف بتماسك ، يشوبه بعض النقص ، وإن كان فى عصره من السجايا البارزة ، وكان وسيما رقيق الحاشية كريما ، وأخجل بسيرته الطبقة الأرستقراطية الجبانة التى كانت لا تنشد إلا مصلحتها ، وتغفر له كل شيء إلا تعاطفه مع الفقراء . وعلى الرغم من أنه كان يتمتع بسلطة مطلقة تقريباً ، فإنه قضى على الحكم المطلق الذى أقامه هنرى السابع وهنرى الثامن ، وسمح للناس بحرية أكبر فى التعبير بالكلام ، وخفض عدد الأفعال التى كانت تعد فيما سبق من قبيل خيانة الدولة أو الخيانة العظمى ، واقتضى وجود دليل أقوى للحكم بثبوت الجريمة ، وأعاد إلى أرامل المحكوم عليهم صداقهن ، وألغى القوانين الجائرة الخاصة بالدين والتى صدرت فى العهد السابق . وظل الملك رئيساً للكنيسة الإنجليزية . وكان الحديث فى غير خشوع عن القربان المقدس جريمة تستحق العقاب ، بيد أن القانون نفسه أمر بأن يقدم القربان المقدس بالصورتين المعروفتين ، ونص على أن الإنجليزية هى لغة الصلاة ، ورفض المطهر والقداسات للموتى . وعاد البروتستانت الإنجليز الذين كانوا قد فروا من إنجلترا ومعهم لقاح لوثر وزوينجلى وكالفن ، وعندما اشتم مصاحون أجانب عبير الحرية الجديدة ، جاءوا معهم إلى الجزيرة المضطربة بأناجيل متعددة .

وأقبل بيتر مارتير فيرمجلى ومارتن بوسر من ستراسبورج ، وجاء برنادرينو أوكينو من أجسبورج ، وجان لاسكى من إمدن . وعبر المنكرون للتعميد والقائلون بوحدة الكنيسة القناة للتبشير فى إنجلترا بهرطقات أفزعت البروتستانت بقدر ما أفزعت الكاثوليك . وأزالت الجماهير محطمة الأصنام فى لندن الصلبان والصور والتماثيل من الكنائس ، ووعظ نيكولاس ريدلى ، عميد كلية بمبروك ، بجامعة كامبردج بعنف ضد الصور الدينية والماء المقدس ،

ولكى يتفوق عليهم جميعاً رئيس الأساقفة كرانمر « أكل اللحم علنا فى الصوم الكبير ، وهو أمر لم يشهده أحد قط من قبل مذ أصبحت انجلترا بلدا مسيحياً[1] » . ورأى المجلس الملكى أن هذا قد تجاوز الحد ، ولكن . ومرست تغلب عليه ، وأطلق الحرية للإصلاح الدينى ، وأصدر المجلس النيابى (١٥٤٧) برئاسته أمراً بنزع كل صورة على جدار كنيسة أو نافذتها تشيد بذكر نبى أو حوارى أو قديس « حتى لا تبقى هناك أى ذكرى له نفسه » . وحطم معظم الزجاج الملون فى الكنائس وسحقت أغلب التماثيل ، واستبدل بالصلبان شعارات ملكية ، واتخذت الجدران المبيضة بالكلس والنوافذ ذات الزجاج الأبيض لونها من ديانة إنجلترا .

وكان فى كل محلة كفاح مرير من أجل فضة الكنيسة وذهبها ، واستولت الحكومة عام ١٥٥٢ على ما تبقى . وبقيت تقريبا كاتدرائيات القرون للوسطى الفخمة .

وكان الأسقف كرانمر هو الذى تزعم حركة القيام بهذه التغيرات ، وكان خصماها الكبيران أدموند بونر ، أسقف لندن ، وستيفن جاردنر ، أسقف ونشستر ، وقد أمر كرانمر بإرسالهما إلى سجن فليت (*) . وفى غضون ذلك كان الأسقف يقوم منذ سنوات بمحاولة ليقدم فى كتاب واحد بديلا لكتاب القداس وكتاب الصلوات عند الكنيسة المغلوبة على أمرها . وساعده بيتر مارتير وعلماء آخرون ، بيد أن هذا الكتاب الأول للصلاة العامة (١٥٤٩) كان أصلا ثمرة جهد شخصى لكرانمر ، امتزجت فيه الحماسة للعقيدة الجديدة بإحساس رقيق بجمال رزين فى الشعور واللفظ بل أن ترجماته من اللاتينية فيها سحر عبقريته .

(*) سجن فى لندن أطلق عليه هـذا الاسم بسبب قربه من نهر فليت ، وهو مصب (منطقى الآن) لنهر التيمس .

ولم يكن الكتاب ثوريا تماما فقد أخذ ينهج بعض السوابق اللوثرية مثل رفض سمة التضحية فى القداس ، ولكنه لم ينكر أو يؤكد التجسيد ، واحتفظ بالكثير من الشعيرة الكاثوليكية ، وكان يمكن قس من أنصار الكنيسة الرومانية لا يدقق كثيراً أن يقبلها . ولم يقدمه كرانمر إلى المجمع الاكليروسى بل قدمه إلى المجلس النيابى ، ولم تكن هذه الهيئة العلمانية تطوى بين جوانحها أى تبكيت مصدره سلطة قضائية فى النص على شعيرة أو عقيدة دينية . وأصبح الكتاب قانونا للمملكة ، وصدرت الأوامر لكل كنيسة فى إنجلترا بالعمل به . وأعيد سجن بونروجاردنر ، وكانا قد أطلق سراحهما فى عفو عام ١٥٤٩ ، وذلك عندما رفضا الاعتراف بحق المجلس النيابى فى سن تشريع فى مجال الدين . وسمح للأميرة مارى بحضور قداس فى خلوة بجناحها .

ونشأ موقف دولى خطير أدى إلى تهدئة الجدل العنيف بين الكثالكة والبروتستانت إلى حين . وطلب هنرى الثانى ملك فرنسا الجلاء عن بولونيا ، وعندما رفض طلبه أعد لحصارها ، والحق إن مارى ستيوارت ، ملكة الاسكتلنديين ، وكانت وقتذاك فى الخامسة من عمرها وتقيم فى فرنسا ، كانت حرية بأن تدخل اسكتلندة فى الحرب . وعندما علم سومرست أن الاسكتلنديين يتسلحون ويثيرون فتنة فى إيرلندة قاد قوة عبر بها الحدود وهزمهم فى بنكى كليو (١٠ سبتمبر سنة ١٥٤٧) ، وكانت الشروط التى عرضها على الاسكتلنديين سخية وتدل على بعد النظر : لن يتعرض الاسكتلنديون إلى التفريط فى حريتهم أو مصادرة أملاكهم ، وتتحد اسكتلندة وإنجلترا فى « إمبراطورية بريطانيا العظمى » . ولكل أمة أن يكون لها حكم ذاتى تطبق فيه قوانينها الخاصة ، ولكن كلا البلدين تحكمهما ، بعد الحكم الجارى ، ذرية ملكة الاسكتلنديين ، وكان هذا على وجه الدقة الاتحاد الذى تم فى عام ١٦٠٣ ، اللهم إلا إذا استثنينا أنه يسر عودة الكاثوليكية

إلى إنجلترا وتواصلها فى اسكتلندة : ورفض الكثالكة فى اسكتلندة المشروع خشية أن تصل عدوى البروتستانتية الإنجليزية إلى بلادهم ، وإلى جانب هذا كان النبلاء الاسكتلنديون يتلقون مرتبات من الحكومة الفرنسية ، وكانوا يرون أن عصفوراً فى اليد خير من عشرة على الشجرة .

وأحبطت مساعى سومرست فى سبيل السلام وواجه الحرب مع فرنسا ، وجاهد أن يرسى دعائم مصالحة بين عقائد لا تعرف المصالحة فى الوطن ، وترامى إلى أسماعه دقات متجددة لطبول ثورة زراعية فى إنجلترا ، فشرب كأس السلطة حتى الثمالة عند ما دبر شقيقه مؤامرة للإطاحة به . ولم يقنع توماس سيمور بأن يكون اللورد أمير البحار وعضو المجلس الخاص بل كان يريد أن يصبح ملكاً . فتودد إلى الأميرة مارى ثم إلى الأميرة اليزابث ، ولكن عبثاً . وتلقى مالا مسروقاً من دار السكة وأسلاباً من القراصنة الذين سمح لهم بالدخول فى القناة ، وعندما حصل على الأموال اللازمة حشد مخازن سرية للأسلحة والذخيرة . واكتشفت مؤامرته ، واتهمه إيرل وارويك وإيرل سوثهامبتون ، وأدانه مجلسا البرلمان بالإجماع تقريباً ، وحكم عليه فى ٢٠ مارس سنة ١٥٤٩ بالإعدام ، وحاول سومرست أن يحميه ، ولكنه فشل ، وسقطت وضاعت هيبة الحامى بسقوط رأس أخيه :

وألحقت ثورة كيت الخراب الشامل بسومرست . وأوضحت تلك الثورة مدى ما تتسم به من شـــذوذ ظاهر ، فبينما كانت ثورة الفلاحين فى ألمانيا بروتستانتية ، كانت فى إنجلترا كاثوليكية ، وفى كل حالة كان الدين مظهراً للاستياء من الحالة الاقتصادية ، وفى إنجلترا كان المظهر كاثوليكياً لأن الحكومة كانت وقتذاك بروتستانتية . وكتب فرود البروتستانتى يقول : « فى التجربة التى خاضها فقراء المزارعين كانت زيادة معاناة الأشخاص نتيجة رئيسية للاصلاح الدينى(٢) » .

ومما يفاخر به رجال الدين البروتستانت فى هذا العهد — كرانمر ولاتيمر وليفر كراولى ، أنهم استنكروا الاستغلال الشديد للفلاحين ، ولقد ندد سومرست فى غضب شديد باغتصاب الملاك الجدد « الذين برزوا من الحضيض » لثروة المدينة(٣) .

ولم يكن فى وسع المجلس النيابى أن يفكر فى وسائل علاج أكثر حكمة من إجازة قوانين صارمة ضد التسول ، وأن يوجه الكنائس بأن تتولى جمع تبرعات للفقراء كل أسبوع : وأرسل سومرست لجنة تتقصى الحقائق عن الأراضى المسورة والإيجارات المرتفعة ، وقوبلت بمقاومة مستورة حيناً أو صريحة حيناً آخر من ملاك الأراضى ، وأرهب المستأجرون إلى حد العمل على إخفاء أخطائهم ، ورفض المجلس النيابى الأخذ بالتوصيات المتواضعة للجنة وكان يمثل الأعيان فيه ملاك المناطق الزراعية . وافتتح سومرست محكمة خاصة فى داره لسماع شكاوى الفقراء ، وانضم عدد من النبلاء ، أخذ يتزايد يوماً بعد يوم ، ويتزعمهم جون دولى ، إيرل أف وارويك ، إلى حركة تستهدف خلعه :

ولكن الفلاحين كانوا وقتذاك غاضبين بسبب الأخطاء المتراكمة وفشل القضايا المرفوعة لرد الحيف ، فانفجروا فى ثورة امتدت من أقصى إنجلترا إلى أدناها ، وثارت أولا سومرستشاير ثم ويلتز وجلوسستر شاير ودورست وهامبشاير وبركس واكسفورد وبكنجهام فى الغرب كورنوول وديفون ، وفى الشرق نورفولك وكنت :ونظم روبرت كنت وهو من صغار ملاك الأراضى فى نورويتش ، الثوار وقبض على زمام الحكم البلدى وأقام كومونا للفلاحين تولى حكم المدينة وما وراءها شهراً : وضرب كنت مخيماً عسكر فيه ١٦٫٠٠٠ رجل ، وهناك كان يجلس يومياً تحت شجرة سنديان الحكم بين ملاك الأراضى المذنبين الذين قبض عليهم الفلاحون . ولم يكن متعطشا للدماء ، فالذين أدانهم وحكم عليهم سجنوا وقدم إليهم الطعام . ولم يكن يقيم وزناً كبيراً لحقوق

المملكة وصكوكها وأمر رجاله بأن ينقبوا فى الأراضى الريفية المجاورة وأن يقتحموا المنازل فى الضياع ، ويصادروا كل الأسلحة ويسوقوا كل الماشية ، ويستولوا على كل المؤون حيثما وجدت لصالح الكومون . أما الأغنام ، وهى أكبر خصوم للفلاح فى الانتفاع بالأرض ، فقد جمع منها ٢٠٠٠٠ رأس ، ووزعت للاستهلاك فى كثير من السرف ، « عجول لا تحصى » وبجع وايلات وبط وغزلان وخنازير . ومع ذلك فقد حافظ كت وسط هذه الوليمة على نظام عجيب ، بل وسمح لوعاظ بدعوة الرجال إلى التخلى عن الثورة . وشعر سومرست بكثير من التعاطف مع الثوار ، ولكنه اتفق الرأى مع وارويك على تشتيتهم ، لئلا يهدم البناء الاقتصادى بأسره فى الحياة الإنجليزية . وأنفذ وارويك مرة أخرى لقتالهم ومعه جيش كان قد حشد حديثاً للقتال فى فرنسا . وعرض على الثوار منحهم عفوا عاما ، إذا عادوا إلى بيوتهم وآثر كت القبول ، بيد أن بعض المتهورين رأوا حسم الأمر بالمعركة ، فأذعن كت لهم . وتقررت النتيجة يوم ١٧ أغسطس سنة ١٥٤٩ ، وانتصر تكتيك وارويك ، وقتل ٣٥٠٠ ثائر ، ولكن عندما استسلم الباقون قنع وارويك بشنق تسعة ، وأرسل كت وأحد أشقائه إلى السجن فى لندن ووصلت أنباء الهزيمة إلى جماعات الثوار الأخرى فخارت عزيمتهم ، ووضعت جماعة إثر أخرى أسلحتها ، بعد أن وعدت بالحصول على عفو عام . واستخدم سومرست نفوذه لإطلاق سراح معظم الزعماء وبقى أشقاء كت على قيد الحياة إلى حين .

واتهم الحامى بأنه شجع على الثورة بتعاطفه الصريح مع الفقراء ، ووصم بالفشل فى الشئون الخارجية لأن فرنسا كانت وقتذاك تحاصر بولونيا . واتهم بحق بالسماح بالفساد بين موظفى الحكومة وتخفيض قيمة العملة ومضاعفة ثروته وبناء بيت سومرست الفخم ، وسط الظروف التى أشرفت فيها الأمة على الإفلاس . وتزعم واورويك وسوثهامبتون حركة لإقصائه عن مقعده ،

وكان معظم النبلاء على استعداد للتغاضى عن ثروته ، ولكنهم لن يغفروا له أبدا عطفه على فلاحيهم ، فانتهزوا الفرصة للانتقام . وفى ١٢ أكتوبر سنة ١٥٤٩ سيق الدوق أف سومرست باعتباره سجينا فى موكب اخترق شوارع لندن وسجن فى البرج .

٢ - حماية وارويك (١٥٤٩ - ٥٣)

كان أعداء سومرست رقيقى الحاشية بمقاييس ذلك العهد . وحرم من الأملاك التى اكتسبها إبان وصايته على العرش ، وأطلق سراحه يوم ٦ فبراير سنة ١٥٥٠ ، واسترد عضويته فى المجلس الملكى فى مايو : ولكن وارويك كان وقتذاك حامى المملكة .

وكان مكيافيليا صريحاً ، وعلى الرغم من أنه كان ينزع فى أعماق نفسه إلى الكاثوليكية إلا أنه سلك نهجاً بروتستانتيا ، لأن خصمه سوثهامبتون كان الزعيم الذى ارتضاه الكاثوليك لهم ، وكان أغلب النبــلاء مرتبطين ماليا بالعقيدة الجديدة . وقد تعلم جيدا فن الحرب ولكنه أدرك أنه لن يستطيع أن يحتفظ ببولونيا أمام فرنسا التى تملك ضعف موارد إنجلترا ، معتمدا على حكومة مفلسة وشعب معدم ، وسلم المدينة إلى هنرى الثانى ووقع معاهدة صلح مهينة كان لا بد منها (١٥٥٠) .

وفى ظل سيطرة ملاك الأراضى من النبلاء أو العامة وافق المجلس النيابى (١٥٤٩) على قانون يعاقب بشدة على ثورة الفلاحين . وأيد قانون صريح وجود الأراضى المسورة ، وألغيت الضرائب التى كان سومرست قد فرضها على الأغنام والصوف لكى تفتر همة الناس فى إقامة الحظائر . ونص القانون على عقوبات صارمة توقع على العمال الذين يتحدون لرفع أجورهم(٤) ، وأعلن عدم شرعية الاجتماعات التى تعقد لمناقشــة تخفيض الإيجارات أو الأسعار ، ومصادرة ممتلكات الأشخاص الذين يحضرونها . وشنق روبرت

كت وأخوه ، واشتد الفقر ، بيد أن دور البر التى اكتسحتها الثورة الدينية لم تنشأ دور بدلا منها ، وأصبح المرض متوطنا ، ولكن المستشفيات كانت مهجورة . وتضور الناس جوعا ، ولكن العملة خفضت قيمتها مرة أخرى وارتفعت الأسعار . ثم إن ملاك الأراضى فى إنجلترا الذين كانوا أقوياء فى يوم من الأيام أخذوا يهلكون ، وكان أفقر الفقراء يغرقون فى بحر الهمجية[٥] . وكانت الفوضى الدينية لا تقل عن الفوضى الاقتصادية ، وظلت أغلبية الناس كاثوليكية[٦] ، بيد أن انتصار وارويك على سومرست تركهم بلا قائد وشعروا بضعف موقف الذين يظاهرون الماضى . وأدى انهيار سلطة القساوسة الروحية والأدبيـــة ، وكذلك عدم استقرار الحكومة وفسادها إلى السماح لا بازدياد الفجور فحسب ، ولكن إلى استفحال الهرطقة ، بصورة أفزعت الكثالكة والبروتستانت على السواء . ووصف جون كليمنت (١٥٥٦) « الأنواع العجيبة من الطوائف التى احتشدت فى كل مكان لا من أنصار البابوية فحسب . . . ولكن من الأريوسيين والمنكرين للتعميد وكل صنوف الهراطقة الآخرين أيضاً . . . بعضهم ينكر أن الروح القدس هو الرب ، والبعض ينكر الخطيئة الأولى ، والبعض الآخر ينكر القدر . . . . وعدد لا يحصى من أمثال هؤلاء ، يقصر بنا المقام عن ذكرهم[٧] . وكتب روجر هتشنسون (حوالى عام ١٥٥٠) عن « الصدوقيين والفاسقين (أحرار الفكر) ، الذين يقولون : « إن الشيطان » ليس إلا . . . غرام دنس بالجسد . . . . وأنه ليس هناك موضع للطمأنينة أو العذاب بعد هذه الحياة الدنيا ، وأن الجحيم ليس إلا ضميراً يائساً يعذب صاحبه ، وأن الجنة ضمير مبتهج ساكن مرح[٨] » .

وتحدث جون هوبر ، أسقف جلوسستر البروتستانتى فقال : « هناك من يقول إن روح الإنسان ليست أفضل من روح حيوان ، وأنها فانية وهالكة ، وهناك أشقياء يتجاسرون فى اجتماعاتهم على القول بأن

المسيح ليس هو المخلص لنا ، بل يذهبون إلى أن الطفل المبارك موُذ ومحتال[٩] » .

وأفاد الناس من الحرية التى منحها لهم سومرسث فطعن جناح متهور من البروتستانتية فى الدين القديم طعنا قاسيا وتهكم طلبة جامعة أكسفورد بالقداس بمحاكاته فى مسرحياتهم الهزلية ، ومزقوا كتب القداس إربا ، واختطفوا الخبز المقدس من المذبح ووطأوه بالأقدام . وأطلق وعاظ لندن على هؤلاء القساوسة اسم : « عفاريت بغى بابل » — أى البابا[١٠] . والتقى رجال الأعمال فى مؤتمرات بكاتدرائية سانت بول ، واجتمع هناك الشبان من ذوى النخوة وقاتلوا وقتلوا . وكانت الحماية الجديدة وقتذاك بروتستانتية على التحقيق . وعين المصلحون الديليون فى أسقفيات بشرط أن يحولوا جانبا من دار الأسقفية إلى رجال الحاشية الذين كان لهم الفضل فى تعيينهم[١١] ، وقضى المجلس النيابى (١٥٥٠) بإزالة كل اللوحات والتماثيل من أى كنيسة فى إنجلترا ما عدا « الصور التذكارية للملوك أو النبلاء الذين لم يسلكوا قط فى عداد القديسين » وأتلفت كل كتب الصلاة[١٢] ما عدا كتاب كرانمر . وصودرت أو بيعت ووهبت الثياب الكهنوتية والقباءات وكسوة المذبح ، وسرعان ما ازدانت بها بيوت النبلاء[١٣] . وأصدر المجلس أمراً بمصادرة كل آنية مخصصة للتبرعات بقيت فى الكنائس بعد عام ١٥٥٠ لصالح الخزنة . وانتزع المجلس النيابى فيما بعد للحكومة العملات التى فى صناديق التبرعات للفقراء بالكنائس[١٤] . ووجدت أموال أخرى للحكومة أو لموظفيها بإلغاء المنح الدراسية للطلبة الفقراء ومنع الأستاذيات المعانة من الدولة بالجامعات ، والتى أنشأها هنرى الثامن[١٥] . وأوصى المجلس النيابى لعام ١٥٥٢ بأن يبقى رجال الإكليروس بلا زواج ولكنه أذن لهم بالزواج إذا ثبت أن العفة تضنيهم .

وكان الاضطهاد الديني للهراطقة ، الذى قام به الكثالكة منذ عهد بعيد ، قد نهض به وقتــذاك البروتستانت فى إنجلترا ، وكذلك فى سويسرة وألمانيا اللوثرية ، وذلك بمطاردة الهراطقة والكثالكة . وأعد كرانمر بيانا بالهرطقات التى يعاقب مرتكبوها بالإعدام إذا لم يرتدوا عنها ، وتضمنت تأكيد وجود المسيح حقا فى القربان المقدس أو السيادة الكنسية للبابا ، وإنكار الوحى فى العهــد القديم ، أو الطبيعتين فى المسيح أو التزكية بالإيمان[١٦] . وذهبت جوان بوشر الكنتيــة إلى المحرقة لشكها فى تجسد الأقنوم الثانى (١٥٥٠) . وقالت لريدلى ، أسقف لندن البروتستانتى الذى توسل إليها أن تتراجع عما تقول : « لقد أحرقتم آن أسكيو منذ عهد غير بعيد من أجل قطعة من الخبز (لإنكارها التجسد) ، ومع ذلك حدث أن آمنتم بالعقيدة التى أحرقتموها من أجلها ، وأنتم سوف تحرقوننى الآن من أجل قطعة من اللحم (تشير إلى العبارة الواردة فى الإنجيل الرابع . « لقد صنعت الكلمة لحما ، وسوف تؤمنون بهذا أيضا آخر الأمر[١٧] » . ولم يحرق فى عهد إدوارد إلا هرطيقان ، ومهما يكن من أمر فإن كثيراً من الكثالكة سجنوا لحضورهم القداس أو لانتقادهم علنا العقيدة المحافظة المقبولة[١٨] . وأقيل القساوسة الكاثوليك المتشبثون بآرائهم من مناصبهم وأرســل بعضهم إلى سجن البرج[١٩] ، وعرض على جاردنر ، وكان لايزال هناك ، الحرية إذا وافق على التبشير بالعقيدة التى يقول بها أنصار الإصلاح الدينى . وعندما رفض نقل إلى « مسكن أحقر » فى البرج وحرم من الورق والقلم والكتب . وفى عام ١٥٥٢ أصدر كرانمر كتابه الثانى عن الصلاة العامة وفيه أنكر وجود المسيح حقا فى القربان المقدس ، ونبذ تقديم القربان المقدس بالمسيح المغالى فيه ، وراجع فى ظروف أخرى الكتاب الأول باتجاه بروتستانتى .

ووافق المجلس النيابى وقتذاك على قانون ثان بشأن التجانس ، اقتضى

أن يحضر جميع الأشخاص بانتظام وألا يحضروا سوى الصلوات الدينية التى تقام طبقاً لما ورد فى كتاب الصلاة العامة هذا ، وكل من يخالف هذا القانون ثلاث مرات ، يعاقب بالإعدام . وفى عام ١٥٥٣ أصدر المجلس الملكى اثنين وأربعين « مادة فى الدين » وضعها كرانمر وجعلها إلزامية على كل الإنجليز .

وفى الوقت الذى أصبحت فيه الفضيلة والمحافظة على العقيدة بمثابة قانون تميزت حماية واروياك بفسادها فى عصر فاسد ، ولم يمنع هذا إدوارد الشاب المطاوع من تعيين واروياك دوقا لنورثمبرلاند (٤ اكتوبر سنة ١٥٥١) . وبعد بضعة أيام كفر الدوق عن خطيئته التى ارتكبها بتمامه بعمل من أعمال حسن التصرف — إطلاق سراح سومرست — وذلك باتهام سلفه بالقيام بمحاولة لاستعادة السلطة لنفسه . وقبض على سومرست وحوكم وأدين فى الغالب بناء على دليل قدمه سير توماس بالمر ، وزيف أمر صادر من الملك بالدعوة إلى إعدام سومرست ، وفى ٢٢ يناير سنة ١٥٥٢ لقى حتفه بشجاعة وإباء . وعندما واجه نورثمبرلاند الإعدام بدوره ، اعترف أن سومرست قد اتهم زورا بفضل وسائله ، واعترف بالمر قبل وفاته أن الدليل الذى أقسم على صحته كان من اختراع نورثمبرلاند (٢٠) .

ونادراً ما كانت الإدارة فى إنجلترا قد وصلت إلى هذا الحد من الكراهيـه ، فقد انقلب البروتستانت ضد الحامى الجديد الذى أثنوا عليه شكراً منهم لتأييده وذلك بسبب ازدياد جرائمه . وكان الملك إدوارد يقترب من الموت وقد عينت مارى تيودور بمقتضى قانون أصدره المجلس النيابى ولية للعهد إذا ظل إدوارد بلا ذرية . وإذا قدر لمارى أن تصبح ملكة فإنها سوف تنتقم فى الحال من هؤلاء الذين حولوا إنجلترا عن العقيدة القديمة . وشعر نورثمبرلاند بأن حياته معرضة للخطر . وكان عزاؤه الوحيد أن وكلاءه قد دربوا إدوارد على طاعته . وأغرى الملك المحتضر بأن يقرر التاج لليدى جين جراى ، ابنـة الدوق سفولك وحفيدة شقيقة

هنرى الثامن ، وفضلا عن هذا فإن جين كانت قد تزوجت حديثاً من ابن نورثمبرلاند . ولم يكن إدوارد قد خول مثل أبيه السلطة من المجلس النيابي لتعيين خلفه ، وكانت إنجلترا بأسرها تقريباً ترى أن ارتقاء الأميرة مارى العرش أمر لا مفر منه وعادل ، واحتجت جين بأنها لم ترغب قط فى أن تكون ملكة . وكانت امرأة نالت قسطاً غير عادى من التعليم : وكتبت باليونانية ودرست العبرية وتراسلت مع بولينجر بلغة لاتينية لا تقل جمالا عن لغته . ولم تكن قديسة ، وكان فى وسعها أن تنتقد الكثالكة بشدة ، وسخرت من التجسيد . ولكن نسب إليها من الآثام أكثر مما أثمت . وحسبت فى أول الأمر أن خطة حميها من قبيل الدعابة ، وعندما أصرت حماتها قاومت جين . وأمرها زوجها فى آخر الأمر أن تقبل العرش فأطاعت « دون أن تختار أن تعصى زوجها » كما قالت ، وأعد نورثمبرلاند وقتذاك العدة للقبض على كبار أنصار مارى وإيداع الأميرة نفسها فى البرج حيث يمكن أن تتعلم التنازل .

وأوشك الملك على نهايته فى أوائل يولية ، وسعل وبصق دماً ، وتورمت ساقاه تورماً مؤلماً ، وتفشى الطفح على جسده ، وسقط شعره ، ثم سقطت أظافره ، ولم يستطع أحد أن يجزم بالمرض الغريب الذى يعانى منه ، وراود الشك الكثيرين أن نورثمبرلاند قد سممه . وأخيراً مات إدوارد بعد أن عانى كثيراً (٦ يوليو سنة ١٥٥٣) ولم يتعد الخامسة عشرة من عمره ، وأصغر كثيراً من أن يشارك فيما ارتكب فى عهده من آثام »

وفى صباح اليوم التالى ركب نورثمبرلاند إلى هنسدون للقبض على الأميرة . بيد أن مارى هربت ، بعد أن حذرت ، إلى أصدقاء كاثوليكيين فى سفوك ، وعاد نورثمبرلاند إلى لندن دون أن يحصل على فريسته . وأقنع المجلس الخاص بالوعود أو التهديدات أو الرشاوى بالانضمام إليه فى المناداة

بجين جراى ملكة ، وأغمى عليها ، وعند ما أفاقت ظلت تحتج على أنها لا تصلح للشرف المحفوف بالمخاطر ، الذى أكرهت عليه . وتوسل إليها أقاربها بحجة أن حياتهم تتوقف على قبولها . وفى التاسع من يوليو أقرت فى نفور أنها ملكة إنجلترا .

ولكن فى العاشر من يوليو وصلت إلى لندن أنباء تقول إن مارى قد نادت بنفسها ملكة ، وإن النبلاء فى الشمال كانوا يتقاطرون لتأييدها ، وأن قواتهم كانت تزحف على العاصمة . وحشد نورثمبرلاند سريعاً ما استطاع جمعه من جنود ، وقادهم لتقرير مصير المعركة . وأبلغه جنوده فى بورى أنهم لن يسيروا خطوة أخرى للقتال ضد عاهلتهم الشرعية . وأرسل نورثمبرلاند أخاه ، مزوداً بالذهب والجوهرات والوعد بكاليه وجينس ليرشو هنرى الثانى ملك فرنسا ، للقيام بغزو إنجلترا تتويجاً لجرائمه . وعلم المجلس الخاص بالمهمة ومنعها ، وأعلن ولاءه لمارى . وانطلق الدوق أف سفولك إلى غرفة جين وأبلغها أن حكمها الذى استمر عشرة أيام قد انتهى . فرحبت بالأنباء وسألت ببراءة هل تستطيع الآن أن تذهب إلى البيت ، ولكن المجلس ، الذى كان قد أقسم على خدمتها أمر بسجنها فى البرج . وسرعان ما سجن هناك أيضاً نورثمبرلاند وأخذ يطلب الصفح عما ارتكب ، وإن أخذ يترقب موته .

وبعث المجلس برسل ينادون بأن مارى تيودور ملكة وتلقت إنجلترا الأخبار بفرح وحشى . وظلت النواقيس تقرع والمشاعل تتوهج طوال تلك الليلة من ليالى الصيف . وجلب الناس موائد الطعام وأولموا فى الخلاء ورقصوا فى الشوارع .

وبدا أن الأمة آسفة على الإصلاح الدينى ، وأنها تتطلع بشغف إلى ماض كان فى الإمكان وقتذاك أن يعد نموذجاً ، طالما أنه لن يعود . والحق أن الإصلاح الدينى لم يظهر حتى الآن إلا جانبه المرير لإنجلترا : لم يكن تحريراً

من المذهبية ومحاكم التفتيش والطغيان ، بل كان تثبيتاً لها ، ولم يكن انتشاراً للاستنارة ، بل كان سلباً للجامعات وإغلاقاً لمئات المدارس ، ولم يكن توسعاً في الرقة ، بل كان تقريباً قضاء على البر ، ورقعة بيضاء للجشع ، ولم يكن تخفيفاً للفقر ، بل كان سحقاً للفقراء بلا رحمة لم تعرفه إنجلترا منذ قرون — ولعلها لم تعرفه قط(٢١). وكان كل تغيير يكاد يلقى ترحيباً ما دام يؤدي إلى تخليصهم من نورثمبرلاند وطغمته .

ثم إن الأميرة ماري المسكينة ، التي ظفرت بحب إنجلترا في الخفاء بفضل صبرها على الإذلال طوال اثنين وعشرين عاماً — هذه المرأة المهذبة سوف تكون ولا شك ملكة رقيقة .

٣ — الملكة الرقيقة (١٥٥٣ — ٥٤)

لا بد لكي نفهمها من أن نكون قد عشنا معها شبابها المأساوي الذي لم تذق خلاله قط طعما للسعادة . ولم تكن تتجاوز الثانية من عمرها (١٥١٨) ، عندما شغل أبوها بالخطايا ، وأهمل أمها المحزونة . وكانت في الثامنة عندما طلب إعلان بطلان زواجه ، وفي الخامسة عشرة عندما افترق والداها ، وذهب كل من الأم والبنت إلى منفى منفصل . ومنعت الإبنة من الذهاب إلى أمها حتى وهي تحتضر(٣٢) . وأعلن أن ماري ابنة سفاح بعد مولد اليزابث (١٥٣٣) وجردت من لقبها كأميرة . وخشي سفير الإمبراطور أن تسعى آن بولين إلى قتل ابنة غريمتها المنافسة لها على العرش . وعندما انتقلت اليزابث إلى هاتفيلد أجبرت ماري على أن تذهب إلى هناك لخدمتها وأكرهت على أن تعيش في « أسوأ غرفة في البيت(٢٣) » وأخذ منها خدمها ، واستبدل بهم آخرون ، يخضعون لمس شلتون أف هاتفيلد التي قالت لها تذكرها بأنها ابنة سفاح : « لو كنت في موضع الملك لطردتك من بيت الملك لعدم طاعتك » . وأخبرتها أن هنري قد عبر عن عزمه على قطع رأسها(٢٤) .

وكانت مارى مريضـــة طوال ذلك الشتاء الأول الذى قضته فى هاتفيلد (١٥٣٤) ، وتحطمت أعصابها بسبب الإهانة والخوف وكادت تشرف على الموت جسما وروحا على غير كره منها . ثم رق لها الملك ومنحها بعض محبته إلى حين ، ونعمت بوضع ميسور فى باقى أيام حكمه . ولكن طلب منها أن توقع إقراراً بسيادة هنرى الكنسية وبأن « زواج أمها من قبيل سفاح ذوى القربى » وبأن ميلادها غير شرعى[٢٥] وذلك ثمنا لهذه الرقة القاسية .

وتأثر جهازها العصبى على الدوام بهذه المحن ، و وكانت عرضة لأن تشكو من قلبها[٢٦] » وظلت صحتها ضعيفة حتى آخر يوم فى حياتها . وعاودتها شجاعتها عند ما أعلن المجلس النيابى فى عهد حماية سومرست أنها ولية العهد . ولقد نشأت عقيدتها الكاثوليكية ، فى طفولتها مشبعة بحرارتها الإسبانية ، وقويت بما أثارته حياة أمها ومماتها فى نفسها من ألم ، وكانت عونا ثمينا لها فى أحزانها ، فرفضت أن تتخلى عنها عنـــد ما حومت على حافة السلطة ، وعند ما أمرها مجلس الملك أن تكف عن سماع القداس فى حجراتها (١٥٤٩) لم تذعن لأمره . وأغضى سومرست عن مقاومتها ، ولكن سومرست سقط ، وصدق أخوها الملك على الأمر ، وأرسل ثلاثة من خدمها إلى سجن البرج بسبب تجاهله (١٥٥١) ، وأخذ منها القس الذى رتل لها القداس ، ووافقت آخر الأمر على أن تكف عن ممارسة الشعيرة المحبوبة . وعندما تحطمت روحها طلبت من سفير الإمبراطور أن يدبر لها الهرب إلى القارة ، ورفض الإمبراطور الحذر أن يجيز الخطة ، وخاب فألها .

وجاءت لحظة انتصارها أخيراً عندما عجز نورثمبرلاند عن أن يجد رجلا يحارب ضدها ، ولم يطلب الذين أقبلوا مدججين بالسلاح لمناصرة قضيتها أى أجر ، بل إنهم أحضروا معهم مؤنهم ، وعرضوا عليها ثرواتهم لتمويل الحملة . وعندما دخلت لندن كملكة (٣ أغسطس سنة ١٥٥٣) هبت تلك المدينة نصف البروتستانتية للترحيب بها بالإجماع . وجاءت اليزابث تمشى على

استحياء لملاقاتها عند أبواب المدينة ، وهى تتساءل على تتمسك ضدها بالشتائم التى تعرضت لها باسم البزابث . ولكن مارى حيتها بقبلة حارة وقبلت جميع السيدات المرافقات لأختها غير الشقيقة . وكانت إنجلترا سعيدة كما كانت عند ما ارتقى العرش هنرى الثامن وهو شاب وسيم كريم .

كانت مارى وقتذاك فى السابعة والثلاثين من عمرها ، وكان الزمن القاسى قد ترك على وجهها خطوطاً تنذر بالذبول . وقلما مرت بها سنة كاملة دون أن تصاب بمرض خطير . وكانت تشكو من الاستسقاء وسوء الهضم ونوبات صداع تحطم الرأس ، وعولجت مراراً بالحجامة مما تركها عصبية شاحبة ، وأدى تكرار انقطاع الطمث عنها إلى استغراقها أحياناً فى حزن هستيرى مصحوب بخوف من ألا تحمل أبداً(٢٧) . وكان جسدها وقتذاك نحيلا هزيلا وجبينها مملتئاً بالتجاعيد وشعرها المائل للاحمرار تتخلله شعرات بيضاء وعيناها ضعيفتين جداً إلى حد أنها لم تكن تستطيع القراءة إلا إذا أمسكت بالصحيفة قرب وجهها . وكانت تقاطيعها واضحة ، تكاد تشبه تقاطيع الرجال ، وكان صوتها عميقاً كصوت الرجل ، وقد وهبتها الحياة كل ما فيها من وهن وحرمتها من المفاتن ومن الأنوثة . وكانت لديها بعض المواهب الأنثوية . فكانت تحيك فى جلد وتطرز بمهارة وتعزف على العود ، وأضافت إلى هذه المواهب معرفة باللغات الإسبانية واللاتينية والإيطالية والفرنسية . وكان يمكن أن تكون امرأة صالحة لو لم تلحقها لعنة اليقين اللاهوتى والسلطة الملكية . وكانت أمينة إلى درجة البساطة ، عاجزة فى مجال الدبلوماسية ومتلهفة إلى درجة يرثى لها لأن تحب وتكون محبوبة . وكانت تتعرض لسورات غضب ولها لسان سليط . وكانت عنيدة ولكنها لم تكن متكبرة ، وأدركت قصور قدراتها الذهنية وأصاخت السمع للنصيحة فى تواضع . ولم تكن تلين لها قناة إذا كان الأمر يتعلق بعقيدتها فحسب ، وفى غير هذه الحالة كانت حليمة حنوناً وحرة الفكر مع التعساء ، وتواقة إلى رفع الحيف الذى تسببت فيه

أخطاء القانون ، وكثيراً ما زارت بيوت الفقراء وهى متنكرة وجلست وتحدثت مع ربات البيوت وسجلت مذكرة بالحاجات والمظالم وقدمت كل ما فى وسعها من مساعدة[٢٨] . وأعادت إلى الجامعات الهبات التى اختلسها منها أسلافها .

وظهر أحسن جانب من خلقها فى التسامح النسبى فى أول عهدها ، فهى لم تطلق سراح جاردنر وبونر وغيرهما ممن سجنوا لرفضهم قبول اعتناق البروتستانتية فحسب ، بل إنها صفحت تقريباً عن كل من حاولوا إبعادها عن العرش ، ومهما يكن من أمر فإنها أجبرت بعض هؤلاء ؛ مثل الدوق أف سفولك ، على دفع غرامات باهظة للخزانة ، ثم خفضت الضرائب تخفيضاً جوهرياً بعد تقديم هذه المساعدة إلى الدخل . ومنحت جوازات أمان لبيتر مارتير وغيره من البروتستانت الأجانب لكى يغادروا البلاد . وعقد مجلس الملكة محاكمة عاجلة لنورثمبرلاند وستة آخرين تآمروا على القبض على مارى ، وتوجوا جين جراى ، وحكم على السبعة جميعا بالموت . وأبدت مارى رغبتها فى الصفح عن نورثمبرلاند ، ولكن سيمون رينار سفير الإمبراطور وقتذاك أثناها عن عزمها ، وقام الثلاثة الذين لم يصفح عنهم جميعا باعتناق عقيدة الكنيسة الرومانية الكاثوليكية فى آخر لحظة . ووصفت جين جراى الحكم بالعدل والاعترافات بالجبن[٢٩] .

وكان من رأى مارى آن تطلق سراحها ، ولكنها أذعنت لآراء مستشاريها إلى حد بعيد وأمرت بأن تبقى طليقة من كل قيد فى الاعتقال داخل أراضى سجن البرج[٣٠] .

وأصدرت الملكة فى ١٣ أغسطس إعلانا رسميا بأنها لن « نكره الضمائر أو تلزمها » بشىء فى مسألة المعتقد الدينى[٣١] ، وكان هذا أحد الإعلانات الأولى فى التسامح الدينى تصدره حكومة حديثة . وكانت تأمل فى براءة أن

تحول البروتستانت بالحجة فنظمت مناظرة عامة بين علماء اللاهوت المتعارضين فى الرأى ، ولكنها تبخرت فى جدل مرير عقيم . وبعد ذلك بوقت قصير قذف واعظ الأسقف بونر بخنجر انطلق من جمهور استاء من وعظه الكاثوليكى ، وأنقذه من الموت اثنان من رجال الدين البروتستانت(٣٢) .
وراع مارى تسامحها فأمرت (١٨ أغسطس سنة ١٥٥٣) بعدم التصريح بعظات تتعلق بالعقائد إلا فى الجامعات ، وذلك إلى أن يتيسر اجتماع المجلس النيابى وينظر فى المشكلات التى أثارها النزاع بين العقائد . وأمر كرانمر ، وكان لايزال رئيسا للأساقفة ، بملازمة قصره فى لامبث ، فرد على ذلك بمهاجمة القداس ووصفه بأنه « كفر بغيض » ، وحكم عليه هو ولاتيمر بالسجن فى البرج (سبتمبر سنة ١٥٥٣) . أما ريدلى أسقف لندن الذى كان قد وصف مارى واليزابث معا بأنهما ابنتا سفاح فكان قد ذهب إلى سجن البرج قبل ذلك بشهرين . وعلى الجملة فإن سلوك مارى فى هذه الشهور الأولى من حكمها فاق فى اللين والتسامح سلوك غيرها من عظماء الحكام فى عصرها .

وكانت المشكلات التى واجهتها حرية بأن تقهر امرأة تفوقها كثيراً فى الذكاء والفطنة . وصدمت بالارتباك والفساد السائدين فى الإدارة وأمرت بوقف الفساد ، غير أنه أخفى رأسه ولم ينقطع . وضربت مثالا حسناً بتخفيض نفقات الأسرة الملكية ، وتعهدت بتثبيت قيمة العملة ، وتركت انتخابات المجلس النيابى حرة لم تتأثر بأى نفوذ ملكى . وكانت الانتخابات الجديدة « أعدل انتخابات حدثت منذ سنوات(٣٣) » ، ولكن تخفيضها للضرائب ترك دخل الحكومة أقل من مصروفاتها ، ولكى تحصل على الفرق فرضت ضريبة صادر على القماش وضريبة وارد على الأنبذة الفرنسية وأدت هذه الإجراءات التى كان ينتظر أن تساعد الفقراء إلى نكسة تجارية . وحاولت أن توقف نمو الرأسمالية بتحديد عدد ما يملكه أى فرد بنول أو اثنين . ونددت بـ « القماشين الأغنياء » بسبب دفعهم أجوراً منخفضة وحظرت دفع

الأجور عيناً[٣٤] ولكنها لم تجد فى حاشيتها رجالا يملكون القوة والكمال اللازمين لإنجاز إرادتها الطيبة ، وتغلبت القوانين الاقتصادية على أهدافها .

بل إنها قوبلت بعقبات اقتصادية قاسية حتى أمور الدين . ولم تكن هناك أسرة لها نفوذ فى إنجلترا لا تحتفظ بأملاك انتزعتها من الكنيسة[٣٥] ، وعارضت هذه الأسر بالطبع أى عودة للعقيدة الرومانية . وكان البروتستانت أقلية من حيث العدد وأقوياء بفضل ما لديهم من مال ، وكانوا بذلك فى موقف يسمح لهم بأن يجهزوا فى أية لحظة أسباب الثورة التى تضع الوارث البروتستانتية على العرش .

وكانت مارى تتلهف على إعادة حق الكثالكة فى العبادة طبقاً لشعيرتهم ، ومع ذلك فإن الإمبراطور الذى ظل يحارب البروتستانتية اثنين وثلاثين عاما حذرها وطلب منها أن تتحرك ببطء ، وأن تقنع بترديد القداس سراً لنفسها وفى محيطها المباشر . ولكن شعورها نحو دينها كان عميقاً ولا تستطيع أن تكون سياسية فيما يتصل به . وتعجب الجيل الذى ينزع إلى الشك الذى نشأ فى لندن من كثرة صلواتها وحرارتها ، ولعل السفير الإسبانى اعتقد أنها تطالب أمراً إدّا عندما سألته أن يركع بجوارها ويطلب الهداية من الله . وشعرت بأن لها رسالة مقدسة تستعيد بها العقيدة التى أصبحت عزيزة عليها لأنها قاست من أجلها . وبعثت برسول إلى البابا تطلب منه أن يرفع التحريم الذى فرضه على إقامة الصلوات بإنجلترا ، ولكن عندما أبدى الكاردينال بول رغبته فى الحضور إلى إنجلترا قاصداً رسولياً ، اتفقت مع شارل على أن الوقت لم يحن بعد للقيام بمثل هذه الحركة الجريئة .

ولم يكن المجلس النيابى الذى اجتمع فى ٥ أكتوبر سنة ١٥٥٣ مجدياً بالمرة . فقد وافق على الغاء كل تشريع يتعلق بالدين ، صدر فى عهد إدوارد ، وخفض العقوبات المنصوص عليها فى قوانين هنرى الثامن وإدوارد السادس إلى ما كانت عليه من قبل . وأبلغ الملكة فى تلطف أن « عدم شرعية

النسب المتعلقة بشخصك الأمثل ، قد ألغى وأنها لم تعد ابنة سفاح ، ولكنه أبى أن ينظر فى إعادة أملاك الكنيسة إليها وقاوم أى تلميح إلى أن سيادة البابا يجب أن يعترف بها ، وترك هذا مارى رئيسة للكنيسة الإنجليزية رغم أنفها . وبمقتضى هذه السلطة المخولة لها استبدلت بالأساقفة البروتستانت الأساقفة الكاثوليك الذين كانوا قد أقصوا عن مناصبهم ، وعاد بونر أسقفاً للندن وجاردنر أسقفاً لونشستر ومشيرا مقرباً للتاج . وطرد القساوسة المتزوجون من أبرشياتهم . وسمح بإقامة القداس مرة أخرى ثم شجع ، (ويقول مؤرخ بروتستانتى) : « إن اللهفة التى أبدتها البلاد الإفادة بوجه عام من الإذن بإعادة الشعيرة الكاثوليكية تدل بلا شك على أن الشعور العام كان مع الملكة(٣٦) فيما عدا لندن وبضع مدن كبيرة » . وأعيدت العبادة الكاثوليكية إلى ما كانت عليه تماما بمقتضى مرسوم صدر فى ٤ مارس سنة ١٥٥٤ . وعدت الهرطقات الأخرى غير شرعية وحرم كل وعظ بروتستانتى أو نشرة بروتستانتية .

وكان انزعاج الأمة بعودة التذبذب اللاهوتى أقل كثيراً من انزعاجها بخطط زواج مارى . كانت تخشى الزواج من الناحية الدستورية ، ولكنها واجهت المحنة أملا فى أن تنجب وريثا يحول دون ارتقاء اليزابث البروتستانتية العرش : وادعت مارى أنها عذراء ، والراجح أنها كانت كذلك ، ولعلها لو كانت قد أتمت هوناما لكانت أقل كآبة وتوترا ويقينا . وأوصى مجلسها باختيار إدوارد كورتناى حفيد إدوارد الرابع ، ولكن طرق عيشه المتبذلة لم تصادف هوى فى نفس مارى ، وعندما رفضته دبر أن يتزوج اليزابث ، ويخلع مارى ويولى اليزابث على العرش ويحكم إنجلترا عن طريقها — ولم يحلم قط بضآلة فرصته فى السيطرة على تلك السيدة المسترجلة . وعرض شارل الخامس على مارى الزواج من ابنه فيليب الذى كان يوشك أن يوصى له بكل شىء سوى اللقب الإمبراطورى ، وتعهد

بتقديم الأراضى المنخفضة لأى ولد يكون ثمرة لهذا الزواج . وتهللت مارى عندما خطر لها أن زوجها سيكون حاكما لإسبانيا والفلاندرز وهولندة ونابلى والأمريكتين ، وتدفقت دماؤها نصف الإسبانية ساخنة فى عروقها وهى تتوقع إنشاء اتحاد سياسى ودينى بين إنجلترا وإسبانيا . وأشارت فى تواضع إلى أن سنها الأكبر — أكبر من فيليب بعشر سنوات — تقف عائقاً ، وخشيت ألا تكفى مفاتنها الذابلة لإرضاء حيويته وشبابه أو خياله ، إنها لم تكن واثقة أنها سوف تعرف كيف تطارحه الغرام(٣٧) . وكان فيليب من ناحيته يشعر بالنفور فقد أبلغه وكلاؤه الإنجليز أن مارى كانت « قديسة كاملة » وأنها ترتدى ملابس قبيحة(٣٨) ، أفلا يمكن أن يوجد شىء أكثر إغراء بين الأسر المالكة فى أوروبا ؟ وأقنعه شارل بالإشارة إلى أن الزواج سوف يتيح لأسبانيا حليفاً قوياً ضد فرنسا وعوناً ثميناً فى الأراضى المنخفضة التى كانت مرتبطة تجارياً بإنجلترا . ولعل البروتستانتية فى ألمانيا يمكن قمعها بعمل موحد من إسبانيا وفرنسا وإنجلترا باعتبارها دولا كاثوليكية ؛ ثم إن المصاهرة بين آل هابسبورج وآل تيودور يؤلف قوة قادرة على منح أوربا الغربية سلاما إجبارياً يدوم جيلا .

وأدرك مجلس الملكة والشعب الإنجليزى قوة هذه الاعتبارات ولكنهم خشوا أن يؤدى الزواج إلى تحويل إنجلترا إلى بلد تابع لإسبانيا ويورط إنجلترا فى الحروب المتكررة مع فرنسا . وواجه شارل الموقف بإجراء مضاد عرض باسم ابنه عقد زواج بمقتضاه لا يحمل فيليب لقب ملك إنجلترا إلا فى حياة مارى ولها أن تحتفظ وحدها بالسلطة الملكية الكاملة على الشئون الإنجليزية ولها أن تشارك فيليب فى جميع ألقابه ، وإذا مات دون كارلوس (ابن فيليب من زواج سابق) دون أن يعقب ذرية ترث مارى أو ابنها الإمبراطورية الإسبانية وعلاوة على هذا أضاف الإمبراطور الداهية أن لمارى الحق فى أن تتلقى مدى الحياة ٦٠٫٠٠٠ جنيه من

الموارد الامبراطورية ، وبدا هذا كله عرضاً سخياً جداً ، وصدق المجلس الإنجليزى على الزواج مع تعديلات يسيرة فى النصوص

وأخذت مارى ، على الرغم من حيائها المتواضع تتطلع فى لهفة إلى المستقبل فكم طال انتظارها لعاشق !

ولكن الشعب الإنجليزى استاء من اختيارها ، فالأقلية البروتستانتية التى كانت تصبر على الاضطهاد ، آملة فى أن تخلف اليزابث قريباً مارى العاقر الضعيفة خشيت على حياتها إذا وقفت قوة إسبانيا بجانب مارى فى إعادة الكاثوليكية بالقوة ، وارتجف النبلاء الذين اغتنوا بضم الأملاك الكنسية عندما خطر لهم أنهم سوف يخرجون ما فى بطونهم . بل إن الإنجليز الكاثوليك اعترضوا على وضع أجنبى قاس على العرش . وهو ولا شك سوف يستخدم إنجلترا لتحقيق أغراضه الأجنبية . وارتفعت أصوات الاحتجاج من كل مكان فى البلاد ، وسرى الذعر فى مدينة بلايماوث ، فطلبت من ملك فرنسا أن يضعها تحت حمايته . ووضع أربعة نبلاء خططاً لثورة تبدأ فى ١٨ مارس سنة ١٥٥٤ ، فكان على الدوق أف سفولك (والد جين جراى الذى صدر العفو عنه) أن يحدث ثورة فى واروبكشاير وعلى سير جيمس كروفت أن يتزعم مستأجريه الولزيين ، وعلى سير بيتر كارو أن يثير ديفونشاير ، وعلى سير توماس ويات الصغير أن يقود ثورة فى كنت . وكان ويات الكبير — الشاعر — قد استولى على مجموعة من أراضى الكنيسة — كره ابنه أن يسلمها . وأخطأ المتآمرون بأن أسروا بخططهم لكورتناى ، وكانت مهمته تنحصر فى ضمان اشتراك إليزابث معهم . وكان الأسقف جاردنر يراقب كورتناى باعتباره خاطباً منبوذاً لمارى يتلهف على الانتقام ، فأمر بالقبض عليه ، وأفشى كورتناى أسرار المؤامرة ، بتأثير التعذيب على الأرجح .

وآثر المتآمرون أن يلاقوا حتفهم فى المعركة بدلا من المقصلة فخفوا

سريعاً إلى الأسلحة واشتعلت نيران الثورة فى أربعة أقطار فى الحال (فبراير سنة ١٥٥٤) ، وقاد ويات جيشاً قوامه ٧٫٠٠٠ رجل وزحف نحو لندن ، وبعث بنداء إلى كل المواطنين أن يمنعوا انجلترا من أن تصبح إقطاعية لإسبانيا ، وبدأ الجانب البروتستانتى من أهالى لندن فى وضع خطة لفتح الأبواب لويات ، وتردد مجلس الملكة فى أن يرتبط بشيء ، ولم يحشد جندياً واحداً للدفاع عنها ، ولم تستطع مارى أن تدرك لماذا ترفض البلاد التى رحبت كثيراً بارتقائها العرش أن تتمتع بالسعادة وتحقيق أمانيها التى حلمت بها طوال سنوات التعاسة العديدة . وإذا لم تمسك بزمام الأمور فى يديها بعزم غير عادى فإن حكمها وحياتها سوف ينتهيان وشيكا . ولكنها ذهبت بنفسها إلى جلدهول وواجهت اجتماعاً ثائراً كان يتباحث إلى أى جانب ينحاز . وقالت للجميع إنها على استعداد تام لأن تتخلى عن فكرة الزواج الإسبانى إذا كانت هذه رغبة العموم ، وقالت حقاً « إنى على استعداد لأن أمسك عن الزواج طوال حياتى » ولكنها لن تسمح فى الوقت نفسه أن يتحول موضع الخلاف إلى « عباءة إسبانية » لثورة سياسية . وقالت : « إنى لا أستطيع أن أقول كيف تحب الأم طفلها بفطرتها لأنى لم أكن يوماً أماً ، ولكن لا شك أنه إذا كانت الملكة يمكن أن تحب رعاياها حباً طبيعياً وحاراً كما تحب الأم طفلها ، فإنى أؤكد أنى باعتبارى سيدتكم ومولاتكم ، أحبكم حباً حاراً رقيقاً وأعطف عليكم[٣٩] » . وقوبلت كلماتها وروحها بتصفيق حار ، وتعهد الجمع بتأييدها . واستطاع وكلاء الحكومة ، فى يوم تقريباً ، أن يحشدوا ٢٥٫٠٠٠ رجل مسلح وقبض على سفولك وفركروفت وكاريو إلى مخبأ . أما ويات فقد قاد ، بعد أن تخلى عنه زملاؤه على هذا النحو ، قوة صغيرة قاتل بها فى شوارع لندن ، وشق طريقه تقريباً إلى قصر الملكة فى هويتهول . وتوسل الحراس إلى مارى أن تهرب ، ولكنها رفضت وأخيراً غلب رجال ويات

على أمرهم فاستسلم بعد أن وهن منه الجسد والروح وأخذ إلى سجن البرج وتلمست مارى عبير الأمان مرة أخرى ولكنها لم تعد قط الملكة الرقيقة .

٤ - « مارى الدموية » : ١٥٥٤ - ٥٨

كثيراً ما أدان مستشاروها سياستها القائمة على الصفح . وقد لامها الإمبراطور وسفيره على السماح بالحياة بل وبالحرية لأشخاص تآمروا ضدها وسوف يكونون أحراراً لتكرار هذا - وسئلت كيف يستطيع فيليب أن يأمن على نفسه فى بلد ترك فيه أعداؤه يمرحون بلا عائق ليدبروا مؤامرة لاغتياله ؟ وكان من رأى الأسقف جاردنر أن الرحمة بالأمة تتطلب إعدام الخونة . وتملك الذعر الملكة فمالت إلى العمل بآراء مستشاريها . وأمرت بإعدام الليدى جين جراى التى لم ترغب قط فى أن تكون ملكة ، وزوج جين ، الذى أراد أن يكون ملكاً . وانطلقت جين ، وهى فى السابعة عشرة من عمرها ، إلى حتفها وهى تؤمن بأن هذا قدرها ، دون أن تبدى احتجاجاً أو تذرف دموعاً (١٢ فبراير سنة ١٥٥٤) . وقطع رأس والدها سفولك وشنق مائة من صغار الثوار . وأبقى على حياة بعض المتآمرين إلى حين أملا فى أن ينتزع منهم اعترافات مفيدة ، واتهم ويات فى مبدأ الأمر إليزابث بأنها على علم بالخطة ، ولكن عندما وقف على المنصة (١١ ابريل سنة ١٥٥٤) برأها من كل علم بها . وأطلق سراح كورتناى بعد أن سجن عاماً وأقصى عن البلاد . وأشار شارل على مارى بإعدام كورتناى وإليزابث باعتبارهما مصدر تهديد دائم لحياتها . وأرسلت مارى إلى إليزابث بالحضور واحتفظت بها فى قصر سانت جيمس شهراً ثم سجنتها شهرين فى البرج . وحثها رينارد على تنفيذ حكم الإعدام فيها فوراً ، ولكن مارى اعترضت وقالت إنه لم يثبت اشتراك إليزابث فى الجريمة(٤٠) ، وظلت حياة إليزابث خلال هذه الشهور المشئومة معلقة فى الميزان ، وساعد هذا الرعب على تكوين شخصيتها القائمة على الريبة

واستشعار الخطر ، وكان له صداه فيما اتسم به عهدها المتأخر من قسوة عندما ساورها بشأن مارى ستيوارت نفس القلق الذى كان يساور مارى تيودور وقتذاك حول إليزابث . وفى ١٨ مايو نقلت من أصبحت ملكة فى الأيام التالية إلى وود ستوك حيث عاشت مطلقة السراح فى معتقل تحت الرقابة . وأدى خوف مارى من مؤامرة أخرى تدبر لتولية إليزابث على العرش إلى أن تتعجل مارى الزواج أملا فى أن تحظى بالأمومة .

ولم يكن فيليب متلهفاً إلى هذا الحد . وتزوج مارى يوم ٦ مارس سنة ١٥٥٤ بطريق الوكالة ولكنه لم يصل إنجلترا قبل يوم ٢٠ يوليو ، ودهش الإنجليز وسرهم أن يجدوه شخصاً يمكن احتماله بدنياً واجتماعياً : وجه غريب مثلث الشكل تقريباً ينحدر من جبهة عريضة إلى ذقن مدبب يزينه شعر أصفر ولحية ، ولكنه يمتاز بخلق كريم وبديهة حاضرة ومواهب تصلح لأى شىء ، ولم يبد أى إيماءة بأنه هو وحاشيته يعدون الإنجليز برابرة . بل إنه قال كلمة رقيقة فى صالح إليزابث ، ولعله كان يتنبأ بأن مارى ربما لا ترزق بذرية وأن إليزابث قد تكون يوماً ملكة ، وذلك يكون شراً أهون من أن ترتقى مارى ملكة الإسكوتلنديين — التى ارتبطت منذ عهد بعيد بفرنسا — عرش انجلترا . وعلى الرغم من أن مارى كانت أكبر سناً بكثير من فيليب فإنها تطلعت إليه بإعجاب ساذج ، وكانت متعطشة إلى الحب طوال سنوات عديدة ، فابتهجت وقت ذاك لفوزها بأمير ساحر وقوى إلى هذا الحد ، ومنحته نفسها بإخلاص لا شك فيه إلى حد أن الحاشية تساءلت هل أصبحت إنجلترا بالفعل تابعة لإسبانيا ، وكتبت لشارل الخامس فى تواضع رسالة تقول فيها إنها : « أسعد مما أستطيع التعبير عنه لأنى فى كل يوم أكتشف فى زوجى الملك من الفضائل العديدة وصفات الكمال ما يدفعنى باستمرار إلى أن أتضرع إلى الله أن يهبنى العون لأسعده[٤١] » .

وكانت رغبتها فى أن تلد ابناً لفيليب وولى عهد لإنجلترا ، عارمة استغرقت كل اهتمامها إلى حد أنها سرعان ما تصورت أنها حامل . ولقى انقطاع الطمث عندها وقتذاك ترحيباً ، باعتباره شارة ملكية ، وألجم الأمل ألسنة من خطر لهم أن تلك الحالة حدثت لها كثيراً من قبل . وتقبل الناس الاضطرابات الهضمية على أنها أدلة أخرى على الأمومة ، وأبلغ سفير البندقية أن « حلمتى » الملكة قد انتفختا ودر ثدياها لبناً . وابتهجت مارى وقتاً طويلا عندما راودتها فكرة أنها أيضاً يمكن أن تحمل طفلا شأنها فى هذا شأن أفقر امرأة فى مملكتها ، ولا نستطيع أن نتصور مدى تعاستها عندما أقنعها أطباؤها آخر الأمر أن انتفاخ بطنها إنما حدث بسبب الاستسقاء ؛ وفى غضون ذلك كانت شائعات حملها قد اكتسحت إنجلترا وأقيمت الصلوات ونظمت المواكب من أجل ولادتها السعيدة ، وسرعان ما انتشرت شائعة بأنها أنجبت ولداً . وأغلقت الحوانيت ابتهاجاً واعتبر اليوم عطلة واحتفل الرجال والنساء فى الشوارع ، وقرعت نواقيس الكنائس وأعلن أحد رجال الدين أن الطفل « أشقر وجميل » كما يليق بأمير(٤٢) . وتحطمت مارى من الإحباط والخجل فانزوت شهوراً عن أنظار الجمهور .

وشعرت بالعزاء إلى حد ما بعودة الكاردينال بول إلى إنجلترا . وكان شارل قد أخر بول عن السفر فى بروكسل لأنه عارض الزواج الإسبانى ، أما وقد تم هذا الزواج فإن اعتراضات الإمبراطور هدأت ، وعبر الكاردينال القناة بصفته قاصداً رسولياً (٢٠ نوفمبر سنة ١٥٥٤) إلى البلاد التى كان قد تركها منذ اثنين وعشرين عاماً ، وقوبل بترحيب حار من الموظفين ورجال الاكليروس والشعب أثبت الرضا العام عن تجديد العلاقات مع البابوية . وحيا مارى بعبارة تكاد تكون منتقاة من معجمه : « السلام عليك يا مريم ، الممتلئة بالنعمة ، الرب معك . أنت مباركة بين النساء **Ave Maria, gratia Plena, Dominus tecum, benedicta tu in mulieribus** وكان على ثقة

من أنه قريباً سوف يردف قائلا : « مباركة ثمرة رحمك[٤٣] » .

وعندما علم المجلس النيابى أن بول جاء معه بموافقة البابا على احتفاظ الحائزين الحاليين بأملاك الكنيسة المصادرة فرح الجميع ، كما يحدث فى أى زفاف . وأعرب أعضاء المجلس النيابى وهم راكعون عن ندمهم لما ألحقوه من إساءات بالكنيسة ومنح الأسقف جاردنر التائبين الغفران بعد أن اعترف بتذبذبه . واعترف بسيادة البابا فى الشئون الكنسية وتأكد حقه فى دخول السنة الأولى للأساقفة حديثى التعيين و « الثمرات الأولى » وأعيد إنشاء المحاكم الأسقفية وأعيدت ضرائب العشور الأبرشية لرجال الاكليروس وجددت القوانين القديمة ضد اللولاردية وأعيدت الرقابة على المطبوعات من سلطات الدولة إلى سلطات الكنيسة . وبدا كل شيء كسابق عهده بعد فتنة دامت عشرين عاماً .

ولبث فيليب مع مارى ثلاثة عشر شهرا يأمل فى أن يرزق بطفل ، وحينما لم يظهر أى دليل مؤكد رجاها أن تسمح له بالذهاب إلى بروكسل حيث كان نزول والده عن العرش يقتضى حضوره . ووافقت فى حزن وانطلقت معه إلى النقالة المائية التى سوف تقله إلى أدنى نهر التيمس ، وأخذت ترقب النقالة من نافذة إلى أن اختفت (٢٨ أغسطس سنة ١٥٥٥) . وشعر فيليب نه قد أدى واجبه طوال سنة لقى فيها من أمره عسراً وهو يطارح الغرام امرأة مريضة ، وكافأ نفسه بسيدات بروكسل القويات البنية .

وكان بول وقتذاك أعظم رجل يتمتع بالنفوذ فى إنجلترا . وشغل نفسه بإعادة تنظيم الكنيسة الإنجليزية وإصلاحها . وأعاد فتح بعض أديار الرهبان ودير للراهبات بمساعدة مارى . وسعدت مارى عندما رأت بعث العادات الدينية القديمة ، وسرها أن ترى الصلبان والصور المقدسة فى الكنائس مرة أخرى ، وأن تشترك فى مواكب تتسم بالورع مع القساوسة أو الأطفال أو الطوائف المهنية فتجاس أو تركع لتحضر قداسات تقام للأحياء والأموات.

رغسات وقبلت يوم خميس العهد عام ١٥٥٦ أقدام إحدى وأربعين امرأة مسنة وهي تدلف على ركبتها من واحدة للأخرى ومنحتهن جميعها صدقات(٤٤) . وما دام الأمل فى الأمومة قد تبدد أصبح الدين سلواها التى تعينها على الاحتمال .

ولكنها لم تستطع أن تبعث الماضى تماماً . فقد حفزت الأفكار الجديدة إلى اضطراب مثير فى عقول أهل المدينة ، وكانت لاتزال هناك اثنتا عشرة طائفة تنشر كتبها وعقائدها فى الخفاء . وتألمت مارى عند ما سمعت عن جماعات تنكر ألوهية المسيح ووجود الروح القدس وانتقال الخطيئة الأولى . وخيل إليها أن هذه الهرطقات تعد جرائم مهلكة بالنسبة لإيمانها الساذج وأنها أسوأ بكثير من خيانة الدولة . هل فى وسع الهراطقة أن يعرفوا كيف يعاملون الروح البشرية خيرا مما يعرفه كاردينالها المحبوب ؟ وترامى إلى أسماعها أن واعظا تضرع بصوت عال أمام جمهور أبرشيته أن يهديها الله أو يرفعها من الأرض(٤٥) . وألقى يوماً كلب ميت ، حلق شعر رأسه جرياً على عادة الرهبان ، وحول عنقه حبل ، من نافذة فى غرفة الملكة(٤٦) . وقى كنت جدع أنف قسيس(٤٧) . ورأت مارى أنه من غير المعقول أن يقوم المهاجرون البروتستانت الذين سمحت لهم بالرحيل عن إنجلترا فى سلام ، بإرسال كتيبات يهاجمونها فيها ويصفونها بأنها حمقاء رجعية ويتحدثون عن « صلاة لاتينية مكروهة عند إقامة قداس وثنى(٤٨) » . وحثت بعض الكتيبات قوادها على أن يهبوا فى ثورة ويخلعوا الملكة(٤٩) . وعقـد اجتماع من ١٧٫٠٠٠ شخص فى أولدچيت (١٤ مارس سنة ١٥٥٤) ونادى بوضع إليزابث على العرش(٥٠) . وكانت حوادث التمرد فى إنجلترا من تدبير البروتستانت الإنجليز فى الخارج .

وكانت مارى تنزع بفطرتها وعادتها إلى الرحمة — حتى عام ١٥٥٥ فماذا حولها إلى ملكة تحظى بأكبر قدر من الكراهيـة بين الملكات

الإنجليزيات ؟ هناك استفزاز الهجمات التى أظهرت عدم الاحترام لشخصها أو عقيدتها أو مشاعرها من ناحية ، وهناك الخوف من أن تكون الهرطقة ستاراً لثورة سياسية من ناحية ثانية ، وهناك الشدائد التى عانتها وخيبة الأمل المتكررة التى كدرت صفو روحها وجعلت حكمها على الأشياء مظلماً من ناحية ثالثة ، وهنالك إيمانها الذى لا يتزعزع بصواب آراء مستشاريها الذين تثق بهم أكثر من أى شخص آخر - فيليب وجاردنر وبول - التى تذهب إلى أن الوحدة الدينية أمر لا غنى عنه للتضامن القومى وبقائه . وسرعان ما أفصح فيليب عن مبادئه فى الأراضى المنخفضة . وكان الأسقف جاردنر قد أقسم بالفعل (ربيع عام ١٥٥٤) أن يحرق الأساقفة البروتستانت الثلاثة - هوبر وريدلى ولاتيمر - ما لم يرتدوا عن عقيدتهم(٥١) . وكان الكاردينال بول ، مثل مارى ، ينزع بفطرته إلى الرحمة ولكنه كانت لا تلين له قناة فى العقيدة ، وقد أحب الكنيسة حباً جماً إلى حد أنه كان يرتجف للتشكك فى عقائدها أو سلطتها . ولم يكن له دور قيادى مباشر أو شخصى فيما قامت به مارى من اضطهاد ، وأشار بالاعتدال وأطلق مرة سراح عشرين شخصاً كان الأسقف بونر قد حكم عليهم بالموت حرقاً(٥٢) .

ومع ذلك فإنه أصدر تعليماته لرجال الأكليروس بأنه إذا فشلت كل طرق الإقناع سلمياً فإن كبار الهراطقة يجب أن تنتزع منهم الحياة ويستأصلوا مثل الأطراف الفاسدة من الجسد(٥٣) » . وأعربت مارى عن رأيها فى تردد . « نعتقد أن إثارة عقاب الهراطقة يجب أن يتم بغير اندفاع ولا نتخلى فى الوقت نفسه عن إقامة العدالة لهؤلاء الذين يسعون إلى خداع البسطاء(٥٤)» . وكانت مسئوليتها فى بادئ الأمر مقصورة على الإذن ولكنها كانت حقيقية .

وعندما تبين لها (١٥١٨) أن الحرب مع فرنسا قد عادت عليها وعلى

إنجلترا بالوبال عزت الفشل إلى غضب الله عليها لترفقها بالهرطقة وتشددت قطعاً بعد ذلك فى الاضطهاد .

وافتتح جاردنر عهد الإرهاب بأن استدعى إلى محكمته الأسقفية ستة من رجال الإكليروس (٢٢ يناير سنة ١٥٥٥) كانوا قد رفضوا قبول العقيدة التى توطدت من جديد(*) .

وارتد واحد منهم وأحرق أربعة منهم جون هوبر وأسقف جلوسستر وورسستر الذى أقيل (٤ - ٨ فبراير سنة ١٥٥٥) . ويبدو أن جاردنر أصيب بانتكاس فى الشعور بعد تنفيذ هذه الأحكام بالإعدام فلم يشترك بعد ذلك فى الاضطهاد ، وانهارت صحته ومات فى نوفمبر من هذا العام . واضطلع الأسقف بونر بالمذبحة . ونصح فيليب ، وكان لا يزال بإنجلترا ، بالاعتدال وعندما أدان بونر ستة ، وحكم عليهم بالحرق اعترض سفير الإمبراطور رينار على « هذا التهور البربرى(٥٧) » وندد كاهن الاعتراف الخاص لفيليب ، وهو أخ أسبانى من الرهبان ، وهو يعظ أمام الحاشية ،

(*) إن المصدر الأساسى لما قامت به مارى من اضطهاد هو كتاب جون فوكس وعنوانه : « فى أمور الكنيسة وفى التعليق على مآثرها **"Rerum in ecclesia gestarum** **Commentarii"** » (١٥٥٩) الذى ترجم إلى الإنجليزية بعنوان : « أفعال وآثار » (١٥٦٣) ويعرف بغير كلفة باسم « كتاب الشهداء » وأصبح الوصف الواضح لمحاكمات البروتستانت ووفياتهم من المقتنيات الحبيبة عند الأسرة بعد الكتاب المقدس عند المتطهرين (البيوريتان) ، وعلى الرغم من أن القساوسة من الآباء اليسوعيين نشروا (١٥٠٣) خمسة مجلدات تهاجم صحة ما ورد فيه فقد كان له أثر قوى فى تكوين مزاج إنجلترا فى عهد أليفر كرومويل . وقد انتقده الكثيرون من رجال الكنيسة البروتستانت لما فيه من المبالغة والخطأ فى النقل والتحامل وعدم العناية بالتفاصيل(٥٥) . ويقارن مؤرخ كاثوليكى بينه وبين سير القديسين فى القرون الوسطى فى مدى ما يمكن الوثوق به مما ورد فيه ، ويختم كلامه بقوله إنه على الرغم مما يكتنف الكثير من التفاصيل من شكوك « فليس هناك من يشك فى أن هذه الأحداث وقعت بالفعل »(٥٦) .

بالأحكام باعتبارها مخالفة للروح المعتدلة والمتسامحة التى حث عليها المسيح(٥٨) مراراً وتكراراً . وأوقف بونر الأحكام لمدة خمسة أسابيع ، ثم أمر بتنفيذها ، وأعتقد أنه كان رفيقاً متساهلا ، والحق أن مجلس الملكة أنبه يوماً لأنه لا يظهر حماسة كافية فى مطاردة الهرطقة(٥٩) وعرض على كل هرطيق منحه عفواً كاملا إذا ارتد عما يقول ، وكثيراً ما أضاف وعداً بتقديم مساعدة مالية أو عمل صريح(٦٠) ، ولكن عندما كانت هذه الإغراءات تفشل كان يجيز الحكم بشراسة ، وكانت توضع عادة حقيبة ممتلئة بالبارود بين ساقى المحكوم عليه حتى تؤدى ألسنة اللهب إلى موت سريع ، ولكن الخشب احترق ببطء فى حالة هوبر ، وخاب أثر البارود فلم ينفجر . وقاسى الأسقف السابق آلاماً استمرت ساعة تقريباً .

- وكان معظم الشهداء عمالا بسطاء تعلموا تلاوة الكتاب المقدس وشجعوا على العمل بالتفسير البروتستانتى له إبان الحكم السابق . ولعل المضطهدين رأوا أن من العدل استدعاء رجال الدين الذين بذلوا الجهد لتحفيظ مبادئ العقيدة البروتستانتية ، ليشهدوا لها بالاستشهاد ، وفى سبتمبر سنة ١٥٥٥ أحضر كرانمر وعمره ستة وستون عاماً ، وريدلى وعمره خمسة وستون عاماً ، ولاتيمر ، البالغ من العمر ثمانين عاماً ، من سجن البرج ليقفوا للمحاكمة فى أكسفورد . وكان لاتيمر قد لطخ صفحة حياته البليغة بالموافقة على إحراق المنكرين للتعميد والفرنشسكان العنيدين فى عهد هنرى الثامن . وكان ريدلى قد أيد بنشاط اغتصاب جين جراى للعرش ، ووصف مارى بأنها ابنة سفاح وساعد فى خلع بونروجاردنر من كرسيهما الأسقفيين .

وكان كرانمر الرأس المفكر للإصلاح الدينى الإنجليزى ، فقد أحل زواج هنرى وكاترين ، وزوج هنرى من آن بولين ، واستبدل بالقداس كتاب الصلاة العامة واضطهد فريث ولامبرت وغيرهما من الكثالكة ،

ووقع وصية إدوارد بالتاج لجين جراى ، وندد بالقداس باعتباره كفراً ، وكان هؤلاء الرجال وقتذاك فى البرج منذ عامين يتوقعون الموت كل يوم .

وحوكم كرانمر فى أكسفورد فى اليوم السابع من سبتمبر . وقام قضاته بكل جهد ممكن للحصول منه على إنكار لما ذهب إليه . فتمسك بموقفه بحزم وحكم عليه بأنه مذنب ، ولكن لما كان رئيساً للأساقفة فإن الحكم عليه ترك للبابا وأعيد إلى سجن البرج . وفى ٣٠ سبتمبر حوكم ريدلى وتشبث بموقفه وفى اليوم نفسه اقتيد لاتيمر أمام المحكمة الكنسية ، وكان وقتذاك رجلا لا يبالى بالحياة ، يرتدى ثوباً قديماً مهلهلا ورأسه الأبيض تكسوه قلنسوة فوق طاقية نوم فوق منديل وتتدلى نظارتاه من عنقه وربطت بزنارة نسخة من العهد الجديد . وفى اليوم الأول من أكتوبر حكم عليهم بالإدانة وأحرقوا فى اليوم السادس من أكتوبر . وركعوا أمام المحرقة وصلوا معاً . وربطوا بالأغلال إلى عمود حديدى وعلقت حول عنق كل رجل حقيبة ممتلئة بالبارود وأشعلت حزم الحطب . وقال لاتيمر : « تهلل ولا تبتئس يا سيد ريدلى وتصرف كرجل ، فإننا فى هذا اليوم سوف نشعل شمعة بفضل الله فى إنجلترا ، وأنا على يقين أنها لن تطفأ أبداً(٦١) » .

وفى الرابع من ديسمبر أيد البابا الحكم على كرانمر . واستسلم رئيس الأساقفة البروتستانتى الأول فى كنتربرى لخوف يغتفر له ، ولم يكن فى وسع رجل استطاع أن يكتب بإنجليزية قوية الدلالة كتاباً مثل كتاب الصلاة العامة مواجهة هذه المحن دون أن يتعرض لآلام غير عادية فى الجسد والعقل

ولعل كرانمر تأثر بنداء بول الحار فقرر قوله إنه : « تخلى عن كل طرق الهرطقة وأخطاء لوثر وزوينجلى وكرهها وأبغضها » ، وأقر بإيمانه بالشعائر المقدسة السبع واعترف بالتجسيد والمطهر وكل تعاليم الكنيسة الرومانية .

وكان إنكاره هذا قمينا بأن يستبدل به الحكم بسجنه جرياً على ما حدث فى جميع السوابق ، ولكن مارى (طبقاً لما قاله فوكس) رفضت إنكاره لمعتقده على أساس أنه يفتقر إلى الإخلاص وأمرت بإعدام كرانمر(٦٢)

وفى كنيسة سانت مارى بأكسفورد تلاتى صبيحة يوم إعدامه (٣١ مارس سنة ١٥٥٦) إنكاره السابع والأخير . ثم أضاف لدهشة جميع الحاضرين .

وأجىء الآن إلى الأمر العظيم الذى يؤرق ضميرى أكثر من أى شىء آخر فعلته أو قلته طوال حياتى وذلك هو تدبيج رسالة فى الخارج تخالف الحقيقة . وأنا الآن أتبرأ منها وأرفضها . . . إنها كتبت خوفاً من الموت .... وذلك شأن جميع البيانات والأوراق التى كتبتها أو وقعت عليها بيدى منذ تجريدى من منصبى ... وما دامت يدى قد أثمت ، بكتابة ما يخالف صدق مشاعرى فإن يدى سوف تعاقب على ذلك لأنها .... سوف تحرق أولا .... أما بالنسبة للبابا فإنى أرفض اعتباره عدواً للمسيح وخارجاً على المسيحية(٦٣) .

وعندما اقتربت ألسنة النيران من جسده وهو على المحرقة مد يده فيها واحتفظ بها هناك ، كما يقول فوكس : « ثابتة لا تتحرك ... حتى يستطيع كل الناس أن يروا يده تحترق قبل أن تمس النار جسده . وأخذ يردد كثيراً كلمات ستيفن « رباه ! تقبل روحى » فى عظمة اللهب الذى سلم الروح القدس(٦٤) .

وكانت وفاته دليلا على بلوغ الاضطهاد ذروته . ومات نحو ٣٠٠ شخص فى أثنائه منهم ٢٧٣ فى السنوات الأربع الأخيرة من ذلك العهـــد . وكلما مضت المحرقة قدماً أصبح من الواضح أنها كانت خطأ . واستمدت البروتستانتية القوة من شهدائها كما فعلت المسيحية فى بواكير عهدها وانزعج كثير

من الكثالكة فى عقيدتهم وشعروا بالخزى من ملكتهم بسبب ما كابده الضحايا من آلام وما أظهروه من جلد . وعلى الرغم من أن الأسقف بونر لم ينعم بالعمل فقد أطلق عليه اسم « بونر الدموى » لأن أسقفيته شهدت معظم ما نفذ من أحكام الإعدام ووصفته امرأة بأنه « الذباح المعروف وعميد المجزرة العامة لكل الأساقفة فى انجلترا(٦٥) » ، ووجد المئات من الإنجليز البروتستانت ملجأ فى فرنسا الكاثوليكية وسعوا هناك إلى وضع نهاية للعهد الحزين .

وبينما كان هنرى الثانى يطارد البروتستانت الفرنسيين فإنه شجع على تدبير المؤامرات الإنجليزية ضد مارى الكاثوليكية التى أدى زواجها بملك إسبانيا إلى ترك فرنسا محاطة بقوى معادية . واكتشف العملاء البريطانيون فى أبريل عام ١٥٥٦ مؤامرة يتزعمها هنرى ددلى لخلع مارى وتولية اليزابث على العرش . وتم القبض على عدة أشخاص منهم اثنان من أفراد بيت اليزابث ، وأقحم اعتراف اسم اليزابث نفسها والملك الفرنسى . وقمعت الحركة ولكنها تركت مارى فى خوف دائم من الاغتيال .

وواجهت جماعة من الهاربين محناً كشفت عن مزاج العصر الذى تتسلط العقيدة عليه ، فقد جاء إلى لندن عام ١٥٤٨ جان لاسكى ، وهو كالفنى بولندى وأنشأ هناك أول كنيسة مشيخية فى إنجلترا . وبعد ارتقاء مارى العرش بشهر ترك لاسكى وجانب من جمهور المصلين معه لندن فى سفينتين دنمركيتين . وفى كوبنهاجن منعوا من الدخول ما لم يوقعوا على الاعتراف الرسمى اللوثرى الخاص بالعقيدة . فأبوا باعتبارهم كالفنيين متمسكين بعقيدتهم . ولم يسمح لهم بالنزول ، فسافروا بحراً إلى وسمار وليبسك وهامبورج ، وفى كل حالة كانوا يواجهون بالمطلب نفسه ويردون بالرفض(٦٦) . ولم يذرف اللوثريون فى ألمانيا أية دموع على ضحايا مارى بل نددوا بهم باعتبارهم هراطقة مكروهين و « شهداء للشيطان » بسبب إنكارهم وجود المسيح حقاً فى القربان(٦٧) المقدس . وأدان كالفن تعصب اللوثريين الذى لا يعرف الرحمة ، وفى ذلك العام

(١٥٥٣) أحرق سرفيتوس فى المحرقة . وبعد أن ظل الهاربون تتقاذفهم أمواج بحر الشمال معظم أيام الشتاء سمح لهم بالدخول أخيراً ووجدوا معاملة إنسانية فى إمدن .

وسارت مارى إلى نهايتها المحتومة بقدر كئيب . وكان زوجها التقى فى حرب غير منطقية وقتذاك مع البابوية وكذلك مع فرنسا ، وجاء إلى إنجلترا (٢٠ مارس سنة ١٥٥٧) وحث الملكة على أن تشترك إنجلترا فى الحرب باعتبارها حليفة . ولكى يخفف من كراهية الإنجليز لمهمته ، أقنع مارى بالاعتدال فى الاضطهاد[٦٨] ، ولكنه لم يستطع أن يكسب بسهولة تأييد الجمهور بل كان الأمر على العكس ، فبعد شهر من وصوله أشعل توماس ستافورد ، ابن أخى الكاردينال بول ، ثورة لتحرير إنجلترا من مارى وفيليب على الـواء ، ولكنه هزم وشنق (٢٨ مايو سنة ١٥٥٧) ولقد أترع البابا كأس الملكة تعاسة برفضه الاعتراف ببول قاصداً رسوليا واتهم بالهرطقة . وكانت مارى فى لهفة لإرضاء فيليب ومقتنعة أن هنرى الثانى قد أيد ستافورد فى مؤامرته ، فأعلنت الحرب على فرنسا فى ٧ يونية . وبعد أن حقق فيليب غرضه غادر إنجلترا فى يوليو . وراود الشك مارى فى أنها لن تراه أبدا مرة أخرى . وقالت : « سوف أعيش ما بقى من أيامى دون رفيق من الرجال[٩٦] » . وفقدت انجلترا فى هذه الحرب التى لم ترغب فيها كاليه (٦ يناير سنة ١٥٥٨) التى كانت قد احتفظت بها ٢١١ عاما وآلاف الإنجليز من الرجال والنساء الذين عاشوا هناك وفروا الآن إلى بريطانيا ، لاجئين معدمين ، وأذاعوا الاتهام المرير المنسوب إلى حكومة مارى بأنها أهملت إهمالا إجراميا فى الدفاع عن آخر ممتلكات إنجلترا فى القارة . وعقد فيليب صلحا موافقا له دون أن يطلب استعادة كاليه . وكانت ثمة عبارة قديمة تتردد هى أن ذلك الميناء الثمين كان « ألمع جوهرة فى التاج الإنجليزى » . وأضافت مارى عبارة أخرى إلى الحكاية « عندما أموت وتفتحون صدرى فسوف

تجدون كاليه فى قلبى(٧٠) » . وفى أوائل عام ١٥٥٨ اعتقدت الملكة مرة أخرى أنها حامل . وكتبت وصيتها إذ كانت تتوقع أن تكون ولادتها خطيرة وبعثت برسالة إلى فيليب تتوسل إليه فيها أن يحضر الحادث السعيد .. فبعث إليها بتهانيه ولكن لم تكن هناك ضرورة لحضوره ، فقد كانت مارى على خطأ . وكانت وقتذاك امرأة مهجورة من الجميع ، ولعلها كانت مخبولة إلى حد ما . كانت تجلس على الأرض الساعات الطوال وركبتاها مرفوعتان إلى ذقنها ، وكانت تتجول فى قاعات القصر مثل شبح ، وكتبت رسائل لطختها بدموعها للملك الذى توقع وفاتها ، فأمر عملاءه فى إنجلترا أن يستميلوا قلب اليزابث للزواج من أمير إسبانى أو من فيليب نفسه .

وفى أيام الصيف الأخير من حياة مارى انتشر وباء حمى البرداء فى انجلترا وأصيبت به الملكة فى سبتمبر عام ١٥٥٨ وتحالف مع الاستسقاء و « زيادة الصفراء السوداء » فأضعفها إلى حد أن رغبتها فى الحياة تلاشت . وفى ٦ نوفمبر بعثت بجواهر التاج إلى اليزابث . وكان هذا عملا كريماً أذعن فيه حبها للكنيسة لرغبتها فى منح إنجلترا وراثة منظمة للعرش . وتعرضت للغيبوبة فترات طويلة واستيقظت من إحدى هذه الغيبوبات لتروى كيف رأت حلماً سعيداً عن أطفال يلعبون ويغنون أمامها(٧١) . وفى ١٧ نوفمبر سمعت القداس مبكراً وهتفت بالعبارات التى يرددها المصلون عادة وراء القس بحرارة . وماتت قبل الفجر .

وفى اليوم نفسه مات الكاردينال بول ، الذى منى بهزيمة منكرة مثل مليكته . ولا بد لنا عند تقديره أن نسجل الحقيقة المرة وهى أنه كان قد أدان ثلاثة رجال وامرأتين وحكم عليهم بالموت حرقاً بتهمة الهرطقة فى مستهل [illegible] أن [illegible] المنكرين للتعديل فى ثالث [illegible] اليقين وقد [illegible] ضرورة [illegible] الوحدة [illegible] ولكن لم

يحدث فى أى مكان فى العالم المسيحى المعاصر — حتى فى إسبانيا — أن أحرق هذا العدد الكبير من الرجال والنساء بسبب آرائهم كما حدث فى عهد تولى ريجينالد بول رئاسة الكنيسة الإنجليزية .

وفى وسعنا أن نقول كلمة رفيقة عن مارى . فقد أدّى الحزن والمرض وكثير مما تعرضت له من أخطاء إلى انحراف عقلها . ولم تتحول من الحلم إلى القسوة إلا بعد مؤامرات كانت تستهدف حرمانها من التاج الذى تضعه على رأسها وأصاخت السمع فى ثقة زائدة لرجال الدين الذين سعوا إلى الانتقام بعد أن تعرضوا هم أنفسهم للاضطهاد . وكانت تعتقد حتى آخر لحظة فى حياتها أنها بالقتل إنما تؤدى فرائضها نحو العقيدة التى أحبتها كمجال حيوى لبقائها . وهى لا تستحق اسم « مارى الدموية » ما لم تسحب تلك الصفة على عصرها بأسره ، فهو يهون بلا رحمة من شأن شخصية فيها الكثير من الصفات التى تستحق الحب :

وإن امتيازها العجيب إنما هو استمرارها فى العمل الذى بدأه والدها لإبعاد إنجلترا عن روما . وأظهرت لإنجلترا ، ولما تزل كاثوليكية ، أسوأ جانب للكنيسة التى خدمتها ، ولما ماتت كانت إنجلترا مهيأة أكثر من ذى قبل لاعتناق العقيدة الجديدة التى جاهدت للقضاء عليها .

الفصل السابع والعشرون

من روبرت بروس إلى جون نوكس

١٣٠٠ — ١٥٦١

---

١ — الإسكوتلنديون الذين لا يقهرون

إن الجنوب الحار اللطيف يولد الحضارة والشمال البارد القاسي يتغلب مراراً على الجنوب المتهاون الكسول ويستوعب الحضارة ويحورها ، وإن بلاد أقصى الشمال — سكوتلنده والنرويج والسويد وفنلنده — لتكافح العناصر التي تكاد تشبه الظروف القطبية الشمالية لتقوم بشيء من الترحيب بالحضارة وتسهم فيها وهي تواجه ألف عقبة .

ولقد شجعت الهضاب المجدبة الخالية من الطرق على قيام الإقطاع ولم تشجع على الزراعة ، بينما رحبت الأراضي المنخفضة الخضراء الخصيبة بغزوة بعد غزوة قام بها الإنجليز الذين لم يستطيعوا أن يدركوا لماذا لا تستقبل سكوتلندة تدفعهم عليها هم وملوكهم . وكان الإسكوتلنديون قديماً من الكلتيين واختلطوا في القرون الوسطى بالأيرلنديين والنرويجيين والإنجليز والساكسون والنورمانديين ، وما أن حل عام ١٥٠٠ حتى كانوا قد أصبحوا شعباً ضيق الأفق في المشاعر والأفكار — ومثلهم في ذلك مثل شبه جزيرتهم ، عميق الغور في الخرافة والأساطير مثل الضباب المنتشر عنده معتزاً بنفسه مثل قننه البحرية ، فظاً مثل أرضه ، متهوراً مثل سيوله الجارفة ، وهو شرس ورقيق ، قاس وشجاع في آن واحد ، ولا يقهر أبداً . ويبدو أن الفقر ضارب

بجذوره فى ظروفه الجغرافية والأخلاق فى فقره ، وهكذا نشأ الشح من التربة الخانقة ، وكان الفلاحون يرزحون تحت وطأة الكدح والنصب ، فلم يكن لديهم متسع من الوقت لكتابة الرسائل ، أما النبلاء الذين أبقوهم فى العبودية فقد فاخروا بالأمية ، إذ وجدوا ألا فائدة من تعلم حروف الأبجدية فى ثاراتهم أو حروبهم ، وقسمت الجبال والعشائر السكان المشتتين إلى طوائف متناظرة متهورة لا يعفون عن أعدائهم فى الحرب ولا يعطون أماناً فى السلم . ولما كان النبلاء يملكون تقريباً كل أسباب السلطة العسكرية فى فرقهم الخاصة فإنهم سيطروا على المجلس النيابى وعلى الملوك . وكان لدى آل دوجلاس وحدهم ٥٠٠٠ تابع ودخولهم تضارع دخل التاج .

وقبل عام ١٥٠٠ كانت الصناعة بدائية ومنزلية والتجارة مضطربة ، والمدن قليلة وصغيرة . وكان تعداد سكان سكوتلندة كلها وقتذاك ٦٠٠٫٠٠٠ نسمة نصف عدد سكان جلاسجو اليوم . وكانت جلاسجو بلدة صغيرة تعمل بالصيد وكانت برث هى العاصمة حتى عام ١٥٤٢ ، وكان بأدنبره ١٦٫٠٠٠ نسمة .

وعبرت روح الاستقلال الفردية والمحلية والقومية عن نفسها فى الأنظمة القروية والبلدية التى تتمتع بالحكم المحلى داخل إطار الإقطاع والملكية . وسمح لأوساط الناس — المواطنين المحررين من سكان المدن — بأن يكون لهم ممثلون فى المجلس النيابى أو مجلس المقاطعات ، ولم يكن يحق لهم أن يجلسوا بين زملائهم من أعضاء العموم كما فى إنجلترا ، ولكن بين ملاك الأراضى من الإقطاعيين ، وكانت أصواتهم تضيع فى الأغلبية التى للنبلاء . ولما كان الملوك لا يستطيعون أن يوطدوا سلطانهم ضد النبلاء بالتحالف مع التجار والأغنياء والمدن الآهلة بالسكان ، كما هو الحال فى فرنسا ، فإنهم سعوا إلى الحصول على التأييد من ثروة الكنيسة ونفوذها .

أما النبلاء فكانوا على طرفى نقيض مع الملوك وتعلموا أن يكرهوا الكنيسة ويحبوا أملاكها وانضموا فى إطلاق الصرخة العامة التى تنادى

بأن الثروة القومية إنما تصب فى روما : وكان النبلاء فى اسكوتلندة — وليس الملوك والتجار كما فى إنجلترا — هم الذين نهضوا بالإصلاح الدينى ، أى تحرير العلمانيين من سلطة الكنسيين(١) .

وحققت الكنيسة الإسكوتلندية عن طريق تسلطها على تقوى الناس لنفسها ثراء وسط فقر مدقع وآمال معلقة على العالم الآخر . وقام مبعوث بابوى حوالى نهاية القرن الخامس عشر بإبلاغ البابا أن دخل الكنيسة فى إسكوتلندة يعادل كل الدخول الأخرى مجتمعة(٢) . وكان الوعاظ وأوساط الناس يكادون يحتكرون معرفة القراءة والكتابة . وكان رجال الإكليروس الإسكوتلنديون فى القرن السادس عشر مشهورين بالاتضاع فى العلم ، وكانت الكنيسة بالطبع هى التى أسست جامعتى سانت أندروز وأبردين وحافظت عليهما . وكان الأساقفة ورؤساء الأديار بعد عام ١٤٨٧ ينصبون — وفى الواقع يعينون — بمعرفة الملوك الذين جعلوا من هذه المناصب مكافآت على خدمات سياسية أو رواتب لأبنائهم غير الشرعيين . ووهب جيمس الخامس ثلاثة من أبنائه من السفاح دخولا كنسية من كلسو وملروز وهوليرود وسانت أندروز . وكانت الميول الدنيوية لهؤلاء المعينين من الأسرة الملكية مسئولة إلى حد ما عن فساد رجال الإكليروس فى القرن السادس عشر .

ولكن الانحلال العام للأخلاق والنظام الذى اتسمت به الكنيسة أواخر العصور الوسطى ، كان واضحاً فى اسكوتلندة قبل تعيين الملوك للأساقفة بعهد طويل . وكتب هيلير بلوك الكاثوليكى المتزمت يقول : « إن فساد الكنيسة الذى استفحل شره فى كل مكان فى سائر أرجاء أوروبا فى القرن الخامس عشر ، قد وصل فى إسكوتلندة إلى درجة لم تعرف فى أى مكان آخر(٣) » . ومن هنا نشأ إلى حد ما عدم المبالاة الذى نظر به عامة الناس ، على ما عرفوا به من محافظة على العقيدة ، إلى إحلال رجال الدين البروتستانت محل رجال الدين الكاثوليك . وشكا الملك جيمس الأول عام

١٤٢٥ من فجور الرهبان وكسلهم ، وفى عام ١٤٥٥ اضطر قسيس فى لينلثجو قبل أن يتسلم وظيفته أن يعطى عهداً بأنه لن يرهن أملاك كنيسته ولن يحتفظ بـ « حظية دائمة[٤] . وكان للكاردينال بيتون ثمانية أبنـــاء من السفاح ، وضاجع ماريون أوجيلفى ليلا قبل أن يمضى ليلقى خالقه[٥] ، وحصل جون رئيس أساقفة هاميلتون من جلسات مختلفة عقـــدها المجلس النيابى الإسكوتلندى على خطابات بشرعية ذريته المتزايدة : ولم يبخل شعراء ما قبل الإصلاح الدينى فى إسكوتلندة بكلمات فى هجاء رجال الأكليروس بل إن رجال الأكليروس أنفسهم ، فى المجمع المقدس الكاثوليكى الإقليمى لعام ١٥٤٩عزوا انحطاط الكنيسة فى إسكوتلندة إلى « الفساد فى الأخلاق والفسق الدنس فى حياة رجال الكنيسة من جميع الدرجات تقريباً[٦] » : ومهما يكن من شىء فلا بد من أن نضيف أن أخلاق رجال الأكليروس كانت مجرد انعكاس لأخلاق العلمانيين — وفوق كل شىء النبلاء والملوك :

٢ — وقائع ملكية ١٣١٤ — ١٥٥٤

إن الحقيقة الأساسية فى تاريخ الدولة الإسكوتلندية هى الخوف من إنجلترا ، والحق أن الملوك الإنجليز حاولوا مرارا أن يلحقوا إسكوتلندة بالتاج الإنجليزى من أجل سلامة إنجلترا من هجوم يباغتها من الخلف : وقبلت إسكوتلندة التحالف مع فرنسا عدو إنجلترا اللدود لكى تحمى نفسها . ولذلك تبرز هذه الوقائع .

لقد ظفر الإسكوتلنديون بحريتهم من إنجلترا بانوكبرن (١٣١٤) بالأقواس والسهام والفؤوس المستخدمة فى القتال : ولما كان روبرت بروس قد قادهم هناك إلى النصر ، فقد ظل يحكمهم حتى وفاته متأثراً بداء الجذام (١٣٢٩) . وتوج ابنه دافيد الثانى ، شأنه فى هذا شأن الملوك الإسكوتلنديين منذ أمد بعيد، على « حجر القدر » المقدس فى دير سكون .

ولما بدأ إدوارد الثالث ملك إنجلترا حرب المائة سنة مع فرنسا ، رأى أنه من الحزم أن يضمن حدوده الشمالية ، فهزم الإسكوتلنديين فى هاليدون هل ، وأقام إدوارد باليو ألعوبة له على عرش إسكوتلندة سنة ١٣٣٣ ، ولم يسترد دافيد الثانى التاج إلا بعد أن دفع للإنجليز فدية قدرها ١٠٠٫٠٠٠ مارك (٦٫٦٦٧٫٠٠٠ دولار) ، ونظراً لأنه لم يترك وريثاً مباشراً عند وفاته (١٣٧١) انتقلت المملكة إلى ابن أخيه روبرت ستيوارت الذى بدأت به أسرة ستيوارت المشـــئومة .

وسرعان ما استؤنفت حرب نصفى إنجلترا ضد الكل . وأرسل الفرنسيون جيشاً إلى إسكوتلندة ، وعاث الإسكوتلنديون والفرنسيون فساداً فى بلاد إنجلترا الواقعة على الحدود ؛ واستولوا على درهام وأعدموا كل سكانها — رجالا ونساء وأطفالا وراهبات ورهباناً وقساوسة . وقام الإنجليز بالحركة التالية فى لعبة الشطرنج الملكى هذه فغزوا إسكوتلندة ، وأحرقوا برث ودندى ودمرو دير ملروز (١٣٨٥) ، وسار روبرت الثالث فى الطريق نفسه ، ولكن عندما أسر الإنجليز ابنه جيمس (١٤٠٦) مات حزناً . واحتفظت إنجلترا بالملك الصبى فى سجن لطيف إلى أن وقع الإسكتلنديون « صلحاً دائماً » (١٤٢٣) وتخلوا عن كل تعاون بعد ذلك مع فرنسا .

وقد تعلم جيمس فى الأسر ، قدراً لا بأس به ، وحصل على عروس إنجليزية ، وألف فى مدح هذه « الحمامة البيضاء » بلسان الإسكوتلنديين « كتاب الملك » وهو قصيدة مجازية يستكثر على ملك أن ينظم مثلها . والحق أن جيمس كان مبرزاً فى عشرات الأمور . فقـــد كان واحداً من أحسن المصارعين والعدائيين والفرسان ورماة السهام وقاذفى الحراب والصناع المهرة والموسيقيين فى إسكوتلندة ، وكان حاكماً مقتدراً كريماً . وفرض عقوبات على التجارة التى تفتقر إلى الأمانة والزراعة المهملة ، وبنى المستشفيات وألزم الحانات بالإغلاق فى الساعة التاسعة ، وحول طاقات الشباب من كرة القدم

إلى التدريبات العسكرية ، وطلب إصلاح النظام الكنسى وتقويم حياة الرهبان فى الأديار . وعندما بدأ حكمه النشيط (١٤٢٤) تعهد بالقضاء على الفوضى والجريمة فى إسكوتلندة ، ووضع حد الحروب الخاصة بين النبلاء واستبدادهم الإقطاعى « إذا لم يهبنى الله سوى حياة كلب فإنى سوف أجعل المفتاح يحرس القلعة والسرخس يرعى البقر » ، أى يقضى على السطو على البيوت والماشية — فى كل أنحاء إسكوتلندة(٧) . وسرق لص من أهل الجبال بقرتين من امرأة فأقسمت ألا تلبس أحذية أبداً حتى تسير إلى الملك لتندد بضعف القانون فقال اللص « أنت تكذبين وسوف أعمل على أن تحتذى » وسمر حدوتى حصان فى قدميها العاريتين . ومع ذلك وجدت طريقها إلى الملك وأمر بمطاردة اللص وطوف به حر برث ومعه لوحة من الخيش صورت عليها جريمته وحرص على أن يشنق الوحش بلا إمهال . وفى غضون ذلك اشتجر النزاع فى وقته بينه وبين بارونات يضعون العراقيل فى طريقه فأتى بقليل منهم إلى منصة الإعدام وصادر الزيادة فى الأراضى المستأجرة وفرض المكوس على اللوردات وأوساط الناس على السواء وأعطى للحكومة الأموال التى احتاجت إليها لكى تستبدل بطغاة عديدين طاغية واحداً .

ودعا أصحاب الأرض — ملاك الضياع الأقل مساحة — إلى المجلس النيابى وجعلهم هم والطبقة الوسطى بديلا للنبلاء ورجال الإكليروس . وفى عام ١٤٣٧ قتلته عصبة من النبلاء

واستمر أبناء النبلاء الذين كان قد أسقطهم فى الحياة أو انتزع منهم الأملاك فى مقاومة جيمس الثانى فى الكفاح ضد الملكية التى تنزع إلى المركزية ، وبينما كان الملك الجديد لا يزال بعد صبياً فى السابعة من عمره دعا وزراؤه إيرل اف دوجلاس الصغير وشقيقاً أصغر لينزلا ضيفين على الملك فحضرا وقدما لمحاكمة هزلية وقطع رأساهما(١٤٤٠) ودعا جيمس الثانى لنفسه بعد اثنى عشر عاماً وليام ، ايرل اف دوجلاس ، لبلاطه فى ستيرلنج ومنحه عهد الأمان

وأنزله فى ضيافته الملكية وقتله بتهمة تبادل رسائل فيها تآمر على خيانة الدولة مع إنجلترا . واستولى على كل القلاع الإنجليزية الحصينة فى إسكوتلندة إلا قلعة واحدة ، ومزق إرباً إثر انفجار عارض من مدفعه : وكفر جيمس الثالث عن فظاظة أبيه فبعد مواجهات وحشية أسره النبلاء وقتل لتوه (١٤٨٨) ، وتزوج جيمس الرابع من مرجريت تيودور شقيقه هنرى الثامن ، وبفضل هذا الزواج طالبت مارى ملكة الإسكوتلنديين بعرش إنجلترا .

ومع ذلك فإن هنرى الثامن عند ما انضم إلى إسبانيا والنمسا والبندقية والبابوية فى الهجوم على فرنسا (١٥١١) شعر جيمس بأنه ملزم بمساعدة حليفة إسكوتلندة القديمة المعرضة للخطر ، على هذا النحو بغزو إنجلترا ، وحارب بشجاعة جنونية فى فلودن فيلد ، بينما استدار الكثيرون من رجاله وفروا لا يلوون على شيء ، ومات فى تلك الكارثة (١٥١٣) .

وكان جيمس الخامس وقتذاك لا يبلغ من العمر إلا عاماً واحداً ، واستتبع هذا كفاح متشابك من أجل الوصاية على العرش . وفاز بالجائزة دافيد بيتون — وهو أحد رجال الكنيسة المعروفين بالمقدرة والشجاعة وتقدير النساء ، ونصب كبيراً لأساقفة سانت أندروز ، ثم كاردينالا ، ودرب الملك الصغير على الولاء الحار للكنيسة . وتزوج جيمس عام ١٥٣٨ من مارى أميرة اللورين ، شقيقة فرانسيس ، الدوق دى جيز زعيم الحزب الكاثوليكى فى فرنسا المنقسمة على أساس مذهبى ، وتطلع النبلاء الإسكوتلنديون ، ومناهضتهم لرجال الاكليروس تتزايد يوماً بعد يوم ، باهتمام إلى الانفصام القائم بين إنجلترا والبابوية ، وحسدوا اللوردات الإنجليز الذين انتزعوا أو تلقوا أملاك الكنيسة وأخذوا « أجورا » من هنرى الثامن لمعارضة تحالف ملكهم مع فرنسا . وعند ما شن جيمس الخامس الحرب على إنجلترا رفض النبلاء أن يؤيدوه . وهزم فى سولواى موس (١٥٤٢) ففر يجرر أذيال الخزى إلى

فولكلاند ، ومات هناك فى ١٤ ديسمبر ، وأنجبت زوجته فى الثامن من دسمبر ماري ، التى أصبحت ملكة للإسكوتلنديين وعمرها ستة أيام .

وأبرز بيتون وصية من الملك الراحل عينه فيها وصياً على الملكة الرضيعة ، وتشكك النبلاء فى صحة الوثيقة وسجنوا الكاردينال واختاروا جيمس ، إيرل اف أران وصياً على العرش ، بيد أن أران أطلق سراح بيتون وعينه كبيراً للوزراء . وعندما جدد بيتون الحلف مع فرنسا عقد هنرى الثامن النية على شن حرب لا هوادة ، فيها ، وبعث لجيشه فى الشمال أوامر بإحراق كل شيء فى طريقه وتدميره ، و « أن يعمل النار والسيف فى كل رجل وامرأة وطفل دون استثناء أينما يجد مقاومة » وبخاصة « ألا يبقوا على حياة مخلوق » فى بلدة سانت أندروز[٨] مقر بيتون . وبذل الجيش جهده ، وأحال كل دير ومزرعة وقلعة ومحلة إلى خراب شامل[٩] » . وتعرضت إدنبره يومين للسلب والحرق ، ونهبت قرى الفلاحين فى دائرة قطرها سبعة أميال ودكت دكاً ، وسيق إلى إنجلترا (١٥٤٤) ١٠٠٠ رأس من الماشية ذوات القرون و ١٢٫٠٠٠ رأس من الأغنام و ١٣٠٠ جواد . وعرض سير جيمس كيركالداى ونورمان لزلى وغيرهما من السادة الإسكوتلنديين أن يساعدوا الإنجليز على « حرق أماكن يملكها الحزب المتطرف فى الكنيســة ، وأن يقبضوا ويسجنوا كبار خصوم الحلف الإنجليزى ، وأن يعتقلوا ويقتلوا الكاردينال نفسه[١٠] » . ورحب هنرى بالعرض ووعد بتقديم ألف جنيه إنجليزى لمواجهة النفقات . وفشلت الخطة إلى حين ، ولكنها نفذت فى اليوم التاسع والعشرين من مايو سنة ١٥٤٦ ، واقتحم اثنان من آل كيركالداى واثنان من آل لزلى وعصبة عديدة من النبلاء والقتلة قصر الكاردينال عنوة وقتلوه « فى حالة تلبس » تقريباً لأنه ، « كما يقول نوكس » كان مشغولا بحساباته مع السيدة أوجيلفى فى تلك الليلة[١١] . وأردف نوكس قائلا : « والآن بما أن الطقس حار فقد رئى أن من الأفضل لمنعه من أن يتعفن أن يعطوه جرعة كبيرة كافية من الملح ،

وقباء من الرصاص ... انتظاراً لما سوف يعده له إخوانه الأساقفة من طقوس الفن . ونحن إنما نسجل هذه الأمور بابتهاج[١٢] » . وانسحب القتلة إلى قلعة سانت أندروز على الساحل وانتظروا وصول العون من إنجلترا بطريق البحر .

وعاد آران إلى الاضطلاع بعبء الحكم . ولكى يضمن مساعدة الفرنسيين وعد بأن يزوج الملكة الطفلة مارى ستيوارت لولى عهد فرنسا ، ولكى يحال بينها وبين الوقوع فى أيدى الإنجليز ، أرسلت سراً إلى فرنسا (١٣ أغسطس سنة١٥٤٨) . وقضى ارتقاء مارى تيودور العرش فى إنجلترا على خطر قيام الإنجليز بغزوات أخرى إلى حين . وكانت الكاثوليكية وقتذاك تسيطر على جانبى الحدود . وغلب النفوذ الفرنسى على آران فحمله على أن يتنازل عن وصاية العرش (١٥٥٤) إلى مارى أميرة اللورين ، أم الملكة الغائبة . وكانت امرأة على حظ من الذكاء والجلد والشجاعة ، لم تذعن إلا لروح العصر الغلابة ووهبت ثقافة النهضة الفرنسية ، فقابلت العقائد الدينية المناظرة التى كانت تضطرم بالغضب حولها بابتسامة تنم على التسامح . وأمرت بإطلاق سراح العديد من البروتستانت المسجونين ، وسمحت للهراطقة بحرية كبيرة فى الوعظ والعبادة ، إلى حد أن الكثير من البروتستانت الإنجليز الذين فروا من مارى تيودور وجدوا ملجأ ، وسمح لهم بتكوين جماعات دينية برئاسة مارى أميرة اللورين . كانت أعظم حاكمة رقيقة العاطفة متمدينة عرفتها اسكتلندة قروناً طوالا .

٣ — جون نوكس : ١٥٠٥ — ٥٩

كانت الدعاية للإصلاح الدينى قد مضى عليها مائة عام فى إسكوتلندة . وفى عام ١٤٣٣ اتهم بول كراور بإدخال عقيدتى ويكليف وهس ، وقضت الكنيسة بإدانته وأحرقته الدولة . وفى عام ١٤٩٤ استدعى

ثلاثون « لولاردا من كيل » للمثول أمام أسقف جلاسجو بتهمة رفض الاعتقاد فى المخلفات والصور الدينية والاعتراف السرى أمام قسيس ، ورسامة القساوسة وسلطانهم والتجسد ، والمطهر ، وشكوك الغفران والقداسات من أجل الموتى ورهبانية رجال الدين والسلطة البابوية(١٣) . وبذلك نجد أنفسنا أمام تلخيص يكاد يكون كاملا لمبادئ الإصلاح الدينى قبل نشر رسائل لوثر بثلاثة وعشرين عاماً . ومن الواضح أن المتهمين تراجعوا عما قالوا به .

وسرعان ما دخلت رسائل لوثر إلى إسكوتلندة بعد عام ١٥٢٣ ، وانتشرت ترجمة للعهد للجديد باللغة الإسكوتلندية من إعداد ويكليف فى مخطوطة ، وارتفع نداء يطالب بمسيحية تعتمد على الكتاب المقدس وحده دون سواه .

وذهب باتريك هاميلتون إلى باريس ولوڤان ، ودرس تعاليم إرازموس والفلسفة اليونانية ومضى إلى فتنبرج وعاد إلى إسكوتلندة مشيعاً بالعقائد الجديدة ونادى بالتزكية بالإيمان ودعاه جيمس (عم دافيد) وبيتون ، ثم رئيس أساقفة سانت أندروز للحضور ، وإيضاح ما يعنيه بأقواله ، فجاء وتمسك بآرائه وأحرق (١٥٢٨) . وفى عام ١٥٣٤ أحرق اثنان آخران من « العلماء » كما كان المصلحون الدينيون الإسكوتلنديون الأوائل يسمون أنفسهم . وشنق أربعة رجال وأغرقت امرأة عام ١٥٤٤ ، وطبقاً لما يرويه نوكس الذى لا يعتمد على روايته دائماً ، ذهبت إلى حتفها وعلى صدرها طفل رضيع(١٤) .

وكانت عمليات القتل العمد هذه موزعة على عصور ومواضع مختلفة ، إلى حد جعلها لا تثير رد فعل عام قوى . بيد أن شنق جورج ويشارت مس شغاف قلوب الكثيرين ، وكان أول حادث له أثره فى الإصلاح الدينى الاسكوتلندى . وقد ترجم ريشارت حوالى عام ١٥٤٣ الاعتراف السويسرى البروتستانتى الأول ، ومن سوء الحظ أن هذا الإعلان البروتستانتى أمر السلطات

العلمانية بمعاقبة الهراطقة(١٥) ، [وأزاحت الاتجاهات البروتستانتية السويسرية منذ ذاك — وكانت فى مبدأ الأمر زوينجالية تتسم بالرحمة ثم أصبحت كالفينية صارمة — اللوثرية يوماً بعد يوم فى الحركة الإسكوتلندية . وقدم ويشارت عظاته فى مونتروز ودندى ولازم بشجاعة مرضى وباء منتشر ، وفسر العقيدة الجديدة فى إدنبرة فى وقت كان فيه دافيد بيتون يعقد مجمعاً إكليروسياً من رجال الدين الإسكوتلنديين هناك ، فأمر الكاردينال بالقبض عليه بتهمة الهرطقة ، وحكم عليه بالإدانة وقتل خنقاً وأحرق (١٥٤٦) .

وكان من بين من تحولوا عن مذهبهم على يديه ، شخصية من أقوى الشخصيات فى التاريخ وأعظمها نفوذاً . وقد ولد جون نوكس بين عامى ١٥٠٥و١٥١٥ قرب هندنجتون.ونذره والداه الفلاحان ليكون قسيساً،ودرس فى جلاسجو ورسم قساً (حوالى عام ١٥٣٢) ، واصبح معروفاً بتضلعه فى القانون المدنى والقانون الكنسى على السواء . ولا تتحدث سيرته الذاتية « تاريخ إصلاح الدين داخل مملكة إسكوتلندة » بشىء عن شبـــابه ولكنها تقدمه فجأة (١٥٤٦) بوصفه مريداً متحمساً لجورج ويشارت وحارساً شجاعاً له ، يحمل سيفاً له مقبضان .وأخذ نوكس يتجول من مخبأ إلى آخر بعد القبض على ويشارت ، ثم انضم فى عيد الفصح عام ١٥٤٧ قلعة سانت أندروز إلى العصبة التى قتلت الكاردينال بيتون .

واستشعر الرجال المطاردون الحاجة إلى الدين فطلبوا من نوكس ان يكون واعظاً لهم . فاحتج بأنه لا يصلح ، ثم وافق وسرعان ما اتفقوا على أنهم يسمعوا قط مثل هذا الوعظ الملتهب من قبل . وأطلق على الكنيسة الرومانية اسم : « هيكل الشيطان » وجعلها مرادفة للوحش المخيف الذى ورد وصفه فى سفر الرؤيا . وتبنى العقيدة اللوثرية التى تذهب إلى « أن الإنسان يظفر بالخلاص » ، بأن يؤمن فحسب بأن دم يسوع المسيح يكفر عن خطايانا جميعا (١٦) » . وفى يوليو أبحر أسطول فرنسى وقذف القلعة بالقنابل . وقاوم

المحاصرون أربعة أسابيع ، وأخيراً غلبوا على أمرهم ، وظل نوكس والآخرون يعملون عبيداً فى السفن تسعة عشر شهراً . ، ليس لدينا إلا تفاصيل قليلة عن معاملتهم باستثناء ما ذكر من أنهم كانوا يدفعون لسماع القداس (ويقول لنا نوكس) إنه رفض بشدة ، ولعل هذه الأيام المريرة ، وأثر سوط الملاحظ على الأجسام ساهم فى اشتداد نزوع نوكس إلى الكراهية وجنوح لسانه وقلمه إلى العنف فى العبارة .

وعندما أطلق سراح الأسرى (فبراير سنة ١٥٤٩) عمل نوكس قساً بروتستانتيا فى إنجلترا براتب تقاضاه من حكومة سومرست : وكان يقوم بعظاته يومياً طوال الأسبوع « إذا سمحت له بذلك الجيفة الخبيثة » . ونحن أبناء اليوم الذين لا ننعم كثيراً بالعظات ليس فى مقدورنا إلا أن نتصور بصعوبة مدى إحساس الناس فى القرن السادس عشر بالتعطش إليها . وقد ترك قساوسة الأبرشيات الوعظ للأساقفة الذين تركوه بدورهم للإخوان الرهبان وكانوا يقومون به بين آن وآخر . وأصبح الوعاظ فى البروتستانتية بمثابة صحيفة يومية للأخبار والرأى ، وكانوا يروون على المصلين أحداث الأسبوع أو أحداث اليوم ، وكان الدين وقتذاك ممتزجاً بالحياة إلى الحد الذى جعل كل حدث تقريباً يمس العقيدة أو القائمين عليها ونددوا بنقائص رجال الأبرشية وأخطائهم ونبهوا الحكومة إلى واجباتها وأخطائها . وفى عام ١٥٥١ كان نوكس يعظ أمام إدوارد السادس ونورثمبرلاند فتساءل كيف تأتى فى الغالب الأعم لأتقى الأمراء أن يتخذوا مستشاريهم من أفسق الناس . وحاول الدوق أن يسكته بمنحه منصب أسقفية ولكنه فشل .

وكانت مارى التيودورية أشد خطورة عليه ، ففر نوكس إلى دييب وجينيف (١٥٥٤) بعد شىء من التباطؤ الذى أملاه الحرص ، وزكاه كالفن لدى جماعة تتحدث بالإنجليزية فى فرانكفورت ، ولكن مبادئه وملامحه كانت جد قاسية بالنسبة لمستمعيه ، فطلب منه أن يرحل . وعاد إلى جينيف (١٥٥٥) ، ونحن نستطيع

أن نحكم على قوة شخصية كالفن من التأثير الذى سيطر به وقتذاك على شخصية إيجابية وقوية تماثل شخصيته . ووصف نوكس ، مدينة جينيف فى عهد كالفن بأنها : « أكمل مدرسة للمسيح ظهرت على وجه الأرض منذ أيام الحواريين[١٧] » . واتفقت الكالفينية مع مزاجه لأن تلك العقيدة كانت واثقة من نفسها ، وعلى ثقة من أنها تتلقى الوحى من الرب ، وواثقة من أن الله قد فرض عليها أن تلزم الفرد بانتهاج سلوك محدد واعتناق عقيدة معينة ، وواثقة من حقها فى توجيه الدولة ، ولقد تغلغل هذا كله فى أعماق روح نوكس ، ثم فى التاريخ الإسكوتلاندى عن طريقه . وتوقع فى فزع حكم مارى ستيوارت الكاثوليكية لإسكوتلندة ، فسأل كالفن وبولينجر هل يحق لشعب أن يرفض إطاعة « حاكم يرغم الناس على عبادة الأوثان ويلغى الدين الصحيح » فلم يحيرا جواباً ، ولكن جون نوكس كان يعرف ما يدور فى خلده .

وفى خريف عام ١٥٥٥ ، وكان وقتذاك فى الخمسين من عمره على الأرجح أظهر الجانب الرقيق من شخصية جافة بالعودة إلى مارى تيودور ملكة إنجلترا والذهاب إلى برويك والزواج من مرجريت بويز لأنه أحب أمها . وكان لمسز بويز خمسة أولاد وعشر بنات وزوج كاثوليكى ، وكان لوعظ نوكس الفضل فى اكتسابها لصف البروتستانتية ، وأسرّت له بمتاعبها المنزلية ووجد متعة فى أن يشير عليها بما يجب ، وعزاء فى صداقتها ، ومن الواضح أن العلاقة بينهما ظلت روحية إلى النهاية .

وعندما تزوج نوكس من مرجريت تركت مسز بويز زوجها وذهبت لتعيش مع ابنتها وكاهن الاعتراف الخاص بها . وماتت الزوجة بعد خمس سنوات من عقد الزواج . وتزوج نوكس للمرة الثانية ، ولكن مسز بويز بقيت معه . ومن النادر أن توجد فى التاريخ حماة محبة ومحبوبة بهذا القدر .
وذهب الثلاثى الغريب إلى إسكوتلندة ، حيث كانت مارى أميرة اللورين

لا تزال ترى التسامح مفيداً في كسب تأييد الحزب البروتستانتي من النبلاء ، وأثنى على الوصية على العرش باعتبارها « أميرة جديرة بالاحترام » . وهبت حكمة وكياسة تفردت بهما[١٨] . « ونظم اجتماعات بروتستانتية للمصلين في إدنبره وغيرها من الأماكن وكان له الفضل في أن يتحول على يديه إلى المذهب البروتستانتي أشخاص من ذوى النفوذ ، مثل وليام ميتلاند ، سيد ليثنجتون ، وجيمس ستيوارت الشقيق غير الشرعي لماري ستيورات الذى قدر له أن يكون وصياً على العرش باسم إيرل اف مراى أو موراى . ولم ترض محكمة كنسية عن هذا التطور ، فاستدعت نوكس ليقدم حساباً عن أعماله ، وآثر أن يسلك سبيل التروى فتسلل من إسكوتلندة مع زوجته وأمها ، (يوليو سنة ١٥٥٦) . ولم تستطع المحكمة الكنسية أن تحرق في غيابه سوى تمثال له ، وأضفى عليه هذا التجسيم لاستشهاده بدون ألم نبلا في عيون البروتستانت الإسكوتلنديين ، ومنذ تلك اللحظة جعلوه زعيماً للإصلاح الديني الإسكوتلندى ، حيثما حل.

ولقد طور وهو في جينيف ، باعتباره راعياً لأبرشية إنجليزية ، البرنامج الكالفيني الكامل فيما يتصل بإشراف رجل الدين على أخلاق رعايا أبرشيته وسلوكهم ، ودعا في الوقت نفسه مسز آن لوك ، التي تحولت عن عقيدتها على يديه في لندن ، إلى أن تترك زوجها وتأتى مع ابنتها لتعيش بالقرب منه في جينيف ، وكتب لها رسائل لا تقاوم :

يا أعز أخت ، لو استطعت أن أعبر لك عما أكابده من اشتياق وضنى لحضورك فسوف أبدو وقد تجاوزت الحد . نعم إنى لأبكى وأبتهج عندما أذكرك ، ولكن ذلك سوف يزول بما أجده من عزاء في حضورك ، الذى أؤكد لك أنه جد عزيز لدى إلى حد أنه لو لم يكن عبء هذه الجماعة الصغيرة ، المجتمعة هنا باسم المسيح ، قد عاقنى ، لحضرت إليك قبل رسالتى . . ولو لم يمنعك بعلك (زوجك) إلى حد ما . . . لوددت من أعماق قلبى ،

نعم ، وما كنت لأستطيع أن أتوقف عن أن أتمنى رضى الله بهدايتك إلى هذا المكان[١٩] .

وتركت مسز لوك لندن ضاربة عرض الحائط بمعارضة بعلها ، ووصلت إلى جينيف (١٥٥٧) مع ابن ، وابنة وخادمة . وماتت الإبنة بعد ذلك ببضعة أيام ، ولكن مسز لوك ظلت قرب نوكس وعاونت مسز بويز التى تقدمت بها السن ، ولم تعد وقتذاك مصدراً للراحة كما كانت من قبل ، فى تلبية حاجات الواعظ . وليس لدينا دليل على وجود علاقات جنسية ، ولا نسمع أى شكوى من مسز نوكس ، بل إننا لا نكاد نسمع عنها على الإطلاق . إن هادم البيوت القديم سوف يتخذ نفسه أماً ، وكانت له طريقته باسم المسيح .

بل كانت له طريقته فى كل شىء تقريباً . وكان مثل كثير من العظماء ، صغير الجسم ، بيد أن كتفيه العريضتين كانتا تنمان على القوة ، ومحياه الصارم يدل على اليقين والتطلع إلى السلطة . شعر أسود وجبهة ضيقة وحاجبان كثيفان وعينان نفاذتان وأنف ينم على التطفل وخدان أسيلان وفم واسع وشفتان غليظتان ولحية طويلة ، وأصابع مستطيلة ، ونحن نجد فى هذا تجسيداً للإخلاص والرغبة فى السلطة ، وهو رجل يتميز بنشاط مبعثه التعصب . وكان يحب الوعظ مرتين أو ثلاثاً كل أسبوع لمدة ساعتين أو ثلاثا فى كل مرة ، وكان علاوة على هذا يدبر الشئون العامة ويوجه حياة الأفراد ، فلا عجب « ألا أجد فى الأربع والعشرين ساعة أربع ساعات أخلو فيها من العمل للراحة الطبيعية[٢٠] » . ويلطف من شجاعته ، حياء يعتوره إلى حين ، وكانت عنده بديهة تنبهه إلى الفرار من الموت وشيك الوقوع . واتهم بتحريض البروتستانت على القيام بثورة محفوفة بالمخاطر فى إنجلترا أو إسكوتلندة فى الوقت الذى بقى فيه فى جينيف أو دييب ، ومع ذلك فإنه واجه عشرات الأخطار وندد بفساد نورثمبرلاند فى وجهه وجاهر فيها بعد بالدمقراطية فى وجه ملكة . ولم يكن فى الإمكان شراؤه بالمال . وظن أو ادعى أن صوته هو صوت الله .

وصدق كثيرون ادعاءه وحيوه باعتباره رسولا من قبل الله ، ولذلك فإنه عندما خطب قال سفير إنجلترا : « إنه ينفخ فينا من الحياة أكثر مما يفعل ١٠٠ بوق تضج فى أذاننا[٢١] » .

وكانت العقيدة الكالفينية مصدراً من مصادر قوته . لقد قسم الله كل الناس إلى الصفوة والملعونين ، وكان نوكس وأنصاره من الصفوة ، ومن ثم كتب لهم النصر من الله ، وكان خصومهم أشقياء ، وسوف تكون جهنم مثواهم عاجلا أو آجلا . وكتب يقول : « إننا مقتنعون بأن كل ما يفعله خصومنا عمل شيطانى[٢٢] » . وهؤلاء الخصوم الملعونون من الله لا يستحقون أى حب مسيحى لأنهم أبناء الشيطان لا الرب ، وهم لا يطوون جوانحهم على أى خير ، ويحسن استئصال شأفتهم تماماً من الأرض : ونعم بتلك والكراهية الكاملة التى يثيرها الروح القدس فى قلوب صفوة الرب ضد أولئك الذين يزدرون تماثيله المقدسة[٢٣] » وفى الصراع مع الأشقياء كانت جميع الوسائل مباحة — الكذب والغدر[٢٤] وتناقضات السياسة[٢٥] المرنة . فالغاية تبرر الوسيلة .

ومع ذلك فإن فلسفة نوكس الأخلاقية فى ظاهر أمرها كانت تتعارض تماما مع فلسفة مكيافيلى . فهو لم يسلم بأن يتحرر الساسة من القانون الأخلاقى المطلوب من المواطنين ، وطالب بأن يطيع الحكام والمحكومون على السواء تعاليم الكتاب المقدس . غير أن الكتاب المقدس كان يعنى بالنسبة إليه فى الغالب العهد القديم ، وكان أنبياء يهود المتوعدون أصلح لغايته من الرجل الذى استشهد على الصليب . فقد كان فى وسعه أن يستميل الأمة إلى إرادته أو يحرقها بنبوءات ملتهبة . وادعى أنه يملك قوة تنبئية ، وتنبأ حقا بوفاة مارى تيودور المبكرة وسقوط مارى ستيوارت — أو لعل هذه الأمانى تحققت لحسن الحظ ؟ — وكان صائب الرأى لا يخطئ الحكم على أخلاق الرجال الآخرين

وأحيانا على أخلاقه . إذا اعترف[٢٦] في سماحة « إنني بفطرتي جلف غليظ » .
وعزا فراره من إسكوتلندة إلى الضعف البشري والخبث[٢٧] .

وكان وراء زمجرته دعابة جافة ، وكان في وسعه أن يكون رقيقاً بقدر ما كان عنيفاً . وأكب بإخلاص كامل على عمله وهو إنشاء سلطة يتمتع بها نظام كهنوتي مطهر وعالم يشرف على الجنس البشري ويبدأ بالإسكوتلنديين . وكان من رأيه أن النظام الكهنوتي الفاضل إنما يستلهم الله ، وعلى هذا فإنه في مجتمع حساس على هذا النحو سيكون الله والمسيح هما الملك . وكان يؤمن بالحكم بأمر الله ولكنه عمل للديمقراطية أكثر مما فعل أي رجل آخر في عصره .

ولم تكن رسائله مجرد تمارين أدبية بل كانت وكأنها هزيم رعد سياسي وكانت تضارع رسائل لوثر في قوة الهجاء . وكانت الكنيسة الرومانية عنده ، كما هو الحال عند لوثر ، « بغيا . . . . دنستها تماماً كل ضروب الفجور الروحي[٢٨] » . وكان الكثالكة « بابويين أضر من الوباء » و « تجار قداس » وكان قساوستهم « ذئاباً مفترسة » . ولم يكن هناك رجل يبزه فصاحة في ذلك العصر الفصيح . وعندما تزوجت ماري تيودور من فيليب الثاني انفجر نوكس غاضباً في رســالة بعنوان : « تحذير مخلص إلى معلمي حقيقة الرب في إنجلترا » (١٥٥٤) .

ألم تثبت ماري أنها خائنة صراح لتاج إنجلترا الإمبراطوري باستقدامها أجنبياً ، وتنصيب ملك إسباني متعجرف ليلحق الخزي والعار والدمار بالنبلاء وذويهم ، وليسلبهم ألقاب شرفهم وأراضيهم ومقتنياتهم ومناصبهم الكبيرة ومراتبهم الرفيعة ، حتى يلحق البوار التام بخزائن المملكة وأسباب تجارتها وبحريتها وحصونها ، وحتى يحط من شأن ملاك الأراضي ، ويجعل عامة الناس يرسفون فيها في قيود العبودية ، ويطيح بالمسيحية وديانة الرب الصحيحة ، وحتى يقوض آخر الأمر دعائم الأملاك العامة ورفاهية إنجلترا بأسرها .... إن الله برحمته السابغة ، يبعث بنحاس أو إليــا

أو يهوه ، عسى أن يهدئ دم عبدة الأوثان المقيت غضب الرب ولا يهلك الجمع بأسره(٣١) !

ولكنه كتب بين آن وآخر ، وإن كان هذا نادرا ، فقرات تفيض رقة وجمالا ، وجديرة بسانت بول الذى ألهمهم ، مثل « رسالة إلى إخوانه فى إسكوتلندة » لن ألجأ إلى أى تهديد ، لأنى كبير الأمل فى أنكم سوف تمشون مثل أبناء الضوء ، وسط هذا الجيل الخبيث ، وأنكم سوف تكونون مثل النجوم فى الليل ، التى لا تتغير مع ذلك فى الظلام ، ومثل قمحة وسط صدفة ؟؟؟ ومن عداد الرجال المتهللين العقلاء ، وتملأون مصابيحكم بالزيت من جديد كل يوم ، كأولئك الذين ينتظرون فى صبر الظهور المجيد ليسوع الرب ومحبيه ، وهو الذى تحكم روحه القديرة وتعلمكم وتنير قلوبكم وعقولكم فى كل ما يوجه إليكم من هجوم الآن وإلى الأبد(٣٢) .

وهناك رسالة متميزة أكثر من غيرها هى أول « نفخة فى البوق ضد كتيبة النساء المروعة » التى دبجت فى ديبب عام ١٥٥٨ ضد ما خيل لنوكس أنه وباء الحاكمات من النساء فى أوروبا — مارى تيودور ومارى أميرة اللورين ومارى ستيوارت وكاثرين دى مديتشى . وفى وسعنا أن ندرك مدى هلعه من تطبيق مارى تيودور لمبادئه ، ولكن حتى إذا لم تضطهد مارى أعداءها فإن نوكس يعدها وحشاً ووصمة سياسة تنتهك القاعدة الطبيعية التى تقول إن الرجال يجب أن يحكموا الدول . ويبدأ يقول « لا عجب أن نجد بين كثير من العقول الخصيبة التى أنجبتها جزيرة بريطانيا العظمى كثيرا من الوعاظ الورعين والمتحمسين بقدر ما أطعمت أحياناً ، ولا يوجد بين الكثيرين من علماء اللاهوت والرجال ذوى الرأى الرصين الذين نفتهم إيزابيل (مارى تيودور) ، رجل مقدام شجاع ومخلص للرب . . . يجرؤ على تنبيه سكان تلك الجزيرة إلى مدى ما وصلت إليه من بغض

أمام الله ، إمبراطورية أو ملك امرأة ، بل خائنة وابنة سفاح ، وماذا فى وسع شعب أو أمة تركت مجردة من رأس شرعى أن تفعل بسلطة الرب فى انتخاب وتعيين حكام وقضاة للعموم . . . إننا لسمع عن سفك دم إخواننا أتباع يسوع المسيح بأشد قسوة والإمبرطورية المتوحشة لامرأة قاسية ، نعلم أنها وحدها سبب كل هذا الشقاء . . . إن الارتقاء بامرأة لكى تنهض بحكم أو سيادة أو سلطان أو إمبراطورية تفوق أى مملكة أو أمة أو مدينة أمر يخالف الطبيعة ويعد إهانة للرب ، ومناقضاً لإرادته التى جلاها وشريعته المسلم بها ، وأخيراً فإنه تقويض لدعائم نظام وطيد ، ولكل إنصاف وعدل ، من ذا الذى يستطيع أن ينكر أن تعيين الأعمى لقيادة المبصرين وتوجيههم إنما يتناقض مع الطبيعة ؟ ومن ذا الذى يقول إن الضعفاء والمرضى والعاجزين يطعمون الأقوياء جميعاً ؟ وأخيراً من يقول إن الحمقى والمجانين والمخبولين يحكمون العقلاء ويقدمون المشورة لأصحاب العقول الرصينة ؟ وهكذا كل النساء إذا قورن بالرجال فى احتمال السلطة ... فالمرأة فى أكمل صورة خلقت لتخدم الرجل وتطيعه لا لتحكمه وتأمره(٣٣) .

واستشهد نوكس بوثيقة لا جدال فيها من الكتاب المقدس لكى يثبت هذا ، ولكنه عندما تغلغل فى أعماق التاريخ ، وبحث عن أمثلة للدول هدمتها نساء حكمتها ، اختلط عليه الأمر تماماً ، لأنه وجد أن التاريخ سجل أنهن أفضل بكثير من الملوك . ومع ذلك فإنه ختم رسالته بلعنة الواثق من حكمه :

إن إيزابل اللعينة ملكة انجلترا هى وجيل البابويين المقيت المؤذى كالوباء لا يألون جهداً فى الزهو والتفاخر بأنهم لم ينتصروا على ويات فحسب ، بل انتصروا أيضاً على كل من دبر شيئاً ضدهم . . . وأنا لا أخشى أن أقول إن يوم الانتقام ، الذى سوف يقبض فيه على ذلك المسخ

الفظيع جيزيل ملكة انجلترا ... قد تحدد فى مجلس الحى الباقى ... وليعلم هذا الناس جميعاً لأن البوق قد نفخ فيه[٣٤] .

وأخذ نوكس مخطوطة كتابه « نفخة » إلى جينيف وطبعها سرا ولم يضع عليه اسمه ، وأرسل نسخاً منه إلى إنجلترا ، فحرمت مارى تداول الكتاب باعتباره تحريضاً على الثورة ، وجعلت حيازته جريمة يعاقب عليها بالإعدام .

وعاود نوكس الهجوم فى رسالة بعنوان : « نداء ... إسكوتلندة وطبقات سكانها (يوليو سنة ١٥٥٨) » .

لا أحد ممن يحرضون الناس على عبادة الأوثان(*) ينبغى أن يعفى من عقوبة الإعدام ... ويجب تطبيق الحكم نفسه فى مكان يؤمن بيسوع المسيح وإنجيله ... اللذين اعترف بهما الحكام والناس فى خشوع ، ووعدوا بالدفاع عنهما ، كما حدث فى عهد الملك إدوارد فى الأيام الأخيرة بإنجلترا . وفى مثل هذا المكان أقول إن عقوبة الإعدام ليست مشروعة على من يعمل على تقويض دعائم الدين فحسب ، بل إن الحكام والناس ملتزمون بأن يلتهجوا هذا السبيل ، إلا إذا أرادوا أن يثيروا غضب الله عليهم ... وأنا لا أخشى أن أؤكد أن واجب النبلاء والقضاة والحكام والشعب فى إنجلترا كان لا يقتضى منهم أن يقاوموا مارى ، تلك الإيزابل ، ويعارضوها فحسب ... بل عليهم أن يقتصوا منها بإعدامها[٣٦] .

وحث نوكس شعب إسكوتلندة على تطبيق هذا الرأى الخاص بالثورة الشرعية على مارى أميرة اللورين ، وشكا من أن الوصية على العرش قد أحاطت نفسها بحاشية فرنسية وجنود فرانسيين ليأكلوا مدخرات الإسكوتلنديين : بينما يؤتى بالأغراب لسحقنا نحن وخيرنا العام وذريتنا ،

(*) كتب نوكس عام ١٥٦٠ : « إننا نقصد بعبادة الأوثان القداس والتوسل بالقديسين وعبادة الصور واستيفاءها والاحتفاظ بها وكل عبادة للرب لا يحويها كتابه المقدس[٣٥] » .

وبينما يحافظ على عبادة الأوثان ويستخف بالدين الصحيح ليسوع المسيح ، وبينما ذوو الكروش والطغاة الدمويون الأساقفة يبقون ، ويضطهد رسل المسيح الصادقون ، وأخيراً بينما تحتقر الفضيلة وتمجد الرذيلة . فأى رجل ورع يمكن أن يساء إليه لأننا سوف ننشد تقويم هذه الأعمال الفاضحة (نعم ، حتى لو اقتضى الأمر الالتجاء إلى قوة السلاح ، إذا رأينا أنه لن يتيسر لنا بخلاف ذلك) ؟ . . . إن العقوبة على ارتكاب جرائم مثل عبادة الأوثان والكفر وغيرهما ، التى تمس الله سبحانه وتعالى ، لا يختص بها الملوك وكبار الحكام فحسب ، بل تخص بها أيضاً الهيئة الكاملة لذلك الشعب ، وتخص كل عضو فى الهيأة ، طبقاً لما يتيحه الله من إمكان وفرصة للانتقام من الضرر الذى لحق بمجده(٣٧) :

وهنا نجد مزيجاً غريباً من الثورة والرجعية فى بيانات نوكس . وكان لا بد أن يتفق معه فى تبرير قتل الطغاة من آن لآخر كثير من المفكرين ومنهم هوجينوت فرنسيون مثل هوتمان ويسوعيون مثل ماريانا . ومع ذلك فإن اقتناعه ، بأن هؤلاء الذين كانوا واثقين من لاهوتهم يجب أن يسحقوا — وإذا اقتضى الأمر يقتلوا — خصومهم ، رجع فيه إلى أكثر ممارسات محكمة التفتيش شؤماً . واعتبر نوكس أن الأصحاح الثالث عشر من سفر التثنية لا يزال سارى المفعول وفسره حرفياً ، فكل هرطيق يجب أن يعدم ، والمدن التى تغلب عليها الهرطقة يجب أن يقتص منها بالسيف وتدمر تماماً ، ويقضى على ما فيها من ماشية ، وكل بيت فيها يجب أن يحرق حتى ينهدم ، ويعترف نوكس أن هذه الأوامر الخالية من الرحمة أفزعته فى بعض الأحيان : قد يبدو هذا الحكم حتى للرجل المادى صارماً وقاسياً ، أجل ، وقد يبدو وكأنه صدر عن غضب لا عن تعقل . . . . وأى مدينة : . . لا يوجد فيها أبرياء مثل الرضع والأطفال وبعض السذج والجهال لا يقترفون الكفر أو يستسلمون له ؟ ومع ذلك فإننا لا نجد استثناء بل إن الجميع مكتوب عليهم الموت القاسى . بيد أنه فى مثل هذه الأحوال أرادت مشيئة الله أن تنحنى جميع المخلوقات وتغطى وجوهها ، وتكف عن التفكير المنطقى ، إذا كان هناك أمر منه تعالى بتنفيذ إرادته(٣٨) .

وعلينا ألا نحاكم نوكس بمقاييسنا الراهنة عن التسامح ، فقد أعرب بإصرار شديد عن الروح العامة لعصره تقريباً .

وكانت السنوات التى قضاها فى جينيف ، حيث كان سرفينوس قد أحرق لتوه ، قد أكدت نزعته نحو الالتزام بالحرفية الصارمة واليقين الذى يصل إلى درجة الغرور . ولو أنه قرأ ما احتج به كاستليو لتبرير التسامح لطابت نفسه على الأرجح برد يبز عليه . ومع ذلك فإن رجلا مغموراً ممن ينكرون وجوب التعميد كتب فى تلك السنوات نفسها نقداً للكالفينية بعنوان : « مهمل بالضرورة » وأرسله البروتستانت الإسكوتلنديون إلى نوكس ليرد عليه رداً مفحماً ، وكأنما كان صوت العقل يهمس لحظة وسط حرب العقائد . وتساءل المؤلف كيف جاز للكالفينيين بعد أن عرفوا مفهوم المسيح عن أب محب ، أن يؤمنوا بأن الله قد خلق بشراً كتب عليهم ، وشاء لهم اللعنة الأبدية . وقال المنكر لوجوب التعميد أن الله قد وهب الناس ميلا طبيعياً لأن يحبوا ذريتهم ، فإذا كان الله قد خلق الإنسان على صورته ، فكيف يكون الله أقسى من الإنسان ؟ واستطرد المؤلف قائلا إن الكالفينيين قد أتوا من الشر أكثر مما أتى به الملحدون « لأن الذين يؤمنون بأن الله ليس جائراً وقاسياً وظالماً أقل قذفاً فى حق الله ممن يقولون بأنه كذلك » ورد نوكس « أن هناك أسراراً تخفى على العقل البشرى ، ولسوف تحطم كبرياء أولئك الذين لا يقنعون بإرادة الله التى تتجلى ، ويسرهم أن يصعدوا ويحلقوا فوق السماوات ليتساءلوا عن إرادة الله الخفية » . وكتب يقول فى موضع آخر « والطبيعة والعقل إنما يضلان الناس عن الله الحق . وأى وقاحة أن ينضل المرء الطبيعة الفاسدة والعقل الأعمى على كتب الله المقدسة(٣٩) ؟ » .

ولم يقتنع نوكس بقوة الاستدلال واعتقد فى قرارة نفسه أنه مخلص لروح المسيح ، فأرسل عام ١٥٥٩ ، عندما كانت تحكم إنجلترا ملكة بروتستانتية ، إلى شعبها رسالة بعنوان : « عظة موجزة » ينصحه فيها بأن يكفر عما قامت

به ماری من اضطهاد يجعل العقيدة الكالفينية ونظامها الأخلاقى إجباريين فى سائر البلاد » ورفضت إنجلترا العمل بالنصيحة . وعاد نوكس فى ذلك العام إلى إسكوتلندة ليشرف على إيديولوجية ثورتها .

٤ ـ جماعة أتباع يسوع المسيح : ١٥٥٧ — ٦٠

لقد امتزجت دعواته الإسكوتلنديين إلى الإطاحة بنير الخضوع لروما بتعاليم المصلحين الدينيين الآخرين وتدفق البروتستانت من إنجلترا وتسلل الأناجيل والنشرات من إنجلترا والقارة الأوروبية ، وتعطش النبلاء الإسكوتلنديين للأرض وإبعادهم الموغر للصدور على يد الفرنسيين الذين يضعون المساحيق على وجوههم من رجال الحاشية ، فعملت على رفع درجة حرارة الثورة إلى نقطة الانفجار . واحتمل سكان إدنبره ، الكاثوليك المتمسكون بعقيدتهم عام ١٥٤٣ بطريق مباشر وبإستياء شديد تدفق الغاليين المتغطرسين أثناء وصاية مارى أميرة اللورين على العرش . وحدث كل شىء يحيل حياة الدخلاء بؤساً وشقاء . واشتد الإحساس بالذات فى كلا الجانبين ، ولما كان رجال الاكليروس قد أيدوا الفرنسيين فإن روح القومية رددت نغمات عالية مناهضة للكاثوليكية وسارت مواكب دينية — حملت فيها تماثيل للعذراء والقديسين عبدت فيما يبدو ، وعرضت مخلفات وقبلت باحترام — فأثارت المزيد من السخرية والشك .

وفى سبتمبر عام ١٥٥٧ استولت جماعة من المتشككين المتحمسين على تمثال لسانت جيلس فى « الكنيسة الأم » التى تحمل هذا الاسم فى إدنبرة وغمروها فى بركة ، وأحرقوها فيما بعد حتى تحولت إلى رماد . ويروى نوكس أن هجمات مماثلة استهدفت تحطيم الأصنام حدثت فى كل أرجاء البلاد »

وفى الثالث من ديسمبر عام ١٥٥٧ اجتمعت فى إدنبرة (التى كانت قد أصبحت عاصمة للبلاد عام ١٥٤٢ « عصبة مشتركة » من النبلاء المناهضين

لرجال الدين أرجيل وجلنكرن ومورتون ولورن وإرسكين — ووقعوا « أول ميثاق إسكوتلندى » وأطلقوا على أنفسهم اسم : « لوردات جماعة المصلين ليسوع المسيح » لتعارض « جماعة المصلين للشيطان » — أى الكنيسة ، وتعهدوا بالمحافظة على « كلمة الله المباركة أكثر من أى شىء » ، ودعوا إلى « إصلاح فى الدين والحكومة ، وطلبوا من الوصية على العرش الحرية ، التى تبيح لنا أن نمارس أمور الدين والضمير كما ينبغى استجابة لأمر الله » : وصمموا على إنشاء كنائس تأخذ بأسباب الإصلاح الدينى فى سائر إسكوتلندة ، وأعلنوا أن كتاب الصلاة العامة الذى كتب لإنجلترا فى عهد إدوارد السادس يجب أن تعمل به كل جماعات المصلين ، واحتج الأساقفة البروتستانت على هذا الانشقاق الجرىء وحثوا رئيس الأساقفة هاميلتون على قمعه . فأمر فى شىء من التبرم (٢٨ أبريل سنة ١٥٥٨) — بإحراق والتر ميلن — وهو قسيس عجوز كان قد تجرد من ملابس الكهنوت وتزوج واعتاد أن يبشر بعقيدة الآخذين بالإصلاح الدينى بين الفقراء ، وكان الناس يكنون احتراماً عظيماً للرجل العجوز فأعربوا عن فزعهم لهذا الإحراق الأخير لبروتستانتى إسكوتلندى بتهمة الهرطقة ، وقاموا ببناء هرمى الشكل من الأحجار فوق الموضع الذى مات فيه ، وعندما استدعى واعظ آخر للمحاكمة امتشق المدافعون عنه السلاح ، واقتحموا طريقهم إلى حضرة الوصية ، وأنذروها أنهم لن يسمحوا بمزيد من الاضطهاد من أجل العقيدة الدينية ، وأنذر لوردات جماعة المصلين الوصية (نوفمبر سنة ١٥٥٨) أنها ما لم تمنح الناس حرية العبادة فإنهم لن يكونوا مسئولين « إذا حدث أن قومت المظالم بالعنف(٤٠) » وأرسلوا فى ذلك الشهر رسالة إلى نوكس بأنهم سوف يحمونه إذا عاد .

وتمهل فى العودة ولكنه وصل إلى إدنبره فى اليوم الثانى من مايو سنة ١٥٥٩ . وقدم يوم ٣ مايو فى برث العظة التى أطلقت الثورة من عقالها ، ويقول لنا إنها كانت عظة « عنيفة ضد عبادة الأوثان » وقد فسرت « ما فى

القداس من عبادة للأوثان وما فيه من أمور بغيضة » و« الوصية التى أمر بها الله بتدمير الأنصاب لهذا السبب[٤١] » « وخرج « الجمع الأثيم » كما يصفه من الطاعة ، وعندما حاول قس فى كنيسة مجاورة أن يقيم قداساً صاح أحد الشبان : « إن هذا لا يطاق لأنه فى الوقت الذى لعن فيه الرب عبادة الأوثان صراحة فى كتابه ، فإننا نقف لنراها تعبد على الرغم من ذلك » وجاء فى رواية لنوكس أن القسيس وجه للصبى ضربة شديدة ، فتناول فى غمرة غضبه حجراً وقذف به القسيس وأصاب قدس الأقداس، وحطم أحد التماثيل، وما لبث أن قذف الجمع كله المحتشد حوله الأحجار وأعملوا أيديهم فى قدس الأقداس المزعوم وفى سائر آثار عبادة الأوثان[٤٢] » . وتدفق الجمهور إلى ثلاثة أديار ونهبوها وحطموا التماثيل ، ولكنهم سمحوا للإخوة الرهبان أن يأخذوا معهم ما تستطيع أكتافهم أن تتحمله » : وما هى إلا يومان أو ثلاثة حتى كانت هذه المواضع الثلاثة الكبيرة . . . . قد دمرت ولم يبق منها قائماً سوى الجدران[٤٣] » .

وكانت الوصية على العرش بين نارين ، ونصحها أخوها كاردينال اللورين أن تسير على نهج مارى تيودور ، وأن تقضى على كبار للبروتستانت، وكان الثوار المنتصرون فى برث وحولها فى غضون ذلك يهددون بقتل أى قسيس يجرؤ على إقامة القداس[٤٤] . وفى ٢٢ مايو أرسل لها لوردات جماعة المصلين ، وكان يظاهرهم وقتذاك أتباعهم المسلحون ، إنذاراً نهائياً مشئوماً :

« إلى عظمة الوصية على المملكة ، بعد تقديم كل فروض الاحترام والخضوع ، بما أننا حتى الآن قد خدمنا السلطة فى إسكوتلندة ، هى وعظمتكم، بالمخاطرة بأرواحنا وبقلوب راضية . . . فإننا الآن والأسى يملأ جوانحنا مكرهون ، تحت طأة استبداد ظالم يدبر لنا ، أن نعلن لعظمتكم أنه ما لم تتوقف هذه القسوة بفضل حكمتكم، فإننا سوف نكون مضطرين إلى امتشاق الحسام للدفاع العادل فى وجه كل من يطاردوننا فى سبيل الدين . . . إن جريمة القتل القاسية الظالمة التى بلغت أقصى درجات الاستبداد والموجهة إلى المدن

والجماهير ، كانت ولا تزال السبب الوحيد لتمردنا على خضوعنا التقليدى ، الذى نعد بإخلاص أمام الله أن نقدمه لمولاتنا (مارى ملكة الإسكوتلنديين) ولزوجها ولعظمتكم ، بشرط أن تنعم ضمائرنا بالطمأنينة والحرية اللتين اشتراهما لنا بدمه يسوع المسيح . . . رعايا عظمتكم الخاضعون لكم فى جميع الأمور التى لا تغضب الرب — جماعة المصلين المخلصين ليسوع المسيح فى اسكتلندة[٤٥] » ؟ !

وفى الوقت نفسه بعثت جماعة المصلين نداء إلى النبلاء بتأييد الثورة وخطاباً مفتوحاً حذروا فيه « جيل المناهضين للمسيح والأساقفة المؤذين كالوباء ورهبانهم . . . : إذا مضيتم فى قسوتكم الحاقدة فإنكم سوف تعاملون ، أينما يقبض عليكم كقتلة وأعداء للرب صراحة . ولن يبرم معكم عقد صلح قط إلا إذا انقطعتم عن عبادتكم الصريحة للأوثان واضطهادكم القاسى لأبناء الرب[٤٦] » .

ودخلت الوصية مارى مدينة برث بقدر ما استطاعت أن تحشد من كتائب الجند ، ولكن أنصار جماعة المصلين تجمعوا صفاً مسلحاً ، وأدركت مارى أنها لن تستطيع أن تتغلب عليهم ، فوقعت معهم هدنة (٢٩ مايو سنة ١٥٥٩) ، وانسحب نوكس إلى سانت أندروز ، ولم يعبأ بنواهى كبير الأساقفة ، فوعظ فى كنيسة الأبرشية ضد عبادة الأوثان (١١ — ١٤ يونيه) . وتأثر مستمعوه بحرارة عباراته فأزالوا كل أثر ينم عن عبادة الأوثان « عن كنائس المدينة وأحرقوا هذه التماثيل أمام عينى رجال الدين الكاثوليك[٤٧] . وهرب كبير الأساقفة إلى برث ، ولكن قوات جماعة المصلين ادعت أن مارى قد خرقت نصوص الهدنة باستخدام الأموال الفرنسية فى دفع رواتب جنودها الإسكوتلنديين ، وهاجمت القلعة ، واستولت عليها (٢٥ يونيه) . وفى الثامن والعشرين نهبت دير سكون وأحرقته .

وإذا جاز لنا أن نصدق أحياناً ما يقوله نوكس المعروف برحابة خياله فإن « ربة بيت فقيرة طاعنة فى السن قالت وهى ترى ألسنة اللهب المتصاعدة :

« الآن أرى وأدرك أن أحكام الرب عادلة . فإن هذا المكان بقدر ما تسعفنى الذاكرة لم يكن إلا وكراً للقوادين . إنه لأمر لا يصدق ... كم من زوجة زنى بها ، وكم من عذراء افتض بكارتها الوحوش الدنسة ، التى كانت تحتضن هذا الوكر » ، وبخاصة ذلك الرجل الخبيث . . الأسقف(٤٨) » .

وكانت مارى أميرة اللورين وقتذاك مصابة بمرض خطير ، تتوقع وفاتها فى أية لحظة ، فهربت إلى ليث وحاولت أن تؤخر تقدم البروتستانت المنتصرين بالمفاوضات إلى أن يصل إليها العون من فرنسا . ولكن جماعة المصلين تفوقت عليها فى المباراة ، وذلك بالفوز بتأييد إليزابث ملكة إنجلترا . وكتب نوكس إلى الملكة خطاباً يؤكد لها فيه أنه لم يتعرض لها فى رسالته « نفخة البوق » ضد الملكات . ونصح وليام سيسل الوزير الأول ملكته إليزابث بأن تساعد الثورة الإسكوتلندية كإجراء يحقق اعتماد إسكوتلندة على إنجلترا سياسيا . وأدركت أن هذا إجراء وقائى مشروع ضد مارى ستيوارت ، التى كانت قد طالبت ، عندما أصبحت ملكة فرنسا (١٥٥٩) بعرش إنجلترا أيضاً ، على أساس أن إليزابث ابنة سفاح مغتصبة للعرش . وسرعان ما أغلق أسطول إنجليزى فى مضيق فورث الطريق أمام نزول أى مساعدة فرنسية للوصـيـة على العرش إلى البر ، وانضم جيش إنجليزى إلى قوات جماعة المصلين فى مهاجمة ليث . وانسحبت مارى أميرة اللورين إلى قلعة إدنبره ، وماتت (١٠ يونيه سنة ١٥٦٠) بعد أن قبلت حاشيتها واحداً واحداً . لقد كانت امرأة طيبة قدر عليها أن تقوم بالدور الخطأ فى مأساة لا فكاك منها .

واستسلم آخر المدافعين عنها ، بعد أن سدت فى وجوههم السبل وأوشكوا على الموت جوعاً . وفى السادس من يوليو سنة ١٥٦٠ وقع ممثلو جماعة المصلين ومارى ستيوارت وفرنسا وإنجلترا معاهدة إدنبره التى

قدر لموادها أن تكون من صميم أسباب الصراع الأخير بين ماري وإليزابث . . .
وكان على كل الجنود الأجانب ما عدا ١٢٠ فرنسياً مغادرة إسكوتلندة ، وكفت ماري استيوارت وفرانسيس الثاني عن مطالبتهما بالتاج الإنجليزي ، واعترف بماري ملكة على إسكوتلندة ، ولكن حظر عليها أن تشن حرباً أو تعقد صلحاً بدون موافقة أمراء الإقطاع ، وكان على هؤلاء أن يختاروا خمسة رجال أو اثني عشر رجلا للتعيين في مجلسها الخاص ، ولا يجوز أن يشغل أجنبي أو رجل من رجال الإكليروس منصباً رفيعاً ، ولا بد من إعلان عفو عام، مع استثناءات يعينها أمراء الإقطاع . كانت معاهدة صلح مهينة للملكة الغائبة ، وانتصاراً مبيناً لجماعة المصلين لم تكد تسفك فيه دماء . .

وقبل المجلس النيابي ، الذي اجتمع في أول أغسطس سنة ١٥٦٠ اعترافاً بالعقيدة أعده نوكس ومعاونوه وخفف من غلواء بعض نصوصه ميتلاند ليثنجتون ولم يصوت ضده إلا ثمانية أعضاء . ولما كان لا يزال العقيدة الرسمية لكنيسة إسكوتلندة المشيخية نرى لزاماً علينا أن نسجل بعض مواده الأساسية تذكيراً بها :

١ — نعترف ونقر بوجود إله واحد أحد . . . . في ثالوث :

٢ — نعترف ونقر أن إلهنا هذا قد خلق بشراً ندرك أنه أبونا الأول آدم — خلق منه الله امرأة على صورته . . . حتى لا نلاحظ أي نقص في طبيعة الإنسان الكاملة ، ومن هذا الشرف والكمال سقط الرجل والمرأة معاً .

فالمرأة خدعتها الحية والرجل أصغى لصوت المرأة :

٣ — وبهذه الزلة ، التي يطلق عليها عادة اسم الخطيئة الأولى دنست صورة الرب تماماً في الإنسان ، وأصبح هو وذريته من الطبيعة أعداء للرب ، عبيداً للشيطان وخدماً للخطيئة ، وما دام ذلك الموت كانت له ، وسوف تكون له دائماً ، قوة وسلطان ، على كل من لم يولد أو ولد

أو سوف يولد من أعلى ، وهذا الميلاد من جديد يتم على يد الروح القدس ، وهو يعمل فى أفئدة أصفياء الرب فتمتلىء إيماناً لا يتزعزع بوعد الرب . وبهذا الإيمان يدركون يسوع المسيح .

٨ — وذلك الرب والأب الباً نفسه . . . برحمته وحدها اختارنا فى يسوع المسيح ... قبل خلق العالم .... .

١٦ — إننا نؤمن بإخلاص شديد ، بأنه كانت منذ البداية ، ولا تزال ، وسوف تكون إلى نهاية العالم ، كنيسة أى صحبة وجماعة من الناس اختارهم الله ، لكى يعبدوه بحق ، ويحتضنوه بالإيمان الصحيح بيسوع المسيح ... وخارج هذه الكنيسة لا توجد حياة ولا نعيم أبدى ، ومن ثم فإننا نمقت بشدة كفر من يؤكدون أن الناس يعيشون ، وهم يراعون الإنصاف والعدل سوف يظفرون بالخلاص أيا كان الدين الذى يعتنقونه .

٢١ — نحن لا نقر إلا اثنتين من المقدسات : التعميد والعشاء الربانى . . . لا لأننا نتصور تحول الخبز إلى جسد الرب الطبيعى . . . ولكننا نؤمن بأن صنيع الروح القدس إنما يعنى أن المؤمنين بالاستخدام الصحيح لمائدة الرب يأكلون جسد السيد يسوع ويشربون دمه .

٢٤ — نعترف ونقر بأن الإمبراطوريات والممالك والمستعمرات والمدن أقيمت بفضل الله ... فى الغالب وبصفة رئيسية للملوك والأمراء والحكام ، وذلك من أجل الحفاظ على كل ما يتصل بالدين وتطهيره ، ولهذا فإنهم لا يعينون من أجل السياسة المدنية وحدها ، ولكن من أجل المحافظة على الدين الصحيح ومنع عبادة الأوثان والخرافة أيا كانت أيضاً (٤٩) .

وترتب على هذا الاعتراف أن المجلس النيابى الإسكوتلندى الآخذ بأسباب الإصلاح الدينى رفض التسليم بالسلطة القضائية للبابا ، وجعل القعيدة والشعيرة اللتين تبناهما الإصلاح الدينى إجباريين ، ومنع إقامة القداس وإلا تعرض من يقيمه للعقوبة البدنية ومصادرة أمواله عند ارتكاب أول جريمة ، والنفى

عند ارتكابه لها للمرة الثانية ، والإعدام إذا ارتكبها مرة ثالثة • ولكن لما كان للنبلاء الذين يتحكمون فى المجلس النيابى يريدون الأرض أكثر مما يريدون سفك الدماء ، وبما أنهم لم يتبعوا اللاهوت الكالفينى حرفياً فإن مطاردة هؤلاء الإسكوتلنديين الذين ظلوا كثالكة ، بقى معتدلا نسبياً ، ولم يصل قط إلى توقيع عقوبة بدلية . وبعد أن سمح للنبلاء برفض الاعتراف بالمطهر باعتباره أسطورة ، ادعوا أنهم غبنوا فى جانب من ذممهم المالية بالهبات التى قدمها أجدادهم من الأرض أو المال لدفع أتعاب لقساوسة يرتلون قداسات من أجل الموتى ، الذين قدر عليهم طبقاً للاهوت الجديد ، الخلاص أو اللعنة قبل خلق العالم ، ولهذا فإنه يمكن التعبير فى بهجة عن نزع ملكية الكنيسة بأنه استرداد للأموال المختلسة ، وأغلقت معظم الأديار الإسكوتلندية ، واستولى النبلاء على ثروتها ولم تدبر الحكومة فى مبدأ الأمر أى مورد للقساوسة الكالفينيين ، وكان هؤلاء قد استخدموا كمعاونين أيدلوجيين فى الثورة ، ولكن النبلاء كانوا قد فقدوا وقتذاك الاهتمام باللاهوت • وكان نوكس ورفقاؤه من الوعاظ الذين خاطروا وضحوا بالكثير من أجل النظام الجديد قد توقعوا ، أن تستخدم أملاك الكنيسة فى مساندة الكنيسة الإسكوتلندية ورجال الأكليروس بها . والتمسوا من المجلس النيابى إقرار هذا التدبير فلم يتلقوا جواباً ، ولكن خصص لهم فى آخر الأمر سدس الأسلاب . ووجد أن هذا يقصر عن تحقيق مطالبهم فانقلبوا ضد الأرستقراطية النهمة وبدأ الحلف التاريخى بين أتباع الكنيسة المشيخية الإسكوتلندية والديمقراطية .

وتفردت حركة الإصلاح الدينى الإسكوتلندى بين حركات الإصلاح الدينى جميعاً بأنه لم يسفك فيها إلا أقل قدر من الدماء ، وكانت مع ذلك أبقاها ، وقاسى الكثالكة فى صمت ، وهرب أساقفتهم وقبل معظم قساوسة الأبرشيات التغيير باعتباره ليس أسوأ من ظلم الأساقفة وزياراتهم التفتيشية .

وفقدت المناطق الريفية مفارق طرقها الجانبية ، وهجرت مزاراتها القديمة ، التى كان الحجاج يشدون إليها الرحال ، ولم يعد القديسون يهيئون للناس عطلات يرتاحون فيها . وليس من شك فى أن نفوساً كثيرة قد حزنت على الماضى وبالغت فى مثاليته . وليس من شك أيضاً فى أن كثيرين أخذوا يترقبون ، والأمل يراودهم، مجىء ملكتهم الشابة من فرنسا .

ولقد ضاع الكثير مما كان يشيع المرح والجمال فى الحياة . والكثير مما كان وحشياً وقاسياً وخداعا ، ولسوف تحدث أمور كثيرة جافية كئيبة ، ومع ذلك لم يكن هناك بد من التغيير .

وخفت وطأة تبادل التهم وهيأ الناس أنفسهم ، لتقبل النظام الجديد ، وأصبح التقاء مواقف ما يشبه العقيدة بالصفوف المشايعة للملكية ، والتى يقترب بعضها من بعض ، يعد نعمة كبرى ، لأنه سيضع حداً للحروب المريرة بين الإسكوتلنديين والإنجليز ، وسرعان ما تمنح الأمة الأضعف البلد الأقوى ملكا ، وبريطانيا ستصبح مملكة واحدة .

الفصل الثامن والعشرون

هجرات الإصلاح الدينى

١٥١٧ – ٦٠

١ – المشهد الإسكنديناوى

(١٤٧٠ – ١٥٢٣)

ما إن حل عام ١٥٠٠ حتى كانت تقوى الناس قد جعلت الكنيسة تسيطر على اقتصاد اسكنديناوة . وكانت الكنيسة تملك نصف الأرض فى الدنمرك ، وكان يفلحها مستأجرون فى منزلة تقترب من الرق(١) . وكانت كوبنهاجن نفسها إقطاعية للكنيسة ، ورجال الإكليروس والنبلاء يتمتعون بالإعفاء من ضرائب الأرض . أما النبلاء فلأنهم اشتركوا فى الحرب على نفقتهم الخاصة ، وأما رجال الاكليروس فلأنهم نظموا العبادة والأخلاق والتعليم والبر .

وكانت الجامعات فى كوبنهاجن وأبسالا بالطبع فى أيدى رجال الكنيسة ، وكانت الكنيسة تتقاضى سنوياً عشر كل ناتج أو دخل يُحصّل خارج مجال الكنيسة ، وتقاضت رسماً صغيراً على كل بناء يقام وكل طفل يولد وكل اثنين يتزوجان وكل جثة تدفن ، وطالبت بالتبرع بيوم عمل فى السنة من كل فلاح . ولم يكن فى وسع أحد أن يرث عقاراً ، دون أن يقدم عنه حصة للكنيسة ، باعتبارها محكمة إشهاد للتثبت من صحة الوصايا(٢) . وكان يدافع عن هذه الضرائب بأنها تمول الخدمة الكهنوتية فى الكنيسة ، ولكن الشكاوى ارتفعت بأن الكثير من متحصلات المعاملات التجارية ذهبت لكى يعيش الأساقفة فى أبهة ملكية . وأزعج تجار الدنمرك السيادة الهنزية فى بحرى الشمال والبلطيق ، فتميزوا غيظاً من المنافسة الإضافية للنبلاء ورجال الإكليروس ، الذين كانوا يصدرون فائض إنتاج ضياعهم فى سفنهم الخاصة غالباً . وفى

اسكنديناوة كما فى غيرها من البلاد ، تطلع النبلاء فى شوق إلى أراضى الكنيسة . ولقد حدث هناك ، كما حدث فى كل موضع آخر صراع بين القومية ، وبين الكنيسة التى تسمو على كل قومية ، وأيدت الكنيسة فى كل البلاد الثلاث اتحاد كالمار الاسكنديناوى ، الذى كان كريستيان الأول ملك الدنمرك قد جدده (١٤٥٧) ، ولكن حزباً قومياً يتألف من سكان المدن والفلاحين رفض الاعتراف بالاتحاد ، باعتباره فى الحقيقة سيادة دنمركية ، ونادوا بستن ستور الأصغر نائب ملك يحكم أمة مستقلة (١٥١٢) ، ودافع رئيس الأساقفة جوستاف ترول من أبسالا — وكانت وقتذاك عاصمة للسويد — عن الاتحاد ، فأقاله ستن ستور الصغير وأمر البابا ليو العاشر بإعادته إلى وظيفته فرفض ستور ، وحرم ليو تقديم الخدمات الدينية فى السويد وفوض كريستيان الثانى ملك الدنمرك فى غزو السويد ومعاقبة نائب الملك ، وفشلت أول محاولة لكريستيان ، واضطر إلى توقيع هدنة ، ولكنه حمل معه عند العودة إلى كوبنهاجن عدة رهائن كضمان لالتزام السويديين بنصوص الهدنة ، وكان جوستاف فازا أحد هذه الرهائن . وظفر كريستيان فى حملة ثالثة بنصر حاسم ، ومات ستور متأثراً بالجروح ، التى أصيب بها فى المعركة . وأعدت أرملته على عجل جيشاً احتفظ باستكهلم لمدة خمسة شهور أمام حصار دنمركى ، وأخيراً سلمت مقابل وعد قدمه قائد كريستيان بالحصول على عفو عام . وفى ٤ نوفمبر توج كريستيان ملكاً على السويد على يد ترول الظافر الذى أعيد إلى وظيفته .

وفى السابع من نوفمبر استدعى كبار السويديين الذين أيدا ستور للمثول أمام الملك فى قلعة استوكهلم . واتهمهم ممثل لترول بارتكاب جرائم عظمى بخلعهم كبير الأساقفة وتدمير قلعته ، وطالب الملك بالانتقام منهم لهذه الأخطاء . وعلى الرغم من العفو العام الذى صدر فقد حكم على سبعين من كبار السويديين بالإعدام . وقطعت رءوسهم فى الثامن من نوفمبر فى الميدان

الكبير ، وقبض على آخرين عديدين فى التاسع من نوفمبر وأعدموا ، وأضيف إلى من قتلوا فى هذه المذبحة بعض المشاهدين الذين أعربوا عن تعاطفهم مع المحكوم عليهم ، وصودرت أملاك الموتى لصـالح الملك ، وصرخ كل السويديين من الرعب ، وقال الناس إن اتحاد كالمار أغرق فى « حمام الدم باستوكهلم » وانحطت مكانة الكنيسة كثيراً فى نظر الجماهير لأنها بدأت المذبحة . وقد رأى كريستيان أن يجعل حكمه آمنا بالقضاء على عقول الحزب القومى . والحق أنه مهد طريق العرش للرهينة الشاب الذى قدر له أن يحرر السويد .

واسمه جوستافوس أركسون ، ولكن ذريته أطلقوا عليه اسم فازا ، وهو مشتق من كلمة vasa السويدية و fascis اللاتينية ومعناها حزمة من العصى ظهرت فى شعار أسرته . وعندما بلغ الثالثة عشرة من عمره أرسل ليدرس فى أبسالا ، وعندما بلغ العشرين من عمره استدعى لبلاط ستور الصغير الذى تزوج أختاً غير شقيقة لجوستافوس من أمه ، وهناك تلقى مزيداً من التعليم على يد رئيس الوزراء ، الأسقف همينج جاد ، وفى عام ١٥١٩ فر من المراقبة فى الدنمرك واتخذ طريقه إلى لوبك ، وأقنع أعضاء مجلس الشيوخ فيها (وكانوا فى عداء دائم للدنمرك) ، أن يقرضوه مالا ويعيروه سفينة ، وعاد إلى شواطىء بلاده (٣١ مايو سنة ١٥٢٠) ، وأخذ يضرب على غير هدى وهو متنكر أربعة شهور أو كان يختبىء فى قرى مغمورة . وفى نوفمبر وصلت الأنباء إليه بأن ما يقرب من مائة من الوطنيين المخلصين ، ومنهم أبوه ، قتلوا فى استوكهلم ، فامتطى صهوة أسرع جواد اسـتطاع العثور عليه ، وركب شمالا إلى موطنه مقاطعة داليكارليا ، وصمم على أن ينظم هناك من ملاك الأراضى الجسورين طلائع جيش يمكن أن يحرر السويديين من الدنمركيين .

وكانت حياته وقتذاك ملحمة جديرة بأن يتغنى بها هوميروس . فقد مضى

يسير فى طرقات ثلجية ، والتمس الراحة فى بيت زميل سابق له فى المدرسة ؛ وقدم له هذا الصديق واجبات الضيافة ثم انطلق ليخطر الشرطة الموالية للدنمركيين أن الرهينة الهاربة يمكن القبض عليها وقتذاك ؛ غير أن الزوجة أنذرته جوستافوس ليلوذ بالفرار . وبعد أن قطع راكباً عشرين ميلا وجد ملجأ لدى قسيس أخفاه أسبوعاً . وسافر بعد ذلك ثلاثين ميلا وحاول أن يحرض مدينة راتفيك على الثورة بيد أن أهلها لم يكونوا قد سمعوا بعد بقصة حمام الدم ولم يصدقوها . فركب فازا وسار فى مروج متجمدة خمسة وعشرين ميلا شمالا إلى مورا ، وتوسل مرة أخرى للفلاحين أن يقوموا بثورة ، بيد أنهم أصغوا إليه متشككين فى تبلد . ووجد نفسه منبوذاً وتملكه اليأس لحظة ، فاستدار بفرسه نحو الغرب ، وتخلى عن البحث عن ملجأ فى النرويج ؛ وقبل أن يصل إلى الحدود أدركه رسول من مورا ، ورجاه أن يعود ، وتعهد له بأنه سوف يجد وقتذاك أذناً صاغية بروح تفيض حماسة مثل روحه . فقد سمع الفلاحون أخيراً بأنباء الرعب فى استوكهلم ، وعلاوة على هذا انتشرت شائعة بأن الملك كان يفكر فى القيام برحلة يخترق فيها السويد ، وأنه أمر بإقامة المشانق فى كل مدينة كبرى . وتقرر فرض مكوس جديدة على شعب كان يكافح من أجل الحياة أمام جشع السادة واستبداد المبادئ الأساسية . وعندما خاطب جوستافوس المواطنين فى مورا مرة أخرى أعطوه حرساً مكوناً من ستة عشر من سكان المناطق الجبلية ، وأقسموا أن يسلحوا أنفسهم ، وينظموا صفوفهم ، ويسيروا وراءه حيثما يقودهم لمقاتلة الدنمركيين

ولم يعرفوا وقتها سوى الأقواس والسهام وفئوس الحرب ، وعلمهم فازا كيف يصنعون الرماح والحراب برءوس من الحديد ؛ ودربهم بكل حمية يطويها بين جوانحه شاب يحفزه حب الوطن والساطة ، وبهذه الحماسة استولوا على فستيريس ثم أبسالا ، وفر كبير الأساقفة ترول مرة أخرى ، وكسب الجيش النامى فى صبر وتصميم مقاطعة إثر أخرى من الحاميات الدنمركية

ولم يستطع كريستيان الثانى الحضور ليتولى بنفسه قيادة قواته. لأنه واجه فى بلده ذاتها حرباً أهلية إلا أن أسطوله أغار مراراً على الشواطئ السويدية . وبعث جوستافوس برسل إلى لوبك لكى يطلبوا سفناً حربية . وجهزت المدينة التجارية عشرة سفن صرفت نشاط الأسطول الدنمركى ، وذلك مقابل وعد بالحصول على مبلغ كبير . وفى السابع من يونيه سنة ١٥٢٣ نادى الثوار المنتصرون ، فى ركسراد جديدة بقائدهم ملكاً باسم جوستافوس الأول ، وفى العشرين من يونيه استسلمت ستوكهلم واتخذ فازا منها بعد ذلك عاصمة له . وفى غضون ذلك كان كريستيان الثانى قد خلع عن عرشه فى الدنمرك ، وتخلى خلفه فريدريك الأول عن كل المطالب الدنمركية فى السيادة على السويد ، وانتهى اتحاد كالمار (١٣٩٧ — ١٥٢٣) وبدأت أسرة فازا .

٢ — الإصلاح الدينى السويدى

كان جوستافوس لا يزال شاباً فى السابعة والعشرين من عمره . ولم يكن فارع الطول ، كما نعهد فى الرجال من أهل الشمال ، ولكنه كان يتمتع بقوة بدنية مثل أى قرصان أسكنديناوى ، وكان وجهه المستدير متورداً بحمرة الصحة ، ولحيته الصفراء الطويلة تضفى عليه وقار الملك أكثر من دلالتها على سنه ، وكانت أخلاقه رائعة بالنسبة إلى ملك ، بل إن الكنيسة التى قدر له أن يلبذها بعد ذلك بوقت قصير لم تستطع أن تجادل فى تقواه . ووقف نفسه على القيام بأعباء الحكم بنشاط لا يعرف الأناة ، جعله ينزلق أحياناً إلى التوسل بالعنف أو الاستبداد ، بيد أن ظروف السويد عند ارتقائه العرش كانت تبرر أو تكاد طبعه وحكمه المطلق . وقد ترك آلاف الفلاحين ، فى غمرة فوضى الحرب ، حقولهم دون أن يزرعوها ، وهجر عمال التعدين مناجمهم ، ودمر الصراع المدن ، وخفضت قيمة العملة وأفلست الخزانة العامة ، وأزهقت أرواح أصحاب

العقول المدبرة فى البلاد فى « حمام الدم » ، واعتبر البارونات الإقطاعيون الباقون على قيد الحياة جوستافوس حديث النعمة ، ونظروا باحتقار إلى ادعائه الحق فى الحكم ، ودبرت المؤامرات لخلعه فقضى عليها بيد من حديد ؛ وكانت فنلنده ، التى كانت جزءاً من السويد ، لا تزال فى أيدى الدنمركيين ، وكان سورن نوربى أمير البحر الدنمركى يحتفظ بجزيرة جوتلاند الاستراتيجية ، وضجت لوبك مطالبة بسداد قروضها ؛

وكانت أول حاجة ملحة استشعرتها الحكومة مال يدفع للقوات المسلحة التى تحميها ، ثم للموظفين الذين يقومون على شئونها ، أو وعد بدفع هذا المال ، ولكن الضرائب فى السويد أيام فازا كانت تكاد تكلف فى جبايتها أكثر من المتحصل منها لأن الذين كان فى وسعهم وحدهم أن يدفعوها كانوا أقوياء جداً إلى الحد الذى يقاومون فيه جبايتها . وخضع جوستافوس لما اقتضته الحاجة الملحة من تخفيض قيمة العملة مرة أخرى ، بيد أن العملات الرديئة سرعان ما هبطت إلى قيمتها الفعلية ، وكانت إرادات الدولة أسوأ مما كانت عليه من قبل ، ولم تكن فى السويد إلا جماعة واحدة غنية — هى طبقة رجال الإكليروس ، فتحول جوستافوس إليهم ، وطلب منهم المساعدة ، واعتقد أن من العدل أن تخفف ثروة الكنيسة وطأة الفقر الذى يرزح تحته الشعب والحكومة ، وكتب عام ١٥٢٣ رسالة إلى الأسقف هانز براسك من لنكوبنج ، يطلب فيها هبة قدرها ٥٠٠٠ جيلدر للدولة ؛ فاحتج الأسقف ثم أذعن . وأرسل فازا طلبا عاجلا إلى كنائس السويد وأديارها بضرورة تسليم كل الأموال والمعادن الثمينة ، التى ليست ضرورية لمواصلة خدماتها ، إلى الحكومة بصفة قرض ، ونشر قائمة بالمبالغ التى يتوقع الحصول عليها من كل مصدر ، ولم تكن الاستجابة إليه كما توقع ، وبدأ يتساءل : ما إذا كانت الحكمة تقتضى منه أن يفعل كما كان يفعل الأمراء اللوثريون فى ألمانيا — فيصادر ثروة الكنيسة تلبية لحاجته

الدولة . ولم ينس أن أغلب كبار رجال الإكليروس قد عارضوا الثورة ، وأنهم عضدوا حكم كريستيان الثانى فى السويد .

وفى عام ١٥١٩ عاد أولاوس بترى ، وهو ابن صاحب مصنع حديد سويدى بعد أن قضى بضع سنوات فى الدراسة بفيتنبرج ، وسمح لنفسه ببعض الهرطقات ، وهو شماس فى المدرسة الكاتدرائية فى سترانجنارس وقال إن المطهر أسطورة ، وإن الصلوات يجب أن يخاطب بها الله وحده وإن الاعتراف يوجه إليه تعالى وحده ، وإن الدعوة إلى ما ورد فى الإنجيل خير من شعيرة القداس . وبدأ الناس يتداولون رسائل لوثر فى السويد . فألح براسك على فازا أن يمنع بيعها ، فأجاب الملك بأن تعاليم لوثر عرضت على قضاة عدول فلم يجدوا فيها زيفا[٣] » . ولعله رأى أن من حسن السياسة الاحتفاظ على سبيل الاحتياط بهرطيق يساوم الكنيسة عليه .

وأصحت الأمور أشد إثارة عندما رفض البابا أدريان الســادس أن يصادق على تعيين قاصده الرسولى جوهانس ماجنوس رئيساً لأساقفة أبسالا ، واقترح إعادة جوستاف ترول عدو الثورة . فأرسل فازا إلى مجلس شورى الفاتيكان رسالة كانت حرية وقتذاك (١٥٢٣) بأن تفزع هنرى الثامن وتسعده فيما بعد :

إذا كان عند أبينا المقدس أى اهتمام بسلام بلدنا فإنه يسرنا أن نراه يصادق على اختيار قاصده الرسولى ... وسوف نستجيب لرغبات البابا فيما يختص بإصلاح الكنيسة والدين . ولكن إذا أيد قداسته أنصار كبير الأساقفة ترول الموصومين بالجريمة ، مخالفاً بذلك كرامتنا وسلامة رعايانا ، فإننا سوف نسمح لقاصده الرسولى بالعودة إلى روما ، وسوف ندبر أمور الكنيسة فى هذه البلاد بمقتضى السلطة المخولة لنا باعتبارنا ملكاً » .

وأدت وفاة أدريان وانصراف كليمنت السابع بجهوده لمقاومة لوثر وشارل الخامس وفرانسيس الأول ، إلى ترك فازا حراً فى المضى قدماً بالإصلاح

الديني السويدى ، فعين أولاوس بترى فى كنيسة سانت نيكولاس فى استكهلم ، وعين لورانتيوس شقيق أولاس أستاذا للاهوت فى جامعة أبسالا ، ورفع مصلحا دينيا ثالثا وهو لورانتيوس أندريا إلى رتبة رئيس شمامسة الكاتدرائية . ودافع أولاوس بترى عن اللوثرية فى مناظرة دارت بينه وبين بيترجال (٢٧ ديسمبر سنة ١٥٢٤) فى مقر الأسقفية بالكاتدرائية ، برئاسة الملك وقضى فازا بفوز أولاوس ، ولم ينزعج عندما اتخذ أولاس زوجة له (١٥٢٥) ، قبل زواج لوثر بأربعة شهور ، ومهما يكن من أمر فإن الأسقف براسك فزع بسبب هذه المخالفة لرهبانية رجال الأكليروس ، وطلب من الملك أن يقضى على بترى بالحرمان . فأجاب جوستافوس بأن أولاوس يجب أن يعاقب إذا كان قد ارتكب خطأ ، ولكن « يخيل إلى أن من العجب أن يعاقب المرء بسبب الزواج (وهو شعيرة لا يحرمها الله) ، ولا يقع المرء تحت طائلة الحرمان بسبب الفسوق وغيره من الآثام[٤] » وبدلا من أن يحكم على بترى بأنه خالف القانون انتدبه هو وشقيقه لترجمة الكتاب المقدس إلى اللغة السويدية . وساعدت النسخة المترجمة إلى اللغة الدارجة ، كما حدث فى كثير من البلاد الأخرى ، على تكوين اللغة القومية وتحرير الدين القومى .

وعد جوستافوس ، مثل معظم الحكام ، أى إجراء يقوم به لتدعيم مركز بلاده أو عرشه مسايراً للأخلاق . وحرص على ترقية الآساقفة الذين يذعنون لخططه إلى مرتبة المطرانيات السويدية ووجد أسباباً لا يستطيع دفعها لنزع ملكية أراضى الأديار ، ولما كان قد تقاسم الأسلاب مع النبلاء فإنه فسر ذلك بأنه إنما كان يعيد إلى العلمانيين ما أغرى أجدادهم على أن يهبوه للكنيسة ، وشكا البابا كليمنت السابع من أن القساوسة السويديين كانوا يتزوجون ، ويقدمون القربان بالخبز والنبيذ ، ويهملون شعيرة المسح الأخير ويغيرون شعيرة القداس وبعث بنداء للملك بأن يظل مخلصاً للكنيسة ولكن جوستافوس كان قد قطع شوطاً بعيداً فلم يستطع أن يتراجع ، وكانت

العقيدة المحافظة حرية بأن تخرب خزائنه . ونادى فى مجلس فستريس (١٥٢٧) بالإصلاح الدينى علنا .

كان اجتماعا تاريخياً فى تكوينه ونتائجه معا . فقد اجتمع أربعة أساقفة وأربعة من كبار القساوسة وخمسة عشر عضوا من الركسراد Riksraad و١٢٩ نبيلا واثنان وثلاثون من أوساط الناس وأربعة عشر نائبا لعمال المناجم و١٠٤ ممثلا للفلاحين ، وكان هذا مجلساً وطنياً يمثل أعرض قاعدة بين المجالس فى القرن السادس عشر . وطرح كبير وزراء الملك اقتراحاً ثورياً أمام المجلس ، فقال إن الدولة قد افتقرت إلى المال إلى حد عجزها عن القيام بتبعاتها لخير الشعب ، وأن الكنيسة كانت غنية جداً إلى الحد الذى يسمح لها بأن تحول جانباً كبيراً من ثروتها إلى الحكومة ، ويبقى لها مع ذلك ما يكفى لأن تقوم بجميع التزاماتها . وحارب الأسقف براسك لآخر لحظة من أجل مثله العليا وأملاكه العقارية ، فأعلن أن البابا قد أمر رجال الأكليروس بالدفاع عن أملاكهم . وصوت المجلس فى صف القائلين بإطاعة البابا . ورأى جوستافوس أن يقامر على كل شىء برمية واحدة ، فأعلن أنه إذا كان هذا حكم المجلس والأمة فإنه سيستقيل ويرحل عن السويد ، وظل المجلس فى نقاش مستمر طوال ثلاثة أيام . ووقف الأوساط ورجال الفلاحين إلى جانب الملك ، وكان لدى النبلاء سبب وجيه للتحرك فى الاتجاه نفسه ، واقتنع المجلس آخر الأمر بأن فازا أعظم قيمة للسويد من أى بابا ، فوافق على رغبات الملك . وتحولت الأديار فى فترة العطلة أو فى ختام مجلس فستريس إلى إقطاعيات للملك ، وإن سمح للرهبان بالإفادة منها ، وتقرر إعادة كل الأملاك التى منحها النبلاء للكنيسة منذ عام ١٤٥٤ إلى ورثة الواهبين ، وأن يسلم الأساقفة قصورهم إلى التاج ، وحرم على الأساقفة أن يسعوا إلى الحصول على تأييد البابا لتعيينهم ، وتقرر أن يسلم رجال الإكليروس إلى الدولة كل دخل ليست شعائرهم الدينية فى حاجة إليه ، ووضع حد للاعتراف السرى ، وتقرر أن تعتمد العظات كلها على الكتاب المقدس وحده . وكان الإصلاح الدينى فى السويد ، بصورة قاطعة أكثر منه فى أى مكان آخر ، تأميما للدين وانتصاراً للدولة على للكنيسة .

وعاش فازا بعد هذه الأزمة ثلاثا وثلاثين عاماً ، وظل حتى النهاية حاكماً مطلقاً . . . قوياً ولكنه يعمل لخير شعبه » وكان مقتنعاً بأن السلطة المركزية وحدها هى التى تستطيع أن تعيد النظام والرخاء إلى السويد ، وأنه فى مهمة معقدة كهذه لا يستطيع أن يتوقف عند كل خطوة ليستشير مجلساً متروياً» وبفضل تشجيعه وتنظيمه صبت مناجم الشمال حديدها فى أدوات الحرب السويدية ، واتسعت رقعة الصناعة ، وأبرمت معاهدات تجارية مع إنجلترا وفرنسا والدنمرك وروسيا أوجدت أسواقاً للسلع السويدية ، وجلبت إلى السويد منتجات من اثنى عشرة بلداً ، وأضفت تهذيباً جديداً وثقة على حضارة كانت قبله معتقلة فى سذاجة ريفية وأمية . وازدهرت السويد وقتذاك كما لم تزدهر من قبل .

واشتبك جوستافوس فى عدة حروب ، وقمع أربع ثورات وعقد قرانه على ثلاث زوجات على التعاقب » وأنجبت له الأولى ولداً أصبح فيما بعد اريك الرابع عشر ، وأنجبت له الثانية خمسة أولاد وخمس بنات أما الثالثة التى كانت فى السادسة عشرة من عمرها عند ما تزوجها وهو فى السادسة والخمسين فقد عمرت بعده ستين عاماً » وأغرى الرجسراد Rigsraad بأن يقبل أبناءه ورثة للعرش وأن يجعل وراثة العرش مقصورة على الذكور كقاعدة تتبع فى الملكية السويدية .

وصفحت السويد عن حكمه المطلق لأنها أدركت أن النظام أصل الحرية وليس ثمرة لها . وعندما مات (٢٩ سبتمبر سنة ١٥٦٠ ؛ بعد حكم دام سبعة وثلاثين عاماً دفن فى كاتدرائية أبسالا فى احتفال صدر عنه بالحب وتميز بالسرف وهو لم يمنح شعبه الحرية الشخصية التى كانوا يستحقونها بصفة خاصة فيما يبدو ، ولكنه منحهم حرية جماعية من السيطرة الأجنبية فى الدين أو الحكم ، وقد هيأ الظروف التى استطاعت أمته فى ظلها أن تصل إلى درجة

النضج فى مجالات الاقتصاد والأدب والفن . كان الأب الحقيقى للسويد الحديثة .

٣ — الإصلاح الدينى الدنمركى

كان كريستيان الثانى ملك الدنمرك (حكم ١٥١٣ — ٢٣) شخصية لامعة مثل جوستافوس فازا الذى هزمه فى السويد . وقد أكرهه البارونات على التوقيع على شروط استسلام مهينة ثمناً لانتخابه ، فأحاط نفسه بمستشارين من الطبقة المتوسطة وتجاهل الريجسراد Rigsraad (مجلس النواب) الدنمركى ، المكون من الأعيان من ذوى النسب ، وعين أم عشيقته الهولندية الجميلة كبيرة لمستشاريه ولا بد أن هذا المجلس الخاص كان يتمتع بشىء من المقدرة والروح ، لأن سياسة كريستيان الوطنية كانت بناءة بقدر ما كانت مغامراته الأجنبية فاشلة لا طائل تحتها ، وعمل جاهداً فى تدبير الملك ، وأصلح حكم المدن ، وراجع القوانين ، وقضى على القرصنة ، ومهد الطرق ، وشرع فى إقامة نظام بريدى عام ، وألغى أسوأ آفات الرق ، وأبطل عقوبة الإعدام على ممارسة السحر ، ونظم الإعانة للمحتاجين ، وفتح المدارس للفقراء ، وجعل التعليم إجبارياً ، وطور جامعة كوبنهاجن ، فأصبحت مكاناً يشع بالضياء وملاذاً للعلم . وتعرض لعداء لوبك بتقييد سلطة الهانز Hanse ، وشجع التجارة الدنمركية وأسبغ عليها حمايته ، ووضع حداً للعادة الهمجية التى خولت للقرويين المقيمين بجوار البحر الحق فى نهب كل السفن التى تتحطم على شواطئهم .

وأرسل ليو العاشر عام ١٥١٧ جيوفانى أركمبولدو إلى الدنمرك ليعرض صكوك غفران ، فندد بول هلجزن ، وهو راهب كرملى بما بدا له بيعاً لصكوك الغفران هذه ، وهو بذلك سبق رسائل لوثر(ه) . واشتجر النزاع بين القاصد الرسولى وبين الملك حول تقسيم هذه المبالغ المتحصلة من البيع . وهرب أركمبولدو إلى لوبك بجانب منها ، وصادر كريستيان الباقى ، وعندما

وجد كريستيان أسباباً وجيهة لاعتناق البروتستانتية دفعاً للمظالم الحقيقية التى ارتكبتها الكنيسة وثروتها القائمة ، عين هلجزن فى منصب بجامعة كوبنهاجن ، حيث تزعم إرازموس الدنمرك الفصيح هذا ، إلى حين ، حركة للإصلاح الدينى . وعندما تحول هلجزن إلى رجل يأخذ بأسباب الحيطة أرسل كريستيان إلى فردريك الحكيم الأمير المختار لسكسونيا ، كى يبعث إليه بلوثر نفسه ، أو يبعث إليه على الأقل بعالم فى اللاهوت من مدرسة لوثر . وجاء كاراشتادت ، ولكنه لم يمكث طويلا . وأصدر كريستيان قانوناً بالإصلاح الدينى : لا يجوز رسامة أحد دون أن يكون قد درس دراسة كافية ليفسر الإنجيل باللغة الدنمركية ، ولا يستطيع رجال الاكليروس قانوناً أن يملكوا عقاراً ، أو يتسلموا تركات ما لم يتزوجوا ، وأمر الأساقفة بأن يتخففوا من الترف الذى يعيشون فيه ، وفقدت المحاكم الكنيسة الاختصاص القضائى ، عندما يتعلق الأمر بنظر قضية خاصة بالملكية ، وخولت محكمة عليا ، عينها الملك ، السلطة النهائية فى الشئون الكنسية والمدنية على السواء : ومهما يكن من أمر فإنه عندما وضع مجلس دايت ورمس لوثر تحت نير الحرمان الإمبراطورى ، أوقف كريستيان إصلاحاته وأشار هلجزن بعقد صلح مع الكنيسة .

وبينما كانت هذه السياسة الوطنية التى انتهجها كريستيان تثير شعبه ، فقد أزمة الموقف بفشله فى الشئون الخارجية . وأدت قسوته فى السويد إلى أن ينقلب عليه كثير من الدنمركيين . وأعلنت لوبك الحرب عليه بسبب هجماته على السفن الهانزية ، وتجاهل النبلاء ورجال الإكليروس ، الذين نفرتهم منه الضرائب المرتفعة والتشريع المعادى ، دعواته لعقد مجلس وطنى ، ونادوا بعمه الدوق فريدريك أف شلسفيج — هولشتين ، ملكاً جديداً للدنمرك ، وفر كريستيان إلى الفلاندرز مع الملكة زوجته ، شقيقة شارل الخامس البروتستانتية ، وعقد صلحاً مع الكنيسة ، مؤملا أن يجد مملكة لقداس :

وقبض عليه وهو يقوم بمحاولة ، لا طائل تحتها ، لاستعادة عرشه ، وعاش سبعة وعشرين عاماً فى سجون سوندربورج ، لا رفيق له إلا قزم نرويجى أحمق . وقادته سبل المجد إلى رمسه ، يجلله الخزى والعار رويداً (١٥٥٩) .

ولم يجد فردريك الأول ما كان ينشده من سعادة فى ظل تاجه المهدد ، فقد رضى به النبلاء ورجال الأكليروس بشروط كثيرة ، أحدها أنه لن يسمح أبداً لهرطيق بالوعظ فى الدنمرك ، وبينما كان هلجزن يواصل نقده لنقائص الكنيسة ، حول وقتذاك معظم مناظراته ، التى تشتعل حماســة ، ضد البروتستانت ، وألح على أن إصلاحاً دينياً ، يتم بالتدريج ، خير من ثورة يسودها الشغب . ولكنه لم يستطع أن يقف فى وجه التيار . فقد كان الدوق كريستيان ، ابن فردريك ، لوثريا قبل ذلك ، وتزوجت ابنة الملك ، بموافقته ، ألبرخت البراندنبرجى الرئيس اللوثرى السابق للفرسان النيوتون . وفى عام ١٥٢٦ مال فردريك مع الريح ، وعين هانزتاوزن قساً خاصاً له ، وكان قد درس على يد لوثر . فترك تاوزن ديره ، وتزوج ودافع علنا عن آراء لوثر . ووجد فردريك أن من المناسب أن يأمر بأن تدفع له لا للبابا ، رسوم التصديق على تعيين الأساقفة . وتشجع الوعاظ اللوثريون وتضاعف عددهم ، وطلب الأساقفة نفيهم ، فرد عليهم فردريك بأنه لا ولاية له على أرواح الناس ، وأنه قرر أن يترك العقيدة حرة — وهو إجراء غير مألوف للغاية . وظهرت عام ١٥٢٤ ترجمة للعهد الجديد باللغة الدنمركية ، ونشر كريستيان بدرسن عام ١٥٢٩ نسخة أفضل من الأولى ، دفعت الحركة البروتستانتية دفعة كبيرة . وكان الناس يتلهفون على وضع حد لضرائب العشور التى تدفع لرجال الأكليروس ، فقبلوا اللاهوت الجديد ، وما أن حل عام ١٥٣٠ حتى كان اللوثريون يسيطرون على كوبنهاجن وفيبوررج . وفى ذلك العام عقدت مناظرة فى المجلس بكوبنهاجن ، بين زعماء الكاثوليك والبروتستانت ، وقضى الملك والشعب بفوز البروتستانت ، وظل الاعتراف

بالعقيدة الذى قدمه هناك هانز تاوزن مدى عقد من الزمان ، المذهب الرسمى للوثريين الدنمركيين .

وكانت وفاة فردريك (١٥٣٣) مقدمة للفصل الأخير من الإصلاح الدينى الدنمركى . فقد انضم كبار التجار فى الدنمرك إلى أعدائهم القدامى فى لوبك ، وقاموا بمحاولة لإعادة كريستيان إلى العرش ، وقاد الكونت كريستوفر اف أولدنبرج قوات لوبك وأطلق اسمه على هذه الحرب فسميت باسم « حرب الكونت » ، وسقطت كوبنهاجن فى يده ، وأخذت لوبك تحلم بحكم الدنمرك بأسرها . بيد أن أوساط الناس والفلاحين نظموا صفوفهم تحت علم كريستيان ابن فردريك ، وتغلب جيشهم على أولدنبرج ، واستولى على كوبنهاجن بعد حصار ضربه حولها دام عاماً (يوليو سنة ١٥٣٦) . وقبض على جميع الأساقفة ، ولم يطلق سراحهم ، إلا بعد أن وعدوا بالبقاء إلى جانب النظام البروتستانتى وانعقد المجلس الوطنى فى أكتوبر سنة ١٥٣٦ ، وأنشأ رسميا كنيسة الدولة اللوثرية ، ورئيسها الأعلى كريستيان الثالث . وصودرت جميع أملاك الأسقفيات والأديار لصالح الملك ، وفقد الأساقفة كل صوت لهم فى الحكم . وقبلت النرويج وأيسلندة كريستيان الثالث وتشريعه ، وكتب النصر التام للوثرية فى اسكنديناوة (١٥٥٤) .

٤ — البروتستانتية فى شرقى أوروبا

نعمت بولندة بعصرها الذهبى فى عهد سجسموند الأول (١٥٠٦ — ٤٨) وابنه سجسموند الثانى (١٥٤٨ — ٧٢) . وكانا رجلين على حظ من الثقافة والذكاء ، وراعيين متذوقين للأدب والفن ، وكلاهما منح للفكر الدينى والعبادة حرية ، وعلى الرغم من أنها لم تكن كاملة ، فإنها جعلت معظم أمم أوروبا تبدو قروسطية إذا قورنت ببولندة . وتزوج سجسموند الأول بونا سفورزا المرحة الموهوبة (١٥١٨) ، وهى ابنة الدوق جياجاليازو أمير

ميلان ، وأحضرت معها إلى كراكو بطانة من رجال الحاشية والعلماء ، وبدلا من أن يتبرم بهم الملك ، رحب بهم باعتبارهم جسراً يصل بينه وبين النهضة ، وتملكت الأرستقراطية نزعة إلى الترف بارتداء الثياب المنمقة واقتناء الرياش الثمينة ، وأصبحت اللغة أكثر صقلا ، والأخلاق أكثر تهذيباً ، وازدهرت الآداب والفنون ، وكتب إرازموس (عام ١٥٢٣) : « إنى أهنىء هذه الأمة . . . التى بلغت فيها العلوم وفقه القانون والأخلاق والدين وكل ما يفصلنا عن الهمجية درجة من الازدهار تستطيع بها أن تنافس أرفع الأمم شأناً وأعظمها مجدا(٦) » . وسيطرت بونا على زوجها بجمالها ورشاقتها ودهائها ، فأصبحت ملكة فعلا ، وملكة فى الزى على السواء . وكان ابنها سجسموند الثانى عالما بالإنسانيات ولغويا وخطيبا وميالا إلى التزيى بزى النساء(٧) . وأضرت الحروب هذه العهود اللامعة لأن بولندة كانت مشتبكة مع السويد والدنمرك وروسيا فى نزاع على السيطرة على بحر البلطيق وموانيه ، وفقدت بولندة بروسيا ، بيد أنها ضمت مازوفيا وتشمل وارسو (١٥٢٩) وليفونيا وتضم ريجا (١٥٦١) . وكانت بولندة فى هذا العصر دولة أوروبية كبرى .

وفى غضون ذلك تسلل الإصلاح الدينى من ألمانيا وسويسرة . وقد عودت حرية العبادة ، التى ضمنها التاج البولندى لرعاياه من الروم الكاثوليك ، الأمة على التسامح الدينى ، وجعلت ثورة الهسيين والأتراكويين فى بوهيميا المجاورة . والتى دامت قرناً من الزمان ، بولندة لا تعبأ إلى حد ما بالسلطة البابوية البعيدة . وكان الأساقفة ، الذين يعينهم الملوك ، رجالا مثقفين محبين لوطنهم ، من أنصار الإصلاح الكنسى ، مع الاعتصـــام بحيطة إرازمية ، ويؤيدون الحركة الإنسانية تأييداً عظيما ، ومهما يكن من أمر فإن هذا لم يخفف من شدة الحسد الذى تطلع به النبلاء ، وسكان المدن ، إلى أملاكهم ومواردهم . وازدادت الشكاوى من استنزاف الثورة

القومية إلى روما ، ومن صكوك الغفران التى تكلف مشتريها غالياً بصورة غير معقولة ، ومن اتجار رجال الدين بالمقدسات والرتب والوظائف الدينية ، ومن ارتفاع نفقات التقاضى أمام المحاكم الأسقفية . واستياء صغار النبلاء الزلاخته Szlachka بصفة خاصة من إعفاء رجال الأكليروس من الضرائب ومن جباية رجال الأكليروس لضرائب العشور من النبلاء أنفسهم . ولعل بعض البارونات من ذوى النفوذ قد استمعوا فى تعاطف إلى نقد لوثر للكنيسة ، لأسباب اقتصادية ، وكان لما يتمتع به اللوردات الإقطاعيون من شبه سيادة الفضل فى إسباغ الحماية على الحركات البروتستانتية المحلية ، كما كان لاستقلال الأمراء الألمان الفضل فى إمكان نشوب الثورة وحماية لوثر . ودافع راهب دانزج على رسائل لوثر ودعا إلى القيام بإصلاحات كنسية ، وتزوج وارثة (١٥١٨) ؛ وانتهج واعظ آخر نهج لوثر فعلا إلى حد أن عدة جماعات للمصلين أزالت كل الصور الدينية من كنائسها (١٥٢٢) وأحل مجلس المدينة الرهبان والراهبات من أقسامهم وأغلق الأديار (١٥٢٢) ، وما أن حل عام ١٥٤٠ حتى كانت كل منابر الوعظ فى دانزج فى أيدى البروتستانت . وعندما قدم بعض رجال الإكليروس فى براونزبرج البولندية البروسية الشعيرة اللوثرية وشكا كبراء القساوسة فى الكاتدرائية إلى أسقفهم ، رد بأن « لوثر بنى آراءه على الكتاب المقدس وكل من يشعر بأن فى مقدوره أن يدحضها فليضطلع بالعبء (١٥١٠)[٨] . وأقنع سجسموند الأول بفرض رقابة على المطبوعات ، ومنع دخول كتابات لوثر ، غير أن كاتم سره وكاهن الاعتراف الفرنسسكانى الخاص بيونا اعتنقا العقيدة المحرمة سراً وكسبتهما إلى صفها ، وأهدى كالفن عام ١٥٣٩ كتابه « تعليق على القداس » لولى العهد .

وعندما أصبح الأمير ملكاً باسم سجسموند الثانى انتشرت اللوثرية والكالفينية على السواء بسرعة . وترجم الكتاب المقدس إلى اللغة البولندية ، وبدأت اللغة الدارجة تحل محل اللغة اللاتينية فى الشعائر الدينية . وأعلن

القساوسة المبرزون مثل جان لاسكى تحولهم إلى البروتستانتية ؛ وفى عام ١٥٤٨ انتقل الإخوة البوهيميون من بلادهم إلى بولندة ، وسرعان ما كانت هناك ثلاثون جمعية سرية من طائفتهم فى البلاد . وقام رجال الأكليروس الكاثوليك بمحاولة لاتهام بعض أفراد صغار النبلاء Szlachta بالهرطقة ومصادرة أملاكهم ، فأدت إلى قيام كثير من صغار النبلاء بالثورة ضد الكنيسة (١٥٥٢) وصوت المجلس النيابى الوطنى لعام ١٥٥٥ ، وأقر الحرية الدينية لكل العقائد التى تعتمد على « كلمة الله الخالصة » ، وأسبغ صفة الشرعية على زواج رجال الأكليروس ، ومناولة القربان المقدس بالخبز والنبيذ ، وكان الإصلاح الدينى فى بولندة فى أوج ازدهاره .

وتعقد الموقف فى بولندة بتطور أقوى حركة للقائلين بوحدة الكنيسة ، إبان القرن السادس عشر فى أوروبا ؛ وفى أوائل عام ١٥٤٦ نوقشت محاولات سرفيتوس المنكرة للقول بالتثليث ، وذلك فى هذا الشرق الأقصى من العالم المسيحى اللاتينى ، وزار لايليوس سوكينوس بولنـــدة عام ١٥٥١ وترك خمائر من الأفكار المتطرفة ، وواصل جيورجيو بلاندرانا الحملة ، وفى عام ١٥٦١ أصدرت الجماعة الجديدة اعترافاً بالعقيدة . وواصل أعضاؤها الخلط الذى اتسم به لاهوت سرفيتوس ، فقصروا الألوهية الكاملة على الرب الأب ، ولكنهم جاهروا بالإيمان بالمولد الخارق للمسيح ووحيه الإلهى ومعجزاته وبعثه وصعوده . ورفضوا التسليم بفكرتى الخطيئة الأولى وتفكير المسيح عن خطايا البشر ، وسلموا بالتعميد والقربان المقدس كرمزين فحسب ، ولقنوا الناس أن الخلاص يتوقف فوق كل شىء على العمل الواعى بتعاليم المسيح ؛ وعندما أدان المجمع المقدس الكالفينى فى كراكو (١٥٦٣) هــذه العقائد ، أنشأ القائلون بوحدة الكنيسة لهم كنيسة منفصلة . ولم تبلغ الطائفة أوج ازدهارها إلا على يد فاوستوس

سوكينوس ابن أخي لايليوس ، الذي وصل إلى بولندة عام ١٥٧٩ .

وحاربت الكنيسة الكاثوليكية هذه التطورات بالاضطهاد والكتابات والدبلوماسية ، وفي عام ١٥٣٩ أرسل أسقف كراكو إلى المحرقة امرأة في الثمانين من عمرها بتهمة أنها رفضت عبادة القربان المقدس(٩) . وتصدى ستانسلاوس هوزيوس ، أسقف كولم في بروسيا ، والكاردينال فيما بعد ، لتعبئة الهجوم المضاد بمقدرة وحماسة ، وعمل جاهداً من أجل الإصلاح الكنسي ، ولكنه لم يكن متعاطفاً مع اللاهوت البروتستانتي أو الشعيرة البروتستانتية وبناء على اقتراحه أرسل لودوفيكوليبومانو أسقف فيرونا إلى بولندة مندوباً بابوياً ، وعين جيوفاني كومندوني ، أسقف زانتي قاصداً رسولياً في كراكو ، وكسبوا تأييد سجسموند الثاني الفعال للكنيسة بتأكيد الانقسامات بين البروتستانت وتضخيم صعوبة تنظيم الحياة المعنوية للأمة بمثل هذه العقائد الضارة المذبذبة ، وفي عام ١٥٦٤ جاء هوزيوس وكمندوني باليسوعيين إلى بولندة . وضمن هؤلاء الرجال المدربون المخلصون مناصب استراتيجية في النظام التعليمي ، واستمالوا آذان الشخصيات البارزة ، وأعادوا الشعب البولندي إلى اعتناق العقيدة التقليدية .

وكان البوهيميون من البروتستانت قبل لوثر ، ولم يجدوا في أفكاره ما يفزعهم إلا قليلا ، وقبل جانب كبير من الألمان على الحدود الإصلاح الديني ، وكان الإخوة البوهيميون ويبلغ عددهم حوالي عشرة في المائة من مجموع السكان البالغ ٤٠٠,٠٠٠ نسمة ، أشد تمسكاً بالبروتستانتية من لوثر ، وكان ٦٠ في المائة أتراكويين كاثوليك تناولوا القربان المقـدس بالنبيذ وبالخبز على السواء ، وتجاهلوا احتجاجات البابوات(١٠) . وما أن حل عام ١٥٦٠ حتى كان ثلثا سكان بوهيميا من البروتستانت ، ولكن فرديناند أدخل اليسوعيين عام ١٥٦١ ، وتحول التيار إلى العقيدة الكاثوليكية المحافظة .

وعرفت هنغاريا الإصلاح الدينى عن طريق المهاجرين الألمان وهم يحملون أنباء لوثر ، ذلك الرجل الذى استطاع أن يتحدى الكنيسة والإمبراطورية وعاش مع ذلك . وتطلع الفلاحون الهنغاريون الذين ظلمهم الإقطاع الذى تساعده الكنيسة ، بشىء من التحيز لبروتستانتية يمكن أن تضع حداً لضرائب العشور والمكوس التى تجبيها الكنيسة ، وتطلع البارونات الإقطاعيون بعيون جشعة إلى أملاك الكنيسة الشاسعة ، التى كانت منتجاتها تنافس منتجات أراضيهم ، ورأى عمال المدن ، الذين أصيبوا بعدوى مبادئ المدينة الفاضلة ، أن الكنيسة هى العقبة الكبرى التى تقف فى طريق أحلامهم ، وانهمكوا فى نشوات تحطيم التماثيل ، وتعاونت الكنيسة فى إقناع الحكومة باعتبار اعتناق البروتستانتية جريمة يستحق مرتكبها الإعدام . وسعى الملك فرديناند فى غربى هنغاريا جاهداً للحصول على مصالحة ، وأراد أن يسمح لرجال الإكليروس بالزواج وبتقديم القربان المقدس بصورتيه المعروفتين ، وانتشرت البروتستانتية بلا قيود فى شرقى هنغاريا فى ظل حكم تركى ينظر باحتقار وبلا مبالاة إلى الاختلاف بين المذاهب المسيحية ، وما إن حل عام ١٥٥٠ حتى بدا أن هنغاريا بأسرها سوف تصبح بروتستانتية ، ولكن الكالفينية بدأت وقتذاك تتنافس اللوثرية فى هنغاريا ، وأيد المجريون ، وهم بفطرتهم مناهضون للألمان ، النمط السويسرى من الإصلاح الدينى ، وما إن جاء عام ١٥٥٨ حتى كان الكالفينيون من الكثرة إلى حد أنهم استطاعوا عقد مجمع مقدس فى زنجر ، كان له أثره الكبير . وشطرت مراكز القوى المتنافسة للإصلاح الدينى الحركة إلى شطرين ، وعاد كثير من الموظفين أو من تحولوا من عقيدتهم ، ممن ينشدون الاستقرار الاجتماعى أو الهدوء الفكرى إلى الكاثوليكية ، وفى القرن السابع عشر استعاد اليسوعيون بزعامة ابن أحد الكالفينيين ، هنغاريا إلى حظيرة الكاثوليكية .

٥ ـ شارل الخامس والأراضي المنخفضة

كانت تجارة نافقة فى بلاد الفلاندرز إبان نضج شارل أفضل من الانصراف إلى صناعة ضعيفة مشتتة » وساد الكساد فى بروجس وغنت ، وعاشت بروكسل باعتبارها قصبة فلمنكية ، وكانت لوفان تشكل اللاهوت وتصنع الجعة وأنتورب تتحول ـ وسوف تكون عند حلول عام ١٥٥٠ ـ أغنى مدينة فى أوروبا وأكثرها حركة وعملا » وحولت التجارة الدولية والمال ذلك الميناء الهزيل على نهر شلدت العريض الصالح للملاحة بفضل انخفاض المكوس الجمركية على الواردات والصادرات والارتباط السياسى مع إسبانيا وبورصة متخصصة ، وشعارها يقول إنها أنشئت **ad usum mercatorum cuiusque gentis ac linguae** « ليفيد منها التجار القادمون من كل البلاد والمتحدثون بجميع الألسنة[١١] » » وكان القيام بمشروع أى عمل حراً من قيود الطائفة الحرفية والحماية البلدية ، التى أبقت الصناعة القروسطية غير متقدمة لحسن الحظ » وفتح المصرفيون الإيطاليون هناك وكالات وأقام « التجار المغامرون » الإنجليز مستودعا وركز آل فوجر وجوه نشاطهم التجارى ، وبنى الهانز مؤسستهم العظيمة بيت الشرقيين (١٥٦٤) . وشهد الميناء ٥٠٠ سفينة تدخل إليها أو تغادرها كل يوم و ٥٫٠٠٠ تاجر يشتغلون بتبادل السلع » وكانت حوالة مالية مسحوبة على أنتورب وقتذاك أشيع شكل للعملة الدولية . وفى هذه الفترة حلت أنتورب بالتدريج محل لشبونة ، وأصبحت أكبر ميناء أوروبى لتجارة التوابل ، وكان للوكلاء الفلمنكيون يشترون حمولات السفن الداخلة إلى لشبونة قبل أن تفرغ ثم ترسل مباشرة إلى أنتورب لتوزيعها فى شمالى أوروبا » وكتب سفير للبندقية يقول : « لقد حزنت لرؤية أنتورب لأنى شهدت مدينة تبز البندقية[١٢] » ، وكان يشهد التحول التاريخى للزعامة التجارية من البحر الأبيض المتوسط إلى شمال الأطلنطى » وحفزت هذه التجارة الصناعة الفلمنكية فانتعشت حتى فى غنت ،

وأمدت الأراضى المنخفضة شـارل الخامس بمبلغ ١٫٥٠٠٫٠٠٠ جنيه (٣٧٫٥٠٠٫٠٠٠ دولار ؟) سنويا ، وهو يعادل نصف دخله الكلى[١٣] .

واستجاب بمنح الفلاندرز وهولندة حكما صالحا معتدلا ، اللهم إلا فى مجال الحرية الدينية — وهى هبة لم يكد يدركها أصدقاؤه أو أعداؤه . وكانت سلطته من الناحية الدستورية مقيدة بتعهده الذى أقسم على تنفيذه بمراعاة مواثيق المدن والمقاطعات وقوانينها المحلية ، وبالحقوق الشخصية والعائلية ، التى حافظ عليها سكان المدن بشجاعة ، وبمجالس الدو[illegible] ، ومحكمة للاستئناف أنشئت لتكون جزءا من الإدارة المركزية . وكان شارل بوجه عام يحكم الأراضى المنخفضة حكما غير مباشر عن طريق نواب يقبلهم المواطنون : أولا عمته ، وحاضنته ومربيته مرجريت النمساوية ، ثم شقيقته مارى ، ملكة هنغاريا السابقة ، وهما امرأتان تتمتعان بكفاءة وإنسانية ومهارة . ولكن شارل أصبح أشد استبدادا باتساع رقعة الإمبراطورية وأقام حرسا إسبانيا فى المدن المتكبرة ، وقمع بقسوة أى مخالفة خطيرة لسياسته لدولية ، فعند ما رفضت غنت أن تصوت على قرار بالاعتمادات العسكرية التى طلبها ومنحتها له المدن الأخرى ، أخمد شارل الثورة باستعراض قوة لا جدال فيها ، واقتضى إعانة مالية وتعويضا ، وألغى الحريات التقليدية التى كانت تتمع بها البلدية ، واستُبدِل بالحكومة المختارة محليا موظفون معينون من قبل الإمبراطور (١٥٤٠)[١٤] . ولكن لم يكن هذا المتبع فى الأغلب . وعلى الرغم من هذه القسوة العارضة فقد ظل شارل يحظى بشعبية بين رعاياه فى الأراضى المنخفضة ونال الثقة لما حققه من استقرار سياسى ونظام اجتماعى ، وطدا دعائم الرخاء الاقتصادى ، وعندما أعلن تنازله عن العرش حزن كل المواطنين تقريبا[١٥] .

وسلم شارل بالنظرية المتداولة القائلة بأن السلام القومى والقوى يتطلبان حدة المعتقد الدينى ، وخشى أن تؤدى البروتستانتية فى الأراضى المنخفضة

إلى تعريض جناحه للخطر فى نزاعه مع فرنسا وألمانيا اللوثرية، فأيد الكنيسة تأييداً كاملا فى قمع الهرطقة فى الفلاندرز وهولندة ؛ وكانت حركة الإصلاح الدينى هناك معتدلة قبل لوثر، ودخلت بعد عام ١٥١٧، مثل ما دخلت اللوثرية ومذهب المنكرين للتعميد من ألمانيا، والزوينجيلية والكالفينية من سويسرة والألزاس وفرنسا : وسرعان ما ترجمت رسائل لوثر إلى الهولندية وشرحها وعاظ فى أنتورب وغنت ودور درخت واترخت وتسفولى ولاهاى. وتزعم الأخوة الرهبان الدومينيكان حركة معارضة نشيطة دحضوا فيها آراء خصومهم، وقال أحدهم إنه يود لو استطاع أن ينشب أسنانه فى زور لوثر، وإنه لن يتردد فى أن يذهب لتناول العشاء الربانى والدم يلطخ فمه[16] : ورأى الإمبراطور، وهو لا يزال شاباً، أن يخمد الهياج بنشر « إعلان ملصوق » بناء على طلب البابا، يحرم طباعة مصنفات لوثر أو قراءتها ؛ وفى العام نفسه أمر المحاكم العلمانية بتنفيذ منشور ورمس فى سائر أرجاء الأراضى المنخفضة ضد كل من يعرض آراء لوثر. وفى اليوم الأول من يوليو عام ١٥٢٣ أرسل هنرى فوس وجوهان إيلك، وهما راهبان أوغسطيليان إلى المحرقة فى بروكسل، فكانا أول شهيدين من البروتستانت فى الأراضى المنخفضة : وسجن هنرى الزتفينى، وهو صديق وتلميذ للوثر، ورئيس الدير الأوغسطينى فى أنتورب، وفر، وقبض عليه فى هولستاين وأحرق هناك (١٥٢٤) وكان تنفيذ هذه الأحكام بالإعدام بمثابة إعلان لآراء المصلحين الدينيين.

وعلى الرغم من الرقابة فإن ترجمة لوثر للعهد الجديد انتشرت على نطاق واسع، وتداولها الناس فى هولندا بحماسة أكثر من الفلاندرز الغنية : وكانت هناك أمنية لإعادة المسيحية إلى بساطتها الأولى، فنشأ عنها أمل، بعد مرور ألف عام، فى عودة المسـيح مبكراً، وإنشاء أورشليم جديدة لا تكون فيها حكومة، ولا زواج ولا ملكية، وامتزجت بهذه الأفكار نظريات

سيوعية عن المساواة وتبادل العون بل «والحب الحر[١٧]» ، ولكونت جماعات تنكر التعميد فى أنتورب وماسترخت وأمستردام . وجاء ملشيور هوفمان من إمدن إلى أمستردام عام (١٥٣١) وأعاد جون الليدنى عام ١٥٣٤ الزيارة يحمل معه عقيدة المنكرين للتعميد من هارلم إلى منستر . وقدر أن ثلثى السكان فى بعض المدن الهولندية كانوا من المنكرين للتعميد ، بل إن العمدة فى ديفنتر تحول لنصرة القضية . وشحذت المجاعة الحركة ، فأصبحت ثورة اجتماعية » وكتب صديق لإرازموس عام ١٥٣٤ يقول « إن اشتعال حماسة المنكرين للتعميد فى هذه المقاطعات يجعلنا نشعر بقلق بالغ لأنه يتصاعد مثل ألسنة اللهب ولا تكاد توجد بقعة أو مدينة لا تتأجج فيها سراً شعلة التمرد[١٨] » . وحذرت مارى المنغارية الإمبراطور ؛ وكانت وقتذاك نائبة له ، من أن الثوار قد وضعوا خطة لانتهاب كل ضروب الملكية من النبلاء ورجال الاكليروس والأرستقراطية التجارية ، وتوزيع الغنائم على كل رجل حسب حاجته[١٩] » وفى عام ١٥٣٥ أرسل جون الليدينى مبعوثين لتدبير ثورة فى نفس الوقت يقوم بها المنكرون للتعميد فى عدة محلات هولندية ، وبذل الثوار جهود الأبطال ، فقد استولت جماعة على دير فى فريزلاند الغربية ، وحصنته ، وحاصرهم الحاكم بالمدفعية الثقيلة ، ومات ٨٠٠ وهم يدافعون دفاعاً لا أمل فيه ، (١٥٣٥) وفى ١١ مايو اقتحم بعض المنكرين للتعميد المسلحين قاعة المدينة فى أمستردام واستولوا عليها ، فطردهم سكان المدينة ، ونكلوا بالزعماء ، وانتقموا منهم انتقاماً مُفْزِعاً من رجال مُفَزَّعِين ، فاستلت الألسنة ، ومزقت القلوب من أجساد الأحياء ، وألقى بها فى وجوه المحتضرين أو الموتى[٢٠] .

وظن شارل أن ثورة شيوعية تتحدى البناء الاجتماعى بأكمله ، فاستقدم محكمة التفتيش إلى الأراضى المنخفضة ، وخول موظفيها سلطة سحق الحركة وكل الهرطقات الأخرى ، مهما قضى ذلك على الحريات المحلية . وأخذ

بين عامى ١٥٢١ و ١٥٥٥ يصدر الإعلان الملصق بعد الإعلان لصد الانقسام بين الطبقات الاجتماعية أو الانشقاق الدينى . وقد كشف أعنف هـذه الإعلانات (٢٥ سبتمبر سنة ١٥٥٠) عن تدهور الإمبراطور ، ووضعت الأسس التى قامت عليها ثورة الأراضى المنخفضة ضد ابنه :

لا يحق لأحد أن يطبع أو يكتب أو ينسخ أو يخفى أو يبيع أو يشترى أو يعطى فى الكنائس أو فى الشوارع أو غير ذلك من الأماكن أى كتاب أو رسالة من تأليف مارتن لوثر ، أوجون أو يكولا مباديوس ، أو أولريخ زوينجلى ، أو مارتن بوسر ، أو جون كالفن ، أو غيرهم من الهراطقة ، الذين استهجنت أعمالهم الكنيسة المقدسة . . . ولا يحق له أن يحطم أو يؤذى بأى صورة أخرى تماثيل العذراء المقدسة ، أو القديسين الذين اعترفت بهم الكنيسة . . . وليس له أن يعقد اجتماعات سرية أو اجتماعات غير قانونية ، أو يحضر أى اجتماع من هذه الاجتماعات ، التى يدعو فيها أنصار الهراطقة المذكورين ويعمدون ويدبرون مؤامرات ضد الكنيسة المقدسة والصالح العام . . . . ونحن نمنع جميع الأشخاص العلمانيين من أن يتحدثوا أو يجادلوا فى أمر يتعلق بالكتب المقدسة جهراً أو سراً . . . أو أن يقرأوا أو يعلموا أو يفسروا الكتب المقدسة ، ما لم يكونوا قد درسوا اللاهوت فى حينه ، أو اعترفت بهم إحدى الجامعات المشهورة ، أو يرحبوا بأى رأى من آراء الهراطقة المذكورين . . . وإلا تعرضوا للعقوبات المنصوص عليها فيما يلى . . . الرجال (تقطع رؤوسهم) بالسيف والنساء يدفن أحياء إذا لم يصررن على أخطائهن ، وإذا أصررن عليها فإنهن يعدمن حرقاً ، وفى كلتا الحالتين تصادر أملاكهن كلها لمصلحة التاج .

وتمنع كل الأشخاص أن يُنْزِلوا عندهم أو يستضيفوا أو يزودوا بالطعام أو الدفء أو الملابس أو يؤيدوا بأية طريقة أخرى أى امرئ يُعتقد أنه هرطيق ، أو يشتبه فى أن له سمعة سيئة كهرطيق ، وكل من يتخلف

عن التنديد بأى واحد من هؤلاء الذين نأمر بإدانتهم يكون عرضة للعقوبات المذكورة آنفاً ... وكل من يعرف شخصاً موصوماً بالهرطقة يجب أن يبلغ عنه ويسلمه ... ويكون للمبلغ ، فى حالة الإدانة ، الحق فى نصف أملاك المتهم ... ولكى لا يكون لدى القضاء والموظفين أى ذريعة — بحجة أن العقوبات جسيمة جداً وشديدة ، ولم ينص عليها إلا لإثارة الفزع فى قلوب المجرمين — ليوقعوا عليهم عقوبة أقل مما يستحقون (نأمر) بأن يعاقب المجرمون حقاً بالعقوبات التى أعلنا عنها سابقاً ، ونحظر على جميع القضاة أن يغيروا أو يخففوا العقوبات بأية طريقة ، ونحظر على أى أحد ، فى أى ظرف أن يطالب منا ، أو من أى أحد له سلطة ، أن يمنح عفواً عن ، أو أن يقدم التماس فى صالح ، هؤلاء المراطقة أو المنفيين أو الهاربين ، وإلا تعرض للحكم عليه إلى الأبد بعدم الأهلية لتولى الوظائف المدنية أو العسكرية ، ولأن يعاقب بعقوبة يقضى بها عليه بطريقة تحكمية(٢١) .

وعلاوة على هذا كان يطلب من أى شخص يدخل البلاد المنخفضة أن أن يوقع على تعهد بالولاء للعقيدة المحافظة بحذافيرها(٢٢) .

وتحولت الأراضى المنخفضة عن طريق هذه المنشورات اليائسة ، إلى ساحة قتال بين الشكلين القديم والجديد من المسيحية . وقدر سفير البندقية فى بلاط شارل أن ٣٠٫٠٠٠ شخص ، وهم كل المنكرين للتعميد تقريباً ، هلكوا عام ١٥٤٦ فى هذه المذبحة الإمبراطورية الطويلة(٢٣) ، التى قتل فيها الآمنون من المواطنين ، وخفض تقدير آخر أقل إثارة عدد الضحايا إلى ١٠٠٠٠ شخص(٢٤) ، وبقدر ما كان الهولنديون المنكرون للتعميد مهتمين ، بقدر ما نجحت محكمة التفتيش الكارولينية ، وظل بقية منهم على قيد الحياة فى هولندا بإبداء عدم المقاومة ، وهرب بعضهم إلى إنجلترا ، حيث أصبحوا من أنصار البروتستانتية النشطين فى عهد إدوارد السادس

والبزابث ، وانهارت الحركة الشيوعية فى الأراضى المنخفضة بعد أن روعها الاضطهاد وخنقها الرخاء .

ولكن عندما انحصرت موجة المنكرين للتعميد تدفق نهر من الهوجينوت المطاردين إلى الأراضى المنخفضة من فرنسا ، وجاءو معهم بإنجيل كالفن ، وراقت الحماسة الصارمة القائلة بالحكم الدينى للهرطقة الجديدة ، لمن ورثوا تقاليد المتصوفة وإخوان الحيـــاة المشتركة ، وكان قبول كالفن للعمل باعتباره كرامة بدلا من أن يعد لعنة ، وللثورة باعتبارها بركة بدلا من أن تعد جريمة ، وللنظم الجمهورية باعتبارها أكثر موافقة من الملكية للمطامح السياسية لطبقة رجال الأعمال ، يحتوى على أجزاء تلقى ترحيباً متفاوتاً من كثير من العناصر بين السكان . وما إن حل عام ١٥٥٥ حتى كانت هناك جماعات كالفيلية للمصـــلين فى إيبرس وتورناى وفالنسينس وبروجس وغنت وانتورت ، وكانت الحركة تنتشر فى هولندة ويرجع الفضل إلى الكالفينية لا إلى اللوثرية ، أو مذهب المنكرين للتعميد ، فى أن ابن شارل سوف يحصر خلال جيل مرير ، فى صراع قدر له أن يشطر الأراضى المنخفضة إلى قسمين ، ويحرر هولندة من السيطرة الإسبانية ، ويجعلها موطناً وملجأ من أعظم المواطن والملاجئ للفكر الحديث .

وفى عام ١٥٥٥ طرح شارل الخامس كل أحلامه ما عدا حلمه بأن يموت فى طهارة ، وتخلى عن أمله فى قمع البروتستانتية فى ألمانيا والأراضى المنخفضة أو مهادنة الكاثوليكية فى مجلس ترنت ، وتخلى عن طموحه فى زعامة البروتستانت والكاثوليك والألمان والفرنسيين ، فى زحف رائع يقوم به ضد سليمان والقسطنطينية والتهديد التركى للعالم المسيحى . وقد أدى إفراطه فى الطعام والشراب والعلاقات الجنسية وحملاته المنهكة وأعباء منصب واجه صدمة تغيير ثورى إلى تحطيم جسده وتبلد سياسته وتحطيم

إرادته . وكان يشكو من قروح ، وهو فى الثالثة والثلاثين ، واكتهل فى الخامسة والثلاثين وأصيب وهو فى الخامسة والأربعين بالنقرس والربو وسوء الهضم والتأتأة ، وكان وقتذاك يقضى نصف وقت يقظته فى ألم ، ووجد أنه من الصعب عليه أن ينام ، وكثيراً ما كانت الصعوبة التى يجدها فى التنفس تجعله يجلس منتصباً طوال الليل ، وكانت أصابعه مشوهة بداء المفاصل ، إلى درجة أنه لم يكد يستطيع أن يقبض على القلم ، الذى وقع به على صلح كريبى . وعندما قدم كوليني رسالة من هنرى الثانى ، لم يستطع شارل أن يفتحها إلا بصعوبة وقال متسائلا : « ما رأيك فىّ يا سيدى أمير البحر ؟ ألست فارساً رائعاً يستطيع أن يهاجم ويحطم حربة ، أنا الذى لا أستطيع أن أفتح خطاباً إلا بعد مشقة كبيرة ؟[٣٥] » ولعل قسوته العارضة وشيئاً من الوحشية التى هاجم بها البروتستانتية فى الأراضى المنخفضة ، ترجع إلى نفاد صبره بسبب آلامه . وأمر بقطع أقدام الأسرى من الجنود الألمان المرتزقة ، الذين حاربوا فى صفوف فرنسا ، على الرغم من أن ابنه الذى قدر له أن يكون فيليب الثانى الصلب الرأى ، طلب لهم الرحمة[٣٦] ، وقد حزن حزناً مريراً دام طويلا لوفاة زوجته الحبيبة إيزابلا (١٥٣٩) ، ولكنه سمح فى حينه بحضور عذارى لا حول لهن ولا طول إلى مخدعه[٣٧] .

ودعا فى خريف عام ١٥٥٥ إلى عقد اجتماع لمجلس الطبقات فى الأراضى المنخفضة ، يوم ٢٥ اكتوبر ، واستدعى إليه فيليب من إنجلترا . وفى قاعة دوقات برابانت الواسعة المغطاة بالسجاجيد فى بروكسل حيث اعتاد فرسان الجزة الذهبية أن يعقدوا اجتماعاتهم ، اجتمع النواب والنبلاء والحكام من سبع عشرة مقاطعة فى نطاق حرس من الجند المدججين بالسلاح . ودخل شارل يستند على كتف وليام أف أورانج ، الذى قدر له أن يكون عدواً لابنه فى المستقبل . وتبعه فيليب مع نائبة الإمبراطور مارى الهنغارية ، ثم أمانويل فيليبرت أف سافوى ، ومستشارو الإمبراطور ، وفرسان الجزة

الذهبية ، وكثير من الأعيان الآخرين الذين أقبلت عليهم الدنيا يوماً قبل أن تنساهم . وعندما جلس الجميع نهض فيليبرت وشرح فى إسهاب ووضوح اغتبط لهما شارل ، الأسباب الصحية والعقلية والسياسية التى حدت بالإمبراطور إلى إبداء رغبته فى أن يتنازل عن حكم الأراضى المنخفضة لابنه ؛ ثم وقف شارل نفسه وهو يتكئ من جديد على أمير أورانج الوسيم فارع القامة ، وتحدث ببساطة ، وفى صميم الموضوع ، ولخص كيف ارتقى إلى أن بلغ آفاقاً متسعة من السلطان على التعاقب وتحدث عن ذوبان حياته فى الحكم . وتذكر أنه زار ألمانيا تسع مرات وإسبانيا ستا وفرنسا أربعاً وانجلترا وأفريقية مرتين ، وقام بإحدى عشرة رحلة بالبحر واستأنف كلامه قائلا :

هذه هى المرة الرابعة التى أفكر فيها فى الذهاب لإسبانيا من الآن ... ولم يسبق أن جربت شيئاً سبب لى مثل هذا الألم العظيم .... الذى أشعر به وأنا أفترق عنكم من اليوم دون أن أترك خلفى ذلك السلام والهدوء اللذين طالما رغبت فى تحقيقهما ... ولكنى لم أعد قادراً على مباشرة شئونى دون أن أشعر بتعب شديد يسرى فى بدنى ، وبالتالى ألحق بالدولة الضرر ... وإن ما يتطلبه تحمل المسئولية من اهتمام عظيم ، وما تسببه خور بالغ للعزيمة ، وصحتى التى تدهورت من قبل ، كل هذه لم تعد تترك لى القوة اللازمة للحكم .. وينبغى لى فى حالتى هذه أن أقدم لله والإنسان حساباً خطيراً إذا لم أطر السلطة عن كاهلى ... وأن ابنى ، الملك فيليب قد وصل إلى سن تكفى لأن يكون قادراً على حكمكم ، وهو ، كما أرجو ، أمير صالح لكل رعاياى المحبوبين(٢٨) .

وعندما تهالك شارل متألماً فى مقعده نسى الحاضرون خطاياه واضطهاده وهزائمه ، رثاء لرجل عمل جاهداً مدى أربعين عاما ، حسب ما أملته عليه آراؤه وسمحت به قدرته ، تحت وطأة أثقل الالتزامات فى عصره . وبكى كثير من السامعين . ونصب فيليب رسمياً حاكماً للأراضى المنخفضة ، وحلف

يميناً مغلظة (كما سوف يذكر بها فيما بعد) أن يراعى كل القوانين والحقوق التقليدية للمقاطعات . وفى أوائل عام ١٥٥٦ سلم له شارل تاج إسبانيا ، بكل ممتلكاته فى العالم القديم والعالم الجديد، واحتفظ شارل باللقب الإمبراطورى، وكان يأمل أن ينقله لابنه قريباً ، ولكن فرديناند احتج ، وفى عام ١٥٥٨ تنازل الإمبراطور عن لقبه لأخيه . وسافر شارل بحراً فى السابع عشر من سبتمبر سنة ١٥٥٦ من فلشنج إلى إسبانيا .

٦ - إسبانيا

١ — ثورة العامة : ١٥٢٠ — ٢٢

كانت نعمة مشكوكاً فيها لإسبانيا أن يصبح الملك شارل الأول (١٥١٦ — ٥٦) الإمبراطور شارل الخامس (١٥١٩ — ٥٨) ، وولد وتربى فى الفلاندوز : وتعلم مناهج الحياة الفلمنكية ، واكتسب الأذواق الفلمنكية ، إلى أن تغلبت عليه روح إسبانيا فى سنواته الأخيرة . ولم يكن فى وسع الملك إلا أن يصبح جزءاً صغيراً من الإمبراطور ، الذى كان مشغولا تماماً بالإصلاح الدينى والبابوية وسليمان وبارباروسا وفرانسيس الأول ، وشكا الإسبان أنه لم يمنحهم إلا القليل من وقته ، وأنه أنفق الكثير من مواردهم البشرية والمادية فى الحملات التى كانت فى الظاهر لا تهم المصالح الإسبانية . وكيف كان فى وسع إمبراطور أن يتعاطف مع نظم جماعية جعلت إسبانيا تتمتع بنصف ديمقراطية ، قبل مجئ فرديناند الكاثوليكى ، وكانت تتوق كثيراً إلى أن تستعيدها ؟

وقام بأول زيارة لمملكته (١٥١٧) ولم تكسبه حب أحد : وعلى الرغم من مضى عشرين شهراً عليه وهو ملك ، فإنه كان لا يزال لا يعرف الإسبانية وكان عزله الفظ لاكسيمينس صدمة للدماثة الإسبانية . وجاء يحيط به فلمنكيون ، ظنوا إسبانيا بلداً همجياً تنتظر من يحلبها . وعين الملك البالغ من العمر سبعة عشر عاماً هذه الديدان الطبية فى أعلى المناصب . ولم تخف المجالس التشريعية الإقليمية المختلفة التى يسيطر عليها صغار النبلاء ، نفورها وعدم رضاها

عن ملك أجنبي ، ورفض المجلس التشريعي في قشتالة أن يعترف له باللقب ، ثم اعترف به على كره منه حاكماً ، تشترك معه في الحكم أمه المعتوهة جوانا ، وجعله يفهم أنه لا بد من أن يتعلم الإسبانية ، ويعيش في إسبانيا ، وألا يعين مزيداً من الأجانب في أي منصب . وقدمت المجالس التشريعية طلبات مماثلة . ووسط مظاهر الإذلال التي تعرض لها شارل تلقى أنباء بأنه انتخب إمبراطوراً ، وأن ألمانيا كانت تدعوه للحضور لكي يتوج : وعندما سأل المجلس التشريعي في بلد الوليد (وكانت وقتذاك العاصمة) أن يحول الرحلة منى بالفشل والخيبة ، وساد هرج هدد حياته ، وحصل آخر الأمر على المال من المجلس التشريعي في كورونا وأسرع إلى الفلاندرز . ولكي يجعل الأمور محفوفة بالمخاطر أضعافاً مضاعفة أرسل نواباً corregidores لحماية مصالحه في المدن ، وترك مربيه السابق أدريان كاردينال أترخت نائباً له في إسبانيا .

وثارت البلديات الأسبانية واحدة وراء الأخرى في « ثورة أعضاء الكومون » ونفوا النواب الـ corregidores وقتلوا بعض النواب الذين صوتوا بالموافقة على منح أموال لشارل ، وتحالفوا فيما يعرف باسم Santa Communidad الذي تعهد بالإشراف على الملك . وانضم النبلاء ورجال الكنيسة وأوساط الناس إلى الحركة ونظموا في أفيلا (أغسطس سنة ١٥٢٠) الـ Santa Iunta أو الاتحاد المقدس ليكون بمثابة حكومة مركزية . وطالبوا بضرورة اشتراك المجالس التشريعية مع المجالس الملكية في اختيار نائب الملك ، وعدم شن حرب بغير موافقة المجالس التشريعية ، وألا يحكم المدينة النواب بل يحكمها قضاة ، أو عمد يختارهم المواطنون(٢٩) . ودافع أنطونيو دى أكونيا أسقف سمورة علنا عن قيام جمهورية ، وحول أتباعه من رجال الاكليروس إلى محاربين ثوريين ، وقدم موارد أسقفية للثورة . وعين جوان دى بادیلا ، وهو نبيل من طليطلة ، قائداً لقوات الثوار . فقادها لتستولى على نورديسيلاس ، وأخذ جوانا لا لوكا رهينة ،

وحثها على أن توقع وثيقة ، تخلع فيها شارل ، وتعين نفسها ملكة ، وكانت عاقلة فى جنونها ، فرفضت .

ولم يكن لدى أدريان ما يكفى من الجند لقمع الثورة ، فاستغاث بشارل وطلب منه العودة ، وألقى تبعة قيام الثورة صراحة على تحكم الملك وحكمه الغيابى . ولم يحضر شارل ، ولكنه وجد هو أو مستشاروه سبيلا لإشاعة الانقسام والانتصار ؛ فقد حذر النبلاء أن الثورة كانت تهديدا لطبقات أصحاب الأملاك وللتاج على السواء ، والحق أن الطبقات العامة ، التى ظلمت منذ عهد بعيد بالأجور الثابتة ، والعمل سخرة ، وتحريم الاتحاد ، كانت قد استولت من قبل على السلطة فى عدة مدن ، وفى بلنسية والمنطقة المجاورة لها قبض الجرمانيا Germania أو إخوة أبناء الطوائف الحرفية على الزمام ، وسيطروا على لجان العمال ، وكانت هذه الدكتاتورية البروليتارية نقية على غير العادة ، وفرضت على آلاف المغاربة الذين ظلوا فى المقاطعة أن يختاروا بين التعميد والموت ، وقتل آلاف من الذين رفضوا فى عناد(٣٠) ، وثار العامة فى ماجوركا ، الذين عاملهم سادتهم كالعبيد ، ثورة مسلحة ، وخلعوا الحاكم المعين من قبل الملك ، وذبحوا كل نبيل لم يستطع أن يفلت منهم ، وتخلت كثير من المدن عن روابطها مع الإقطاعيين ومستحقاتها لهم ، وفى مدريد وسجونزا ووادى الحجارة أقصت الحكومة البلدية الجديدة كل النبلاء والأعيان من المناصب ، وقتل الأشراف هنا وهناك ، وفرض الاتحاد Junta ضرائب على أملاك النبلاء السابق إعفاؤها . وأصبح النهب عاماً ، وأحرق العامة قصور النبلاء وذبح النبلاء العامة . وانتشر الصراع بين الطبقات فى أرجاء إسبانيا .

وقضت الثورة على نفسها بالتوسع فى أهدافها ، توسعاً جاوز حدود طاقاتها ، وانقلب عليها النبلاء ، وحشدوا قواتهم ، وتعاونوا مع قوات الملك ، واستولوا على بلنسية ، وأطاحوا بالحكومة البروليتارية ، بعد أيام سقط فيها

قتلى من الجانبين (١٥٢١) ، وانقسم جيش الثوار ، عند ما بلغت الأزمة ذروتها ، إلى فرقتين متنافستين بقيادة باديلاودون بدرو جيرون ، وانقسمت الجماعة السياسية إلى أحزاب ، يناصب بعضها بعضاً العداء ، وواصلت كل مقاطعة ثورتها ، دون تآزر مع باقى المقاطعات .

وانطلق جيرون ، وانضم إلى الملكيين الذين استولوا من جديد على توررديسلاس وجوانا . أما جيش باديلا الذى تضاءل عدد جنوده فقد هزم هزيمة منكرة فى فيلالار ، وأعدم باديلا . وعند ما عاد شارل إلى إسبانيا (يوليو سنة ١٥٢٢) ومعه ٤٠٠٠ جندى ألمانى ، كان النبلاء قد فازوا بالنصر ، وقد أضعف النبلاء والعامة بعضهم بعضاً إلى حد أنه استطاع أن يتغلب على البلديات والطوائف الحرفية ، ويروض المجالس التشريعية ، ويوطد أركان ملكية تكاد تكون مطلقة . وقد قمعت الحركة الديمقراطية تماماً بحيث ظل كل العامة الإسبان خائفين خاضعين ، حتى القرن التاسع عشر . وخفف شارل سلطته بالدماثة ، وأحاط نفسه بالنبلاء ، وتعلم الحديث بلغة إسبانية سليمة ، وسرت إسبانيا عند ما علق قائلا إن الإيطالية هى اللغة اللائقة لكى تتحدث بها النساء ، والألمانية هى لغة الأعـــداء ، والفرنسية لغة الأصدقاء ، والإسبانية لغة الرب[٣١] .

٢ — البروتستانت الإسبان

لم تكن هنا إلا قوة واحدة تستطيع أن تتحدى شارل — هى الكنيسة — وكان نصيراً للكاثوليكية ، ولكنه مناهض للبابوية . وسعى ، مثل فرديناند الكاثوليكى ، إلى جعل الكنيسة الإسبانية مستقلة عن البابوات ونجح فى هذا إلى حد أن التعيينات فى مناصب الكنيسة ودخول الكنيسة إبان حكمه كانت فى يديه ، واستخدمت لرفع شأن السياسة الحكومية . ولم تكن هناك حاجة للإصلاح الدينى فى إسبانيا ، كما هو الحال فى فرنسا ؛ لكى تتبع الكنيسة

للدولة . ومع ذلك فإن الحماسة للعقيدة المحافظة الإسبانية ، إبان نصف مدة حكمه ، التى قضاها فى مملكته ، استحثته إلى حد أنه فى سنواته الأخيرة لم يكن هناك أمر (باستثناء قوة آل هابسبرج) يهمه أكثر من قمع الهرطقة .

وبينما حاول البابوات أن يخففوا من وطأة محكمة التفتيش فإن شارل أيدها حتى وفاته . وكان مقتنعاً بأن الهرطقة فى الأراضى المنخفضة كانت تؤدى بها إلى الفوضى والحرب الأهلية ، وصمم على أن يمنع حدوث مثل هذا التطور فى أسبانيا

وأخمدت محكمة التفتيش الإسبانية سورة غضبها ، ولكنها مدت رقعة اختصاصها القضائى فى عهد شارل . فاضطلعت بعبء الرقابة على المصنفات ، وقامت بتفتيش كل مخزن للكتب ، وأمرت بإحراق الكتب الموصـــومة بالهرطقة(٣٢) . واستقصت حالات الانحراف الجنسى وعاقبت عليها : ووضعت قواعد نقاء الدم Limpieza ، التى أغلقت كل طرق التمييز أمام ذرية المتحولين إلى غير دينهم Conversos وكل من عاقبتهم المحكمة ، وكانت تنظر إلى المتصوفة نظرة قاسية ، لأن بعض هؤلاء ادعوا أن صلاتهم المباشرة بالله أعفتهم من حضور الصلاة فى الكنيسة ، وأضفى آخرون على حالات وجدهم الصوفى طعماً جنسياً مشبوهاً ، وأعلن الواعظ العلمانى بدرو رويز دى الكراز أن الجماع هو اتحاد بالرب حقاً ، وقال الأخ الراهب فرانسيسكو أورتيز مفسرا أنه عند ما يرقد مع زميلة متصوفة جميلة فإنه لا يرتكب خطيئة من خطايا الجلس ، بل ينعم بمتعة روحية(٣٣) . وعاملت محكمة التفتيش برفق هؤلاء المتنورين Alumbrados واحتفظت بأقسى إجراءاتها ضـــد البروتستانت فى إسبانيا .

وكما حدث فى شمالى أوروبا وقعت مناوشـــة إرازمية قبل معركة البروتستانت ، وهتف بعض رجال الكنيسة المتحررين استحساناً لانتقادات علماء الإنسانيات لأخطاء رجال الإكليروس ، ولكن إكسيمنيس وآخرين

كانوا قد قوموا من قبل المظالم البارزة أكثر من غيرها ، قبل مجيء شارل .
ولعل اللوثرية كانت قد تخللت أرض إسبانيا مع الألمان والبلجيكيين المتكلمين بالفلمنكية فى الحاشية الملكية . وأدانت محكمة التفتيش ألمانيا فى بلنسية عام ١٥٢٤ ، لأنه جاهر بالتعاطف مع لوثر ، وحكم على فلمنكى بالسجن مدى الحياة عام ١٥٢٨ ، لتشككه فى المطهر وصكوك الغفران ، وأحرق فى المحرقة فرانسيسكو دى سان رومان ، أول من عرف من اللوثريين الإسبان عام ١٥٤٢ ، بينما كان المشاهدون المتحمسون يطعنونه بسيوفهم . واعتنق جوان دياز اف كوينكا ، الكالفيلية فى جينيف ، فاندفع أخوه ألفونسو من إيطاليا ليحوله مرة أخرى إلى العقيدة المحافظة ، وعندما فشل الفونسو عمل على قتله (١٥٤٦)[٣٤] وسجن جوان جيل ، أو أجيديو ، وهو كبير قساوسة متعلم فى أشبيلية ، لمدة عام بسبب وعظه ضد عبادة الصور والصلاة للقديسين وفاعلية الأعمال الصالحات فى الفوز بالخلاص . ونبشت عظامه بعد وفاته وأحرقت ، وواصل رفيقه كبير القساوسة كونستانتينو بونس ديلافويلتى ، دعايته ، ومات فى سجون محكمة التفتيش . وأحرق أربعة عشر من زملاء كونستانتينو ، ومنهم أربعة رهبان وثلاثة نساء ، وحكم على عدد كبير بعقوبات مختلفة ، ودك البيت الذى اجتمعوا فيه حتى سوى بالأرض .

وتطورت جماعة نصف بروتستانتية أخرى فى بلد الوليد ، وهنا تورط نبلاء من ذوى النفوذ ورجال دين من أصحاب الرتب الرفيعة . ووشى بهم لمحكمة التفتيش ، وقبض عليهم جميعاً تقريباً وحكم عليهم بالإدانة ، وحاول البعض مغادرة إسبانيا فقبض عليهم وأعيدوا . وكان شارل الخامس وقتذاك يستجم فى يوستى ، فأوصى بعدم إظهار أية رحمة فى معاملتهم ، وقطع رأس التائبين وإحراق من يرفضون التوبة . وفى يوم أحد الثالوث الموافق ٢١ مايو سنة ١٥٥٩ أعدم أربعة عشر من المحكوم عليهم أمام جمع متهلل[٣٥] . وتراجع الجميع عما قالوا إلا واحداً ، وعوملوا برفق ، وقطعت رءوسهم ، أما أنطوليو

دى هرزويلو الذى رفض التوبة فقد أحرق حياً . وسمح لزوجته ليونور دى سيز نيروس البالغة من العمر ثلاثة وعشرين عاماً بالسجن مدى الحياة : وبعد أن أمضت عشر سنوات فى السجن، عدلت عن انكارها لما قالت ، وجاهرت بهرطقتها ، وطلبت أن تحرق حية مثل زوجها فأجيبت إلى ملتمسها(٣٦) . وعرض ستة وعشرون آخرون من المتهمين للحرق أحياء فى اليوم الثامن من أكتوبر سنة ١٥٥٩ ، أمام حشد مكون من ٢٠٠٠٠٠ شخص ، يرأسه فيليب الثانى : وحرقت ضحيتان وهما حيتان وخنق عشرة :

وكان بارتلومى دى كارانزا ، رئيس أساقفة طليطلة ورئيس أساقفة إسبانيا ، أشهر فريسة وقعت فى براثن محكمة التفتيش فى هذه الفترة . وكان باعتباره من الدومينيكان قد قام بنشـاط كبير فى مطاردة الهراطقة والإيقاع بهم ، وعينه شارل مبعوثاً له فى مجلس ترنت ، وأرسله إلى إنجلترا لحضور زواج فيليب والملكة مارى . وعندما انتخب رئيساً للأساقفة (١٥٥٧) كان الاختيار بالإجماع ما عدا صوته . ولكن بعض « البروتستانت » الذين قبض عليهم فى بلد الوليد شهدوا بأن كارانزا كان قد تعاطف سراً مع آرائهم ، ووجد أنه كان قد راسل المصلح الدينى الإسبانى الإيطالى جوان دى فالديس ، واتهمه عالم للاهوت ذو النفوذ ملشيور كانو بأنه كان يعضد العقيدة اللوثرية فى التزكية بالإيمان : ولم يقبض عليه إلا بعد سنتين من ارتفاع شأنه ووصوله إلى أعلى منصب كنسى فى إسبانيا ، ونستطيع أن نحكم من هذا على مدى قوة محكمة التفتيش . وظل سبعة عشر عاماً معتقلا فى سجن أو غيره ، بينما كانت تصرفاته فى حياته ورسائله تتعرض للفحص والاستقصاء فى طليطلة وروما . وأعلن جريجورى الثالث عشر أنه « مشتبه فيه بشدة » بالهرطقة وأمره بأن ينكر ستة عشر ادعاء ، وأوقفه لمدة خمس سنوات عن مباشرة وظيفته : وتقبل كارانزا الحكم فى ذلة ، وحاول أن

يؤدى الكفارات التى فرضت عليه ، ولكنه مات فى خلال خمسة أسابيع بعد أن أنهكه السجن والإذلال (١٥٧٦) .

وبموته زال خطر البروتستانتية عن إسبانيا ، وحدث أن أعدم حوالى ٢٠٠ شخص بين عامى ١٥٥١ و ١٦٠٠ ، لما نسب إليهم من هرطقات بروتستانتية — أى بواقع أربعة أشخاص كل عام . وقد تجمد طبع الناس ، الذى كان قوامه من كراهية المغاربة واليهود ، التى تأصلت جذورها قروناً طويلة ، فى عقيدة محافظة لا تتزعزع ، وامتزجت الكاثوليكية وحب الوطن ، ووجدت محكمة التفتيش أن من اليسير أن تسحق ، فى خلال جيل أو جيلين ، المغامرة الإسبانية العابرة التى اتسمت بفكر مستقل .

٣ — الإمبراطور يموت : ١٥٥٦ — ٥٨

قام شارل الخامس فى الثامن والعشرين من سبتمبر سنة ١٥٥٦ بالدخول إلى إسبانيا لآخر مرة . واستغنى فى برجوس عن خدمات معظم الذين كانوا قد عملوا معه ومنحهم مكافآت ، وودع شقيقتيه ، مارى المنغارية واليونورا ، أرملة فرانسيس الأول « وأبديا رغبتهما فى مشاركته اعتزاله فى الدير ، ولكن القواعد منعتهما ، فاتخذا لهما مسكنا فى موضع لا يبعد كثيراً عن هذا الشقيق الذى يبدو أنه لم يكن هناك من يحبه وقتذاك سواهما » وبعد أن أقيمت له عدة احتفالات فى الطريق ، وصل قرية جوانديلا فى وادي بلازنسيا ، على مسيرة نحو ١٢٠ ميلا غربى مدريد . ولبث هناك عـــدة شهور ، ريثما أكمل العمال الحجرات التى أمر بتجهيزها وتأثيثها فى دير يوستى (سانت جوستوس) على مسيرة ستة أميال . وعندما قام بالمرحلة الأخيرة من رحلته (٣ فبراير سنة ١٥٥٧) ، لم ينتقل إلى خلوة فى دير بل إلى قصر ريفى فسيح ، اتسع لإقامة المقربين من تابعيه الخمسين . وابتهج الرهبان بوجود ضيف عظيم مثله ، بيد أنهم اكتأبوا عندما

وجدوا أنه ليس لديه النية فى أن يشاركهم حميتهم ونظامهم ، فقد كان يأكل ويشرب كميات كبيرة ، كما كان يفعل من قبل — أى بإفراط . وكانت عجات السردين وسجق الاسترمادورا وفطائر ثعبان السمك ، ولحم الحجل المملح والديوك الخصية السمينة ، وأنهار من النبيذ والجعة ، تختفى فى كرشه الإمبراطورى ، واضطر أطباؤه إلى أن يصفوا له كميات كبيرة من السنامكى والراوند للتخلص من الزيادة فى وزنه .

وبدلا من أن يتلو شارل تسابيحه وأوراده ومزاميره كان يقرأ رسائل من ابنه أو يملى رسائل له ، وكان يعرض عليه النصيحة فى كل وجه من وجوه الحرب واللاهوت والحكم . وأصبح فى العام الأخير من عمره متعصباً متطرفاً قاسياً ، وأوصى بتوقيع عقوبات وحشية « لاستئصال جذور » الهرطقة ، وأسف لأنه كان قد سمح للوثر بالهرب منه فى ورمس . وأمر بجلد أى امرأة مائة جلدة إذا اقتربت من أســوار الدير قاب قوسين أو أدنى(٣٧) . وراجع وصيته لكى ينص فيها على إقامة ٣٠٫٠٠٠ قداس من أجل طمأنينة روحه . ويجب ألا نحكم عليه من أعماله فى أيام الشيخوخة هذه ، ولعل لوثة خبل قد انتقلت إليه بالوراثة من أمه .

وفى أغسطس عام ١٥٥٨ انقلب النقرس الذى يشكو منه إلى حمى ملتهبة . وعاودته هذه بصورة متقطعة ، وأخذت تشتد يوماً بعد يوم ، وظل شهراً يتعذب بكل آلام النزع الأخير قبل أن تزهق روحه (٢١ سبتمبر سنة ١٥٥٨) . وفى عام ١٥٧٤ أمر فيليب بنقل الجثــة إلى الاسكوريال حيث يرقد تحت نصب تذكارى فخم .

وكان شارل الخامس أكبر فاشل فى عصره ، بل إن فضائله كانت أحياناً بؤساً وشقاء للإنسانية . ومنح إيطاليا السلام ، ولكن لم يتم هذا إلا بعد مرور عقد من الزمان ، تعرضت فيه للتخريب ، وبإخضاعها

هي والبابوية لإسبانيا ، وجف عود النهضة الإيطالية تحت رئاسته الكثيبة ، وهزم فرانسيس وأسره ، ولكن ضاعت منه فى مدريد فرصة ملكية ليبرم معه معاهدة كانت حرية بأن تنقذ ماء كل الوجوه ومائة ألف روح ، وعاون فى إعادة سليمان إلى بلاده فى فيينا ، وصد بربا روسا فى البحر الأبيض المتوسط ، وقوى مركز آل هابسبورج ، ولكنه أضعف الإمبراطورية ، وفقد اللورين وسلم بورغنديا ، وأحبط أمراء ألمانيا محاولة لتركيز السلطة هناك ، وكانت الإمبراطورية الرومانية المقدسة منذ عهده نسيجاً واهياً ، تلتظر نابليون ليحكم بإعدامها . وفشلت جهوده لسحق البروتستانتية فى ألمانيا ، وترك الأسلوب الذى انتهجه فى قمعها فى الأراضى المنخفضة تراثاً محزناً لابنه ، وكان قد وجد المدن الألمانية مزدهرة وحرة ، وتركها ترزح ألماً تحت وطأة إقطاع رجعى . وعندما جاء إلى ألمانيا كانت تنبض بالحياة ، فيها أفكار ونشاط تبز بهما أية أمة أخرى فى أوروبا وعندما تنازل عن عرشه كانت ضعيفة واهنة روحياً وفكرياً ، وظلت جدباء مدى قرنين . وكانت السياسة التى انتهجها فى ألمانيا وإيطاليا سبباً واهيا لما لحقهما من ضعف ، أما فى إسبانيا فكان عمله هو الذى سحق حرية البلديات وقوتها ، وكان حريا بأن يبقى إنجلترا فى حظيرة الكنيسة بإقناع كاثرين أن تسلم بحاجة هنرى إلى وريث ، وبدلا من أن يفعل ذلك أجبر كليمنت على اتخاذ موقف فيه تذبذب ، يؤدى إلى الخراب .

ومع ذلك فإن استبصارنا المتأخر هو الذى يرى أخطاءه وجسامتها ، وفى وسع حسنا التاريخى أن يصفح عنها باعتبارها متأصلة بجذورها فى قيود بيئته العقلية وفى أوهام العصر العاتية . وكان أقدر سياسى بين معاصريه ، ولكنه لم يكن كذلك إلا بمعنى أنه عالج بشجاعة أعمق موضوعات النزاع فى أوسع مدى وصلت إليه . وكان رجلا عظيما حطت من شأنه مشكلات عصره وحطمته .

ونفذت إلى حكمه الطويل حركتان أساسيتان . وكانت أعظمهما نمو القومية فى عهد ملكيات تنزع إلى المركزية ، وفى هذه لم يكن له فيها نصيب . وأعظمها من الناحية الدرامية ثورة دينية ، حفزت إليها الانقسامات والمصالح القومية والإقليمية . وقبلت شمالى ألمانيا واسكنديناوة اللوثرية ، أما جنوب ألمانيا وسويسرة والأراضى المنخفضة فقد انقسمت إلى طائفتين بروتستانتية وكاثوليكية ، وأصبحت إسكوتلندة كالفيلية مشيخية ، وإنجلترا كاثوليكية إنجيلكانية أو بيوريتانية كالفيلية . وظلت إيرلندة وفرنسا وإيطاليا وإسبانيا والبرتغال موالية لبابوية بعيدة أو مهذبة . ومع ذلك نشأ تكامل واه ، وسط ذلك الانقسام المزدوج : فقد وجدت الولايات المستقلة المعتزة بنفسها أنها فى حاجة إلى بعضها البعض ، لضمان استقلالها ، كما لم يحدث من قبل ، وأنها مرتبطة بصورة متزايدة فى نسيج اقتصادى ، وأنها تؤلف مسرحاً رحيباً لمناهج سياسية متشابكة العلاقات ، وحروب وقانون بأدب وفن . كانت أوروبا التى عرفها شبابنا تتخذ شكلها .

المراجع

NOTES

مراجع فصل ٢١ من الجزء الرابع والعشرين

CHAPTFR XXI

1. Cath. En. III, 196.
2. Beza in Schaff, *Swiss Ref* 302.
4. Calvin *Institutes*, Preface, 20-2, 39-40.
5. *Institutes*, I, viii, 1.
6. Ibid., II, v., 19.
7. Ephesians, i, 3-7.
8. *Institutes*, III, xxi-xxii.
9. Romans, ix, 15.
10. *Institutes*, II, xxi, 7.
11. Consensus Genevensis in Schaff. *Swiss Ref.*, 554.
12. *Institutes*, III, xxi, 1.
13. Ibid.
14. III, xxiii, 7.
15. IV, i, 10.
16. IV, i, 4.
17. Allen, *Political Thought*, 61; Hearnshaw, *Thinkers of the Renaissance and the Reformation*, 211.
18. *Institutes*, IV, xix, 3.
19. III, xxi, 1.
20. Schaff, 558.
21. *Institutes*, III. ix, 4.
22. Ibid.
23. III, ix, 6.
24. For : La Tour, IV, 32, and *Camb. Mod. Hy*, II, 258 ; against : Cath. En., III. 196a.
25. *Comb. Mod. Hy*, II, 360.
26. Robinson, *Readings*, 299.
27. Schaff, 361.
28. Ibid., 414.
29. 412.
30. 426.
31. 437.
32. Robinson, *Readings*, 300.
33. La Tour, IV, 178.
34. Villari, *Savonarola*, 491.
35. Schaff, 492.
36. Beard, *The Reformation*, 250.
37. Ibid., Schaff, 491.
38. Ibid., 492.
39. O'Brien, *Economic Effects*, 101.
40. As by Weber, Max, *The Protestam Ethic and the Spirit of Capitalism, passim*; Barnes *Economic Hy of the Western orld*, 201-2 ; and O'Brien, 124.
41. *Institutes*, III, vii, 5.
42. Cf. O'Brien. 100.
43. Ibid., 20.
44. Tawney, 119.
45. Barnes, *Economic History*, 201.
46. Schaff, 644.
47. Beard, *The Reformation*, 252; Muir, *John Knox*, 108.
48. Smith, *Reformation*, 174.
49. Scchaff 519.
50. Ibid., 839.
51. La Tour, IV, 206.
52. Schaff, 739.
53. La Tour, IV, 200 ; Schaff, 594.

54. Schaff, 618.
55. Ibid., 502.
56. Robertson, J.M. *Freetbougbt*, I, 443-4.
57. Servetus, *De Trinitatis erroribus*, i, 94b. in Bainton, *Hunted, Heretic*, 48.
58. Servetus, ibid., i, 34 ; Newman, L, I., *Jewisb Influence on Cbristian Reform Movements*, 584.
59. Bainton, *Hunted Heretic*, 144.
60. Ibid.
61. ibid., 147.
62. Schaff, 733.
63. Bury, J. B., *History of Freedom of Tbougbt*, 64.
64. Schaff, 770.
65. Ibid., 764, 773; Bainton, 191.
66. Bainton, 188.
67. Schaff, 777.
68. Ibid., 778.
69. Bainton, 185.
70. Ibid., 209-11 ; Schaff, 710, 781-4.
71. Schaff, 784.
72. Walker, *Jobn Calvin*, 425.
73. Schaff, 707-8.
74. Ibid.
75. 709.
76. In Allen, *Political Tbougbt*,
77. Castellio in Allen, 90-4 ; Haydn, *Counter-Renaissance*, 104.
78. In Allen, 98.
79. *Time* magazine, Fed, 22, 1954.
80. Schaff 652n.

CHAPTER XXII

1. In Lacroix, *Prostitution* ; II 1142.
2. Ibid., 1141.
3. 1130.
4. Taylor, R., *Leonardo*, 444.
5. Sichel, *Catberine de' Medici and tbe 'Frencb Reformation*, 38.
6. Erasmus, *Colloquies*, II, 54.
7. Erasmus, *Epistles*, II, 468.
8. Michelet, III, 175.
9. E.g., Aretino, *La cortigiana*, in *Dialogues*, 228.
10. Batiffol, *Century of tbe Renaissance*, 44.
11. Lacroix, *Prostitution*, II, 1131
12. Cellini, *Au ograpby*, ii, 10.
13. Guizot, *Hy of France*, III, 81.
14. Ibid., Michelet, III, 218.
15. Michelet, III, 148.
16. Sichel, *Women and Men of tbe Frencb Renaissance*, 87.
17. Ibid .
18. Michelet, III, 135.
19. Sichel, *Women*, 193.
20. Faguet, *Literary History of France*, 281.
21. Margaret, Queen of Navarre, *Heptameron*, xli.
22. In Maulde, 354.
23. Margaret, *Heptameron*, 36.
24. In Maulde, 53.
25 Ibid .,297
26. In Sichel, *Women*, 1[illegible]
27. Ibid., 371.
28. 180.
29. Boyd, *Frencb Renoissance*, 25.
30. Sichel, *Catberine de' Medici and tbe Frencb Reformation*, 138.
31. Sichel, *Women*, 104.
32. Michelet, III, 136.
33. *Damb. Mod. Hy*, I, 659.
34. Ibid.

35. Lacroix, *Prostitution*, II, 1247.
36. Margaret, *Heptameron*, Tale 22.
37. Ibid., xlii.
38. In Guizot, III, 187.
39. Ibid., 196.
40. 197.
41. Roeder, *Catherine de' Medici*, 54.
42. La Tour, II, 237 f.
43. Michelet, III, 216.
44. Guizot, III, 216.
45. Schaff, *Swiss Reformation*, 320.
46. Ibid., 320 ; La Tour, II, 556-7.
47. Sichel, *Women*, 18.
48. Guizot, III, 220.
49. La Tour, II, 612.
50. Michelet, III, 319 ; Guizot, III, 229 ; *Camb Mod. Hy*, II, 289.
51. Guizot, III, 15.
52. Ibid., 73.
53. Ibid., 91 : Michelet III, 239.
54. Guizot., III, 95.
55. Ibid., 91.
56. Michelet, III, 244.
57. Robertson, W., *Charles* 538.
58. Guizot, III, 105-6.
59. Ibid., 116.
60. *Camb. Mod. Hy*, III, 105.
61. Guizot, III, 129 ; Robertson, *Charles V*, II, 57-60.
62. Michelet, III, 316 ; *Camb. Mod. Hy*, II, 77.
63. Janssen, VI, 358.
64. Michelet, III, 293-4.
65. Hackett, *Francis I*, 428.
66. Brantôme in Guizot, III, 192.
67. Sichel, *Catherine*, 51.
68. D'Orliac, *The Moon Mistress*, 186.
69. Janssen, VI, 359.
70. Michelet, III, 366.
71. Guizot, III, 281.
72. Pastor, XII, 486.
73. Batiffol, 175.
74. Robertson, *Charles V*, II, 351.
75. Guizot, III, 261.

CHAPTER XXIII

1. Pollard, *Henry VIII*, 39.
2. Froude, *Erasmus*, 142.
3. Chambers, *Thomas More*, 99.
4. Erasmus, *Epistles* I, 457.
5. Froude, *Henry VIII*, I, 30 ; Ep. 447 in Froude, *Erasmus*, 107.
6. Seebohm, *Oxford Reformers* 261-6.
7. Erasmus, *Epistles*, II, 546.
8. Guicciardini, VIII, 126.
9. Pollard, 67.
10. Creighton, *Cardinal Wolsey*,
11. Gasquet, *Henry VIII and the English Monasteries*, I, 69.
12. Robinson, J. H., *Readings*, 303.
13. Burnet, *History of the Reformation*, I, 6.
14. Chambers, *More*, 158; Hughes, *Reformation*, I, 80.
15. Ibid.
16. Creighton, *Wolsey*, 59.
17. Burnet, I, 15.
18. Lingard, IV, 192.
19. Robinson, *Readings*, 303.
20. Pollard, 110.
21. Robinson, l. c.
22. Lingard, IV, 193 ; Chamb-

ers, *More*, 173-4 ; Hughes, I, 109.
23. Froude. *Henry VIII*, I, 60 ; but cf. Hughes, I, 58 f.
24. Hughes, I, 103n.
25. Belloc, *How tbe Reformation Happened*, 117.
26. Seebohm, 203-46.
27. Coulton, *Panorama*, 718.
28. Froude, *Henry VIII*, II, 114-5.
29. Hughes, I, 49-50.
30. Froude, I, 350.
31. Hughes, I, 50-66.
32. Oasqucet, *Monasteries*, II, 237 ; Trevelyan, *English Social Hy*, 73.
33. Ibid.
34. Hughes, I, 57-8.
35. Coulton, *Panorama*, 554.
36. Hughes, I, 150.
37. Ibid., 127-9.
38. 202.
39. Smith, *Lutber*, 193.
40. Coulton, *Life in tbe Middle Ages*, II, 143; Oasquet, *Eve*, 213.
41. *Camb. Mod. Hy*, I, 640.
42. Beard, *Reformation*, 305.
43. Ibid.
44. Hughes, I, 146.
45. Froude, I, 319, 336.
46. Burnet, I, 16.
47. Oasquet, *Monasteries*, I, 85-8.
48. Froude, I, 81.
49. Burnet, I, 26.
50. Hughes, I, 67-70.
51. Pollard, 174.
52. Burnet, I, 27.
53. Pollard, 76, 176.
54. Froude, I, 74n.
55. Pollard, 183.
56. Ibid, 135.
57. Froude, *Divorce of Catberine of Aragon*, 47.
58. Pastor, X, 241.
59. Froude, *Divorce*, 47.
60. *Camb. Mod. Hy*, II, 431.
61. Pastor, X, 244.
62. Pollard, 207.
63. Ibid., 208.
64. Pastor. X, 257-8 ; Hughes ; I, 175-9; Acton, 139.
65. Hughes, I, 176.
66. Pastor, X, 267.
67. Pollard, 225.
68. Burnet, I, 55.
69. Froude, *Reign, of Elizabetb* III, 259.
70. Froude, *Divorce*, 190.
71. Hughes, I, 181.
72. Oavendish, *Life of Wotsey*, in Froude, *Henry VIII*, III, 115.
73. Creighton, *Wolsey*, 186.
74. Pollard, 223-4.
75. Creighton, 185.
76. Burnet, I, 61.
77. Creighton, 194.
78. Froude, *Divorce*, 138.
79. Creighton, 205.

CHAPTER XXIV

1. Froude, *Divorce*, 166, 81.
2. Pollard, 250-1.
3. Trevelyan, *Social Hy*, 102.
4. Pollard, 237.
5. Froude, *Henry VIII*, I, 128-35.
6. Ibid., 139.
7. 162.
8. Sichel, *Women*, 176.
9. Lingard, IV, 273.

10. Prescott, H. F., *Mary Tudor*, 38.
11. Schuster, M. L., *Treasury of the World's Great Letters*, 77.
12. Froude, *Henry, VIII*, I, 218.
13. Ibid., 265.
14. Pollard, 187.
15. Ibid., 300.
16. Gasquet, *Monasteries*, I, 122, 129, 134 f.
17. Pollard, 304-5.
18. Chambers, *More*, 323. 326; Lingard. IV, 19.
19. Froude, *Henry VIII*, II, 82.
20. Burnet, I, 123 5.
21. Erasnus, *Epistles*, II, 186.
22. Pollard, 305; Eroude, *Council of Trent*, 116-7.
23. Chambers, *More*, 334.
24. Prescott. *Mary Tudor*, 60.
25. Roper, *More*, 46.
26. Hughes, I, 345.
27. Cf., e.g., Chambers, *More*,
28. Erasmus, *Epistles*, II, 427.
29. Jusscrand, *Wayfaring Life*,
30. Froude, *Erasmus*, 103-7 ; Chambere, *More*, 75.
31. Chapiro, 36.
32. Erasmus, *Epistles*, II, 423.
33. Chambers,
4. More, *Utopia*, 168.
35. Ibid., 213.
36. 247.
37. Ibid.
38. 303.
39. 322-5.
40. 323.
41. 320.
42. 335.
43. 290-1.
44. 215, 347, 209.
45. 178-9.
46. 343-4.
47. Froude, *Hery VIII*, I, 347.
48. Chambers, *More*, 276.
49. Ibid., 281.
50. Cf. Coulton, *Panorama* 709.
51. More, *English Works*, 586, in Taylor, *Thought and Expression*, II, 68.
52. Roper, 89.
53. Ibid., 109.
54. Hearnshaw, *Thinkers of the Renaissance*, 146.
55. Roper, 126.
56. Chambers, *More*, 349.
57. Froude, *Henry VIII*, II, 95.
58. Erasmus, Letters of Aug. 24 and 31, 1535.
59. Roper, 127.
60. Chambers, 277.
61. Burnet, I, 143.
62. Presoti, *Mary Tudior*, 50 ; Ponard 304.
63. Froude, *Henry VIII*. II, 142.
94. Burnet, I, 143.
65. Prescott, *Mary*, 70.
66. Pollard, 343.
67. Ibid.
68. Froude, *Henry VIII*, II, 159.
69. Lingard, V, 37,
70. Froude, II, 171.
71. Pollard, 346.
72. Ibid., 305.
73. Froude, *Henry VIII*, III, 26n.
74. Ibid., II, 204.

CHAPTER XXV

1. C. R. Beazley in Traill, *Social Englad*, III, 49.
2. Gasquet, *Eve*, 397-0.
3. Montesquieu, *Spirit of Laws*, xii, 10.
4. Froude, *Henry VIII*, II, 116.

5. Ibid, 240.
6. Pollard, 337; Gasquet, *Monasteries*, I, 254-336.
7. Pollard, 339.
8. Froude, II, 119-26.
9. Ashley, *Economic Hy*, II, 213.
10. Gasquet, I, 341-3.
11. Ibid., 291-5.
12. Froude, II, 240.
13. Gasquet, II, 82.
14. Ibid., II, 82.
15. Froude, II, 56.
16. Gasquet, I, 363; II, 33, 323.
17. Ibid., II, 336-7, 438.
18. Hughes, I, 328.
19. Gasquet, II, 447-8.
20. Traill, III, 129.
21. Salzman, *English Industries*, 232; *Camb. Mod. Hy*, II, 467.
22. Lecky, *Rationalism*, II, 126; Ashley, II, 316; Trevelyan, *Social Hy*, 112.
23. Traill, III, 128.
24. D'Alton, E. A., *Hy of Ireland*, II, 382-7; Joyce, *Short Hy of Ireland*, 317.
25. D'Alton, 530 f.; Froude, *Henry VIII*, III, 166.
26. Pollard, 438.
27. Froude, III, 280.
28. Pocock in *English Historical Review*, Vol. X, p, 421.
29. Froude, III, 280.
30. Id, II, 353.
31. III, 23-4; Pollard, 399-1.
32. Lingard, V, 73-4; Pollard, 400; Froude, III, 104.
33. Froude, *Edward VI*, 68.
34. Ashley, II, 351.
35. Froude, *Edward VI*, 69.
36. Froude, *Henry VIII*, I, 52-5; II, 137; Traill, III, 250; Marx, *Capital*, I, 806.
37. Trevelyan, *Social Hy*. 137.
38. Froude, *Henry VIII*, I, 16n.
39. Rogers, J., *Six Centuries of Work and Wages*, 78.
40. Hughes, I, 29.
41. Traill, III, 127.
42. Hughes, I, 159.
43. Lingard, V, 61.
44. Pollard, 403.
45. Lingard, V, 76.
46. Lees-Milne, *Tudor Renaissance*, 21.
47. Froude, *Henry VIII*, III, 281-2.
48. Ibid., 402.
49. *Camb. Mod. Hy*, II, 459; Traill, III, 65.
50. In Coulton, *Medieval Village*, who disagrees. Cf. Froude, *Henry VIII*, I, 43.
51. Rogers, 79 f.

CHAPTER XXVI

1. Stow's *Chronicle*, in Froude, *Edward VI*, 21.
2. Ibid., 34.
3. Hughes, II, 162; *Camb. Mod. Hy*, II, 400-1.
4. Rogers, 89.
5. Froude, *Edward*, 165.
6. Ibid., 183; Prescott, *Mary Tudor*, 25.
7. Hughes, II, 192-3.
8. Robertson, *Freethought*, I, 459.
9. Froude, *Edward*, 98 101
10. Ibid., 103.
11. *Camb. Mod. Hy*, II, 502.
12. Froude, *Edward*, 156.

13. Ibid., 278.
14. Ibid.
15. 163.
16. 176; Lingard, V, 228.
17. Froude, 176.
18. Ibid., 209.
19. *Camb. Mod.* H*y*, II, 301.
20. Froude, 226.
21. Cf. Prescott. *Mary Tudor*, 17.
22. En. Brit., XIV, 1001.
23. Chapuys in Prescott, 50, 54.
24. Ibid.
25. En. Brit., XIV, 1000b.
26. Prescott, 122.
27. Ibid., 209.
28. Pastor, XIV, 399.
29. Froude, *Mary Tudor*, 44.
30. Prescott, 191-2.
31. Ibid., 194.
32. 196.
33. Froude, *Mary Tudor*, 66.
34. Hughes, I, 18.
35. Froude, 56.
36. Ibid., 50.
37. 56.
38. Prescott, 285.
39. Ibid., 274.
40. 266.
41. 284.
42. 315.
43 Frude, 325.
44. Prescott, 325.
45. Lingard, V, 230.
46. Prescott, 206.
47. Ibid., 302.
48. 304.
49. Pastor, XIV, 360.
50. Froude 119.
51. Prescott, 307.
52. *Camb. Mod.* H*y*, II, 543.
53. Froude, 110.
54. Prescott, 311.
55. Foxe, *Acts and Monuments*, I, 231 f; Maitland, S. R., *Essays on the Roformation*, 409; Smith, *Reformation*, 586, Lee, Sidney, *Dictionary of National Biograpby*, XX, 146.
56. Hughes, II, 258-9.
57. Froude, *Mary Tudor*. 199.
58. Lingard, V, 231.
59. Pastor, XIV, 370.
60. Froude, 202.
61. Ibid., 233.
62. Foxe, VIII, 82-3.
63. Ibid., 88.
64. 90.
65. Froude, 235.
66. Beard, *Reformation*, 182.
67. Hughes, II, 198.
68. Hume, *Spain: Its Greatness and Decay*, 117.
69. Prescott, 332.
70. Ibid., 381.
71. 390.

CHAPTR XXVII

1. Cf. Buckle, H*y of Civilization*, II, ch, ii.
2. Ibid., I, 150; Belloc, *How the Reformatiou Happened*, 188.
3. Ibid., 189.
4. Lang, H*y of Scotland*, 425.
5. Froude, *Elizabeth*, I, 73.
6. Knox, H*y of the Reformaion*, Introd, by W.C. Dickinson, xvii,
7. Lang, I, 300.
8. Ibid., 476.
9. Froude, *Henry VIII*, III, 298.

10. Ibid., 295. 300.
11. Knox, *History*, I, 76.
12. Ibid., 78.
13. 8.
14. 55.
15. Lang, I, 484.
16. Knox, I, 84-5.
17. Muir, *Knox*, 119.
18. Ibid., 133.
19. 120.
20. 202.
21. Froude, *Elizabeth*, I, 257.
22. Allen, *Political Thought*, 110.
23. Knox, *History*, Introd, lxxiii; Muir, 67.
24. Knox, I, 194 and note 2.
25. Knox, Introd., xiv; cf, Muir, 300.
26. Muir, 157.
27. Lang, II, 37.
28. Knox, II, 18.
29. Ibid., 4.
30. I, 6.
31. Knox, Introd., xli.
32. Ibid., xxxix.
33. Knox, *Works*, IV, 365, 373-7.
34. Ibid., 418-20.
35. Knox, *Book of Discipline*, in Allen, *Political Thought*, 113n.
36. Ibid., 113; Lecky, *Rationalism*, II, 16.
37. Knox, Introd., xlii, and Allen, 113.
38. In Muir, 142.
39. Ibid., 148-9.
40. Lang, II, 45.
41. Knox, I, 161-2.
42. Ibid.
43. 163.
44. Lang, II, 51-3.
45. Knox, I, 164.
46. Ibid., 171-2.
47. 182; Lang, II, 54-5.
48. Knox, I, 191.
49. Knox, II, Appendix VI.

CHAPTER XXVIII

1. *Camb. Mod. Hy*, II, 602; En. Brit., VII, 210a.
2. Watson, P. B., *Swedish Revolution under Gustavus Vasa*, 123.
3. Ibid., 162.
4. 169.
5. Horn, *Literature of the Scandinavian North*, 147.
6. In Lednicki, *Life and Culture of Poland*, 107.
7. Kesten, *Copernicus*, 144.
8. *Camb. Hy of Poland*, I, 322-4.
9. Ibid., 329.
10. Lützow, *Bohemia*, 206n.
11. Tawney, 75.
12. Blok, II, 332.
13. *Camb. Mod Hy*, II, 63; Taine, *Lectures on Art* 272.
14. Pirenne, H., *Belgian Democracy*, 218.
15. Motley, J. L., *Rise of the Dutch Republic*, I, 101.
16. Smith *Reformation*, 240.
17. Blok, II, 314.
18. In Kautsky, 283.
19. Smith, 244.
02. Kautsky, 285 f.; Ranke, 75 f.
21. Motley, I 222-5.
22. Smith, 245.
23. Draper, J.W., *Intellectual Development of Europe*, II, 226.

24. Smith, 245.
25. Armstrong, *Charles, V*, II, 382-3 ; Robertson, *Charles V*, II, 137 ; Michelet, III, 293.
26. Ibid., 363.
27. 349.
28. Robinson, *Readings*, 317-9.
29. Altamira, *Hy of Spanish Civilization*, 135.
30. Hume, *Spanish People*, 222-3.
31. Vernadsky, O., *Kievau Russia*, 243.
32. Wilkins, *Spanish Protestantism in the 16th Century*, 19.
33. Lea, *Inquisition in Spain*, IV, 8-12.
34. Wilkins, 26 ; *Camb. Mod. Hy*, I, 403.
35. Lea,IV, 431-8.
36. Ibid., 441.
37. Prescott, W. H. in Robertson, *Charles V*, II, 648.

لقد رأينا الثورة الصناعية تبدأ بذلك السيل المتدفق من المخترعات التي قد تحقق قبل أن نصل إلى الألف الثاني للميلاد - حلم أرسطو بالآلات التي تحرر البشر من كل عناء يدوي. ولقد سجلنا المراحل التي خطتها علوم كثيرة صوب فهم للطبيعة وتطبيق أجدى لقوانينها. ولقد رحبنا بانتقال الفلسفية من أفضل الميتافيزيقا العقيمة إلى اجتهادات العقل في شئون البشر الدنيوية. ولقد علمتنا أن نقيم حكومة عادلة قادرة وأن نوفق بين جهود الساسة والفلاسفة الديموقراطية وبين بساطة البشر وعدم مساواتهم الطبيعية. ولقد استمتعنا بمختلف إبداعات الجمال في الباروك والفن الكلاسيكي المحدث وانتصارات الموسيقى.واستمتعناأيما استمتاع بثروة القرن التاسع عشر في الأدب والعلم والفلسفة والموسيقى والفن والتكنولوجيا والحكم.لقد أتممنا على قدر استطاعتنا قصة الحضارة هذه ومع أننا كرسنا معظم حياتنا لهذا العمل فإننا عليمان بأن عمر الإنسان أن هو إلا لحظة قصيرة في التاريخ وبأن خير ما يقدمه المؤرخ من عمل سرعان ما يكتسح حين يطمو نهر المعرفة ويتعاظم. غير أننا ونحن نتابع دراستنا من قرن إلى قرن ازددنا يقناً بأن كتابة التاريخ الرسمي قد أسرف في تجزئتها أبواباً وفروعاً وأنه ينبغي لبعضنا أن يحاول كتابة التاريخ كلاً كما كان يعاش في جميع وجوه الدراما المعقدة الموصولة .

لقد انقضت الآن أربعون عاماً من المشاركة السعيدة في ملاحقة التاريخ. وكنا نحلم باليوم الذي نكتب فيه آخر كلمة في آخر مجلد. والآن وقد أقبل هذا اليوم سنفتقد الهدف الممتع الذي أضفى على حياتنا معنى واتجاهاً. وإننا لشاكر فإننا للقارئ الذي صاحبنا هذه لسنين الكثيرة بعض الرحلة الطويلة أو كلها. لقد كنا على الدوام واعين بحضوره. والآن نستأذنه في الرحيل ونقرئه تحية الوداع ...

